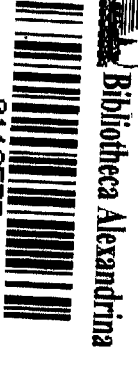
أحمد الأحمدين

الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية







الوقوف على الأمية
عند عرب الجاهلية

أحمد الأحمدين

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٩٩/١٦٢٧
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-126-4



- مركز الحضارة العربية ، مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية ، إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشرها وتوزيعها .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

الوقوف على الأمية
عند عرب الجاهلية

أحمد الأحمدين



مقدمة

دعانى إلى كتابة هذا الموضوع كثرة ما يتردد عن تعميم عرب ما قبل الإسلام بأمية القراءة والكتابة ، وجعْل القارئ الكاتب بينهم أمراً يصعب على المتتبع إيجاده ، ودعاة هذا يسوغون نهجهم مُعَوِّلاً على حديث للرسول - عليه الصلاة والسلام - : (نحن أمة أمِّية لا نكتب ولا نحسب) . دون شرح له طبعاً ، أو حتى المناسبة التى قيل فيها لأنهم لو ذكروا هذا تبين للقارئ أو السامع غير ما يريدون ؛ إذ إن الرسول لم يقصد جهل أمته بالقراءة والكتابة وضروب الحساب ، اللهم إلا أنهم يسقطون ذلك الضرب الذى بسببه قيل الحديث ، كذلك تراهم يعولون ويكثرون من الاستشهاد بالآية الثانية من سورة الجمعة : (هو الذى بعث فى الأميين رسولاً) . وهم فى هذا وذاك يعولون على ظاهر اللفظ ومنطوقه ليس غير ، وهذا اللفظ ورد فى القرآن فى أكثر من آية لكنه ما قصد بأى موضع منها أنه يعنى أمية القراءة والكتابة ؛ بل العكس فإن القرآن خاطب العرب لا سيّما الحجازيين وأهل الكتاب فى غير الحجازيين بأنهم قارئون كاتبون عالمون [1] بالكتب والرسل والأنبياء ، والأمم السابقة ، والمعاصرة لهم .

وأيضاً يدل على هذا ما ورد فى الأدب الجاهلى وما حواه من ذكر القراءة والكتابة وأدواتها ، بل إنه عرفنا أنه كان للمكتوب عندهم مسميات عديدة اصطلحت حسب أغراضه .

ووجدتُنى مشدوداً إلى تناول الموضوع بالبحث والتحقيق لأنه فى يقينى ويقين الكثيرين غيرى أن أسلافنا لم يكونوا على هذا النحو الذى يصوره أولئك ، وعنيتُه فعلاً ومكثت فيه حيناً من الدهر بين البحث والتحقيق والتأليف حتى أتيت بما بين أيديكم وبما أرجو أن يجد فيه القارئ نفعاً ويكون زُبالة فى طريقنا الذى يُعنى أولئك أن يعتموه علينا .

شمعة

أحمد الأحمدين
ديسمبر ١٩٩٧م

---

(١) سأبين ما المقصود بأمية العرب التى وردت فى القرآن ، وسبب قول الحديث الذى ورد عن الرسول والمناسبة التى قيل فيها ، وذلك فى حينه .

- ١ -

المملكتان العظيمتان

رأيت قبل أن أبدأ موضوعى عن الأثر التعليمى فى العرب لمملكتىْ (الحيرة) و(غسان) أنه ينبغى علىّ البدء بمملكتين أبعد عهداً وأعظم أثراً منهما حتى أكون أتيت الأمر من فصه كما يقول (طرفة بن العبد)أو غيره ، أى من أصله .

المملكة الأولى

هى جزء من شبه الجزيرة العربية لم يتغير اسمها القديم إنما الذى تغير هو نظامها من ملكى إلى جمهورى ، وكانت فى الحين الذى نعنيه ذات يسار وخصب وقوة - ونرجو أن تعود - وكانت كتاباتها منتشرة بأماكن كثيرة من المعمورة ، فى آسيا وإفريقيا ، بل وفى بعض الجزر الأوروبية . وجاءت صورتها فى القرآن على هذا النحو (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية .. جنتان عن يمين وشمال) .. (قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد) . أحسِب أنه تأكد عندك أن أعنى (اليمن السعيد) ، واليمن رغم حضارته تلك ورغم انتشار كتابته تحول العرب عن هذه الكتابة إلى أخرى، بل إن اليمن نفسه تحول إلى الكتابة الأخرى لتكون كتابة العرب جميعاً قبل الإسلام بقرون . وعُرفت حضارة اليمن منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد حتى إن أظله القرن السابع ق . م كانت هذه الحضارة بلغتْ أوجها ، وقد استطاع علماء الساميات فى منتصف القرن الماضى أن يقفوا على هذه الحضارة من خلال اجتهادهم فى ترجمة وفك رموز نقوشهم الكثيرة والتى بلغت آلافاً فى مواضع مختلفة ، وعرفوا وعرفنا من خلالهم أنه كان لليمن خمس ممالك متعاقبة (معين) (سبأ) (قتبان) (الأوسانية) (حضرموت) ، وعرفنا حكوماته وقوانينه ، وتشييدهم للسدود والهياكل والقصور ، وإلمامهم بعلوم وصناعات كثيرة علاوة على تفوقهم فى هندسة الرى والزراعة ، وكانوا أرباب تجارة واسعة تجتاز البر والبحر .

ففى البر كانت قوافلهم تخرج من ديارهم حتى الديار الشامية والمصرية حاملة ما تنتجه بلادهم وما يجلبوه من الهند وإفريقيا إلى هذه البلاد ، ومن ثم كانت الجسر بين الشرق والغرب ، وكان ذلك يحتم عليهم إقامة الحاميات القوية فى جميع ممرات قوافلهم لحمايتها ، فأقاموا مراكزَ لها فى

النقاط الهامة مثل منطقة شمالي الحجاز ودون مدينة دمشق التي كان ببعض نواحيها كهوف يسع الواحد منها أربعة آلاف من اللصوص [1] مثل منطقة (اللجاه) المعروفة (بالوعرة) . وقد وُجدت نقوشهم في هذه المناطق (الحجر) و(دادان) شمالي الحجاز ، ودون دمشق .. وقيل إن هذه الحاميات ظلت بهذه المناطق وغلب عليها الطابع الشمالي بعد أن نقلوا حضارتهم إلى إخوانهم في الشمال إبان حكم مملكتي (معين) و(سبأ) أي منذ عشرة قرون قبل الميلاد ، أو دون ذلك بقرنين . ووجدت كتابتهم بمصر وكان لهم جالية كبيرة وذات شأن رفيع بها، وكانت على صلة بالكهنة والحكومات ..

أما سبيل البحر فكان لهم أسطول كبير يجوب البحار ، وقد وجدت كتابتهم في الجزر اليونانية (جزيرة ديلوس)[2] ، وكان لهم جالية كبيرة بها تستقبل ما تحمله السفن لتنقله داخل البلاد ، كذلك وجدت نقوشهم في إفريقيا بمملكة (أكسيوم) و(زنجبار) ، وكانت لهم جاليات بإفريقيا لغرض التجارة أيضاً .. ولا بد أن يكون هذا الأسطول بلغ البلاد الهندية ما داموا كانوا على علاقة تجارية معها ، بيد أني لم أقرأ هذا فيما قرأت .. أما تداعي هذه المملكة وبوادر انهيارها فبدأت منذ حوالي عام ٢٧٠ ق.م عندما أنشأ بطليموس الثاني أسطولاً بحرياً في البحر الأحمر يحمل إلى مصر والبلاد الشامية تجارة الهند وشرق إفريقيا ؛ فاضطربت حركة التجارة اليمنية شيئاً فشيئاً حتى توقفت وهنالك أخذت أحوال اليمن تسوء ، وكان هناك عامل أقوى وأبعد أثراً من هذا وهو منازعة ملوك ريدان للسبئيين ، ثم انتزاع الملك من أيديهم في عام ٢١٥ ق.م ، وهؤلاء الريدانيون هم الحميريون أصحاب آخر مملكة لليمن القديم . وتمضي العقود لتظهر أن الرومان ما غاب عن خاطرهم مفاتيح التجارة التي بأيدي اليمنيين وأنهم يعدون العدة لتجريدهم منها ففي عام ٢٢ ق.م جهز إليوس جالوس والي مصر الروماني حملة كبيرة لغزو اليمن ، لكن هذه الحملة فشلت وما كان لهم أن يعودوا بهذا الفشل الذريع ؛ فجمعوا قواتهم وسفنهم واتجهوا إلى ميناء عدن واحتلوها وجعلوا بها قاعدة لتموين سفنهم فقضوا على التجارة اليمنية تماماً ، وازدادت أحوال اليمنيين سوءاً وأُهملت شئون البلاد العمرانية وجعل الخراب يدب في مرافقها الحيوية ، وفي القرن الرابع الميلادي يظهر لهم عدو آخر لا يفصله عنهم إلاّ مضيق في البحر الأحمر وهم الأحباش حلفاء الرومان وقتئذ الذين خرجوا إليهم في حملة عظيمة واستطاعوا أن يحتلوا البلاد ويبقوا بها عشرين عاماً ، ثم يجلون عنها ليعود اليمن مستقلاً لكنه ضعيف ، ويقال إن ذلك شجع القبائل الشمالية بالإغارة عليه أو على الأجزاء التي دونها وفرض لغتها ، ثم إن الخراب الذي حل به جعل كثيراً من

---

(١) فليب حتي في مؤلفه (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) .

(٢) الأستاذ جواد علي في مؤلفه (تاريخ العرب قبل الإسلام) .

قبائله تهاجر إلى الشمال .. وفى عام ٥٢٠م عـاد الأحباش لغزوه بإيعاز من الرومان بعدما نكل ذو نواس بأهل إقليم نجران المسيحى ، فاتجهت إليـه الحملة تحت قيادة أبرهة واحتلوه وغدا أبرهة وبنوه حكامه مدة خمسـين عاماً ثار فيها اليمنيون ثورات عديدة لكن دون جـدوى ، ثم استعانوا بالفرس عن وساطة مملكة الحيرة فأعانوهم واستطاعـوا أن يطردوا الأحباش ، لكن الفرس بقوا بالبلاد حتى مجىء الإسلام إليها فى عام ٦٢٨م ودخل بازان عامل الفرس عليه فى الإسلام .

تلكم إشـارة سريعة إلـى ما كان علـيه اليمن قـديماً ، لكنـها ما كـانت تمر بنا دون أن تسـترعى اهتمامنا بأنهـا حضارة عربية خالصـة ، وأنها لـم تك ببعيدة عن الإخوان فى الشـمال وأن الاتصال الحضارى قديم بينهم أرجعـه بعض علماء الساميات إلى ألف وخمسمـائة عام قبل الميلاد ، وذكره بعضهم دون ذلك ، وهذه الحضارة تناقلتها كل الدول العـربية التى حلت بشمالى الحجاز والحجاز نفسه من ثموديين وصفـويين ولحيانيين إلى الخزاعيين عبر العـمالقة والجراهمة ، ثم ثبت وهو أهم ما يعنينا هنا أن جميع من ذكرتهم من سكان المنطقتين استفادوا من خط إخوانهم الجنوبيين وكتبوا به فى هذه الحقب القديمة وظلوا كذلك حتى بعد قيام المملكة النبطية وحتى بعد قيام الاتحاد النبطى الذى كان شمالى الحجاز عضو فيه .

ومن ثمَّ نرى الظروف حولتـهم من حضارة إلى حـضارة وكلتا الحضـارتين عربيتان وكلتـاهما أفادتهم ، وكانت الحـضارة الثانية أعظم فائدة للعـرب جميعاً لكونها صـاحبة الخط الذى نكتب به كما ذكرت .

المملكة الثانية

بدا لنا من خـلال الحديث عن الكتـابة أنها مملكة الأنبـاط ، والحديث عن الأنبـاط لا يفوت أى متناول لموضوع الكتابة والخط العربى سواء رضـى أم لم يرضَ لا سيّما فى عصرنا هذا الذى فُكت فيه الرموز والنقوش وترجمت الكتابات القديمة ..

يقال إن أول ظهور للأنبـاط كان فى القرن السادس قبل الميـلاد وأول تاريخ ثابت عنهم هو عام ٣١٢ ق.م وكـانت مملكتـهم تقع جنوب الأردن وعـاصـمتـهـا (بتـراء) وبتـراءلفظ يونانى لكلمـة (صخرة) ، إذ كانت هذه العاصـمة محفورة فى قلب صخر رملى يظهـر جميع ألوان (قوس قُزح) فكانت تشكل مزيجاً فريداً من الفن والطبيعة ، وكان يطلق عليها المدينة الوردية ، والمدينة الحمراء ، والحمراء الـوردية . كلها كانت تطلق على العـاصمة الجميـلة . وكانت هذه المملكة عربية اللـهجة

لكون ملوكها وسكانها عرباً شماليين ، وكانت وثنية الدين كأغلب سكان الأرض حينئذ ، أما كتابتها فكانت آرامية إلى حين ، وكانت يونانية رومانية الهندسة والفن والثقافة عموماً ، وتنتشر فى شوارعها الواسعة الأعمدة الرخامية وفى أحيائها المسارح والملاعب .. وكان عام ١٦٩ ق.م فاتحة سلسلة لملوكها الذين عرفت أخبارهم وذاعت سيرتهم وهى الحقبة التى عنوا فيها أن يكون لهم خطهم وأن يستقلوا عن الخط الآرامى ، وجدُّوا فى الأمر حتى استطاعوا بعد حقب أن يحققوا الحلم ويولد الخط النبطى العربى من الرحم الآرامى ، وفى هذه الحقبة العظيمة ؛ نشأ (الاتحاد النبطى) الذى ضم جنوب فلسطين وجنوب شرق سوريا وشمالى الحجاز مع المملكة النبطية . وفى هذه الحقبة أيضاً أخذت تظهر صورة الملك والملكة على النقود النبطية ، كذلك أخذت تظهر التماثيل النصفية لهما ، وذلك منذ عهد الملك عبيدة الثالث الذى دام حكمه تسعة عشر عاماً سنة ٢٨ ق.م حتى سنة ٩ ق.م وظلت صور الملوك وزوجاتهم على النقود وظل تخليدهم بالنحت إلى نهاية المملكة .

وفى عهد الملك الحارث الرابع الذى دام حكمه تسعة وأربعين عاماً من سنة ٩ ق.م : حتى سنة ٤٠ م ؛ بلغت المملكة أوج عزها وقوتها ، وتابع الحارث نشر الحضارة الرومانية اليونانية فى المملكة فزادت حاضرتها فناً وجمالاً مع فن وجمال الطبيعة ، إلا أن الكتابة الآرامية هى التى كانت لا تزال تظهر على المسارح والقصور والدور ، والملاعب والشوارع وعلى النصب التذكارى وعلى النقود وفى دواوينهم . وهذا أمر طبيعى فإن الانتقال من لغة إلى أخرى ومن كتابة إلى أخرى يحتاج لزمن متسع لدى الدول .

ويبدو أن عهد الحارث هذا شهد أحداثاً هامة وكبيرة ، منها بوادر التبشير بالمسيحية ، إذ ذُكر أن الوالى الذى حاول القبض على (بولس الرسول) بدمشق كان أحد ولاته ، ثم كان هناك حدث كبير فى تاريخ البشرية أو فى تاريخ المسيحية وشاءت الظروف أن يحتك به الحارث ، وهذا الحادث هو مقتل (يوحنا المعمدان) فقد كان هيردوس الحاكم اليهودى ابن هيردوس الكبير زوجاً لابنة الحارث ثم طلقها وتزوج سالومى [1] الراقصة التى تسببت فى مقتل (يوحنا) ، وهنالك شن الحارث حرباً مظفرة على هيردوس ، لكنها كانت باسم كرامته وكرامة ابنته ، وهكذا شاءت الأقدار أن يلقى هيردوس عقابه على يد هذا الملك العربى .

وقد أكد القدماء مثل (يوسيفوس) و(ديودورس) وغيرهما أن المملكة النبطية عربية حكومة

---

(١) فليب حتى – مصدر سابق .

وشعباً وهم يتحدثون العربية الشمالية ، وجاء علماء الساميات ليجعلوا هذا يقيناً لا شك فيه من خلال قراءاتهم لكتابات الأنباط وقد لمسوا فى هذه الكتابات مراحل تطور الخط النبطى من الكتابة الآرامية المحرفة إلى محاولات الاستقلال عنها إلى الانفصال بالخط النبطى ومراحل تطوره ..

وفى عام ١٠٦م يقضى الرومان على الاتحاد النبطى وعلى (بتراء) ويضم هذه الأجزاء إلى ولاياتهم وتنتهى هذه المملكة العربية، لكن لم ينته أثرها ولن ينتهى ما دامت الكتابة العربية موجودة.

رأينا التاريخ الثابت لمملكة النبط هو بداية العقد الثانى من القرن الثالث قبل الميلاد وهو تاريخ جاء بعد الاضطراب الذى أخذ يلحق باليمن العظيم كما بدا لنا ، وتمضى العقود فنرى اليمن يصاب بمزيد من النكبات تضطره لأن يهمل شئونه الاقتصادية وغيرها ، وكان عامل التجارة الداخلية والخارجية عاملاً أساسياً ومهماً فى اقتصاده ، وعلى الجانب الآخر كانت مملكة النبط تقوى وتزدهر حتى بدت تنهض لهذا الأمر وغيره وتلقفت من الإخوان هذا العامل المهم وهو نقل التجارة من الديار اليمنية إلى الديار الشامية والمصرية ، فزادهم هذا قوة على قوتهم وازدهاراً على ازدهارهم وظل بأيدهم الأمر حتى قوضتْ المملكة .

ورأيناهم لم يهتموا بالعامل الاقتصادي وحسب ؛ إنما اهتموا أيضاً بالتعليم والتثقيف إلا أن العمل بهما كان يونانياً .

ونحسبهم عقدوا النية على أن يكون عربياً ؛ ففكروا وتدبروا فرأوا أنهم لا يستطعون تحقيقه إلاّ إذا كان لهم خط مستقل بهم يكتبون به لغتهم ومن ثَمّ تعليمهم وكل أمورهم ، وأعطوا للأمر عظيم اهتمام ؛ حتى استطاعوا أن يشتقوا هذا الخط من الأصل الآرامى كما مرّ بنا ، ثم كانت بداية الانفصال عنه فى حوالى منتصف القرن السابق للميلاد .

وتبدو لنا فترة ما بين انفصال الخط وسقوط المملكة حوالى مائة وخمسين سنة نحسبها فترةً كافيةً لأن يُطور هذا الخط ويُنمى ، ثم تبدو لنا أنها فترة كافية لأن ينتشر أو يُعرف بين أعضاء الاتحاد ، أو على الأقل بين الإخوان فى شمالى الحجاز . ومن هنا يكون سكان هذه المنطقة عرفوا هذا الخط فى أوائل القرن الميلادى ، أى بعد خمسين سنة من انفصاله عن الآرامى . بل إن اليقين أثبت أن اليمنيين عرفوه فى هذه الحقبة من خلال النقوش التى عثر عليها البحث العلمى الحديث فى ديارهم ، ونحسبها من أثر القوافل التجارية .

وإذا كان اليمنيون عرفوه فى هذه الحقبة فأولى أن يعرفه من هم دونهم ومن هم عايشوهم وكانوا أعضاء فى اتحادهم وهم شماليون مثلهم كالثموديين واللحيانيين ، والمعروف أن الثموديين

نزلوا الطائف ، واللحيانيين نزلوا دون قبيلة هذيل ، ثم اندمجوا معهم دون أن يفقدوا هويتهم ، وظلوا يعرفون ببنى لحيان حتى مجىء الإسلام ، وكلاهما كان قريب المنزل والمنزلة من مكة ، ثم لما تقوضت هذه الدولة الواسعة وزال سلطان بتراء تفرق الأنباط أنفسهم بين إخوانهم بالجزيرة العربية، وقد تكون فُرقتهم سابقة لجوء إخوانهم من الثموديين واللحيانيين داخل منطقة الحجاز ، فإنه لم يُحدد على وجه الدقة الزمان الذى فروا فيه عن وطنهما (الحجر)[1] و(دادان) . بل إن من الكتاب المعاصرين من رجحوا [2] أن يكون أصل القرشيين يرجع إلى النبط ، كذلك لجأ الأنباط إلى العراق ونزلوا فى جهات البطائح من أسفل الفرات ، ومنهم من ظلوا بالأردن وطنهم .

ومن هنا نرى عاملاً لا يُنكر فى انتشار هذا الخط فى الجهات العربية ودون الفرات ، وبقائه كذلك بمنطقة الشام ، لكن نحسب أن الخط المسند الجنوبى هو الذى كان لا يزال سائداً فى المنطقة العربية حتى نهاية القرن الثانى الميلادى وقد وجدت منه نقوش للثموديين بالطائف ، ونحن نعلم أن الثموديين واللحيانيين والصفويين سكان شمالى الحجاز ، والعرب جميعاً كانوا يستعملون الخط الجنوبى [3] منذ قرون بعيدة قبل الميلاد على نحو ما ذكرت ، إنما يبدو أيضاً أنهم جميعاً عقدوا النية على أن يتخذوا الخط النبطى بديلاً عنه منذ شاع فيهم لما رأوه أسهل وألين من المسند الصعب ، وما وجدوا فى هذا غضاضة إذ إنه قادم عن إخوة لهم كما كان المسند صادر عن إخوة لهم . أما سبب بقاء المسند حتى هذا الحين فهو من دواعى مراحل الانتقال كما كان الشأن عند الأنباط حين أرادوا أن يتحولوا عن الآرامى إلى النبطى وما يجعل هذا يقيناً تلك النقوش الأربعة التى عثر عليها علماء الساميات والتى تبدى مراحل التطور ، فإن أقدمها وهو نقش قرية (أم الجمال، والمؤرخ بعام ٢٧٠م قيل إنه نبطى لكنه يمتاز بترابط الحروف . وأول شكل فى بناء خطنا هو ترابط الحروف .. أما النقش الثانى الذى جاء بعده بثمان وخمسين سنة ٣٢٨م وهو نقش (النمارة) بدا أنه عربى به شىء من الأثر النبطى .. أما النقش الثالث والرابع والمؤرخ أولهما بعام ٥١٢م وثانيهما ٥٦٨م فهما لا يختلفان شيئاً عن الخط الذى كتب به القرآن الكريم وكتب به رسائل النبى (ص) إلى الملوك والأمراء وغيرهم ●

---

(١) (الحجر) مدائن صالح، وكان وطن الثموديين و(دادان) كانت وطن اللحيانيين وكلا المنطقتين موقعهما شمالى الحجاز.

(٢) سأذكر هذا فى موضع لاحق .

(٣) الخط الجنوبى هو اليمنى القديم ، وأطلقت عليه ثلاثة مسميات (المعينى) نسبة رلى الدولة المعينية . و(السبئى) نسبة إلى الدولة السبئية ، وأخيراً أطلق عليه (المسند) لأن هذا الخط عموماً منفصل الحروف وكانت حروفه تأخذ شكل الإسناد أى كان يسند بعضها إلى بعض .

- ٢ -

وقفة على هذه النقوش

كما ذكرت أنه بدا لعلماء الساميات والمعنيين بالأمر من الإفرنج والعرب أن نقش قرية (أم الجمال) غربى حوّران وهو على شاهد لقبر فهر بن سُلّى مربى جذيمة ملك تنوخ أن خطه نبطى غير أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف .

أما النقش الثانى وهو على شاهد لقبر أيضاً لكنه لملك من ملوك (الحيرة) هو امرؤ القيس بن عمرو فبدا فى طور الاكتمال أو دون ذلك فى هذا الحين ٣٢٨م ودونك نصه حسبما وُجد بسطوره الخمسة :

(تى نفسُ مُر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجا بزجى فى حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه العشوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه عكدى هلك [١] سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول ليسعد ذو ولده)

وكما يبدو لنا أن النص بدأ باسم الإشارة للمؤنث (تى) وهو أحد ألفاظ عشرة للإشارة للمؤنث، وجاء بـ(تى) لأنه يشير إلى مؤنث وهى النفس أو المقبرة ، تى نفسُ مر القيس ، أو تى مقبرةُ نفس مر القيس ، (مُر) مخففة من (امرئ) والتخفيف والتسهيل معروف ، تقول فى قرأت ، قريت وفى ذئب ، ذيب وفى بئر ، بير . وهكذا (بر) هى الكلمة الوحيدة فى هذا النص غير العربية وهى آرامية تعنى (ابن) (ذو) تعنى الذى وهى معروفة أيضاً وكانت فى (طيّء) وتجدها كثيراً فى أشعارهم واستشهد بها النحويون ، من هذه الشواهد قول سنان بن الفحل :

فإن الماءَ ماءُ أبى وجدى   وبئرى ذو حفرت وذو طويت

أى وبئرى التى حفرتها والتى طويتها ، وجاء فى قسمهم : لا وذو فى السماء عرشه . أى لا

(١) يوافق (كانون الأول) (ديسمبر) ٣٢٨م ، وهذه النقوش تجد صورها فى كتاب (النصرانية وآدابها) للأب لويس شيخو ، وفى (تاريخ العرب قبل الإسلام) لجواد على ، وفى مجلات علمية قديمة كان بعضها من إعداد العلماء الإفرنج وبعضها مشترك وأحسب أن الأب لويس نقل عنها وشارك فيها .

والذى فى السماء عرشه [1] ، (أسر التج) أسر تعنى هنا عقد وعصب وهما يؤديان معناها ، و(التج) هى التاج حذف منها الألف ، وذلك أثر من الآثار النبطية فلم يكونوا يثبتونها فى هذا الحين ، وفى السطر الثانى يعنى بالأسدين قبيلتىْ أسد ، ونراه أضاف إلى نزار ومذحج واواً وذلك أيضاً أثر نبطى فكانوا يضيفون إلى الأعلام واوا . و(عكدى)[2] قيل إنها (عكديا) حذفت منها الألف وهذا شأنهم مع الألف ، و(العكد) تعنى القوة . و(جا) فعل ماضى (جاء) ، وفى السطر الثالث يقول ك (بزجى) ومعناها بدفع أو باندفاع القوة ، فى (حبج لجران) حبج تعنى أشرف وورودها هنا بمعنى (مشارف) .

و(شمر) اسم لملك من ملوك اليمن و(معدو) هى معد . وفى السطر الرابع أضاف النون إلى (وكلهن) وقيل إنها نون توكيد ، وفى السطر الخامس والأخير يقول : فلم يبلغ ملك مبلغه كعدى. أى لم يبلغ ملك مبلغه قوة ، ثم ينهى كتابته بالتنويه إلى تاريخ وفاة الملك (هلك سنة ٢٢٣ من كسلول ليسعد الذى ولده . أى ليسعد أولاده .

وهذا نص عربى كله ما خلا كلمة واحدة هى (بر) الآرامية والتى تعنى ابن ، ثم بدا لنا أن فيه شيئاً من تضارب عند استعمالهم (لال) المعرفة وتركها ، ففى قوله : (ملك العرب كله وأسر التج وملك الأسدين) استعملها ، كذلك استعملها فى قوله (ونزل بنيه الشعوب) وفى قوله (وكلهن فرسو لروم) حذفها من الفرس ، وأضاف إليها الواو التى تضاف عندهم للأعلام ، ثم رأينا الكلمة التى بعدها وهى (الروم) أُضيف لأولها (لام) بدون ألف وهى خالية من الواو التى يضيفونها للأعلام . تُرى أتكون هذه اللام جارة وعليه لم يضف الواو ؟ الحقيقة أننا لا نستطيع أن نحكم بذلك وينبغى علينا ألا ننسى أنه نقش ومرّ على كتابته قرون عديدة تدنو من ستة عشر قرنا حين اكتشف ، فقد تكون طُمستْ منه بعض حروف أو غير ذلك من عوامل الدهر ، بيد أن هذا لا يغير من أهميته الكبرى على ما بدا لك وأنه قريب من الطور النهائى للكتابة العربية ، وخصائصه عربية، ونحسب أن عقوداً تمر عليها تكون كفيلة لتصل فيها إلى الشكل المراد فما بالك بثلاثة قرون هى الفترة ما بين تاريخ كتابة هذا النقش وبين كتابة القرآن ومكاتيب الرسول (ص) إلى الملوك والأمراء وغيرهم .

وتلكم وقفة أخرى بعد إيضاحه :

---

(١) ترد (ذو) هنالك للمفرد المذكر والمفرد المؤنث ، سواء أكان من العقل أم لم يكن ، ومتى اشتركت بين أمرين مختلفين دلّ هذا الاشتراك على أنها تأتى بلفظ واحد لكل ما يطلق عليه الاسم الموصول .

(٢) الأستاذ شوقى ضيف "فى العصر الجاهلى" .

تى نفس أمرئ القيس بن عمرو ملك العرب كله الذى أسر التاج ، وملك الأسدين ونزار وملوكهم وهرّب مذحج بالقوة وجا بدفع القوة إلى مشارف لجران مدينة شمر وملك معد ونزّل بنيه[1] الشعوب ووكلهم الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه قوة ، هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول ليسعد أولاده ..

ثم يأتى بعده نقش (زبد) ، وزبد أطلال بين قِنَّسرين والفرات ، وهو النقش الثالث وعليه ثلاث كتابات (يونانية) ، (سريانية) ، و(عربية) وخطه قريب الشبه جداً من الخط الذى كُتب به القرآن ومكاتيب النبى (ص) ، غير أنه قصير ولم يستطع العلماء قراءة أول كلمة من سطريه ، ونفس الأمر وُجد فى كلمتين فى آخر السطر الثانى فبدا هذا النقش غير مفيدة جملة مفيدة فائدة كبيرة من حيث خطه وشكله الكتابى ، ووجد بعد الكلمة المستعجمة أو المطموسة فى أوله (لفظ الجلالة) ثم جاء بعده أسماء أشخاص قيل إنهم بُناة كنيسة أو بناة مشهد للقديس (سرجيوس) .. وهذه صورته :

(الإله سرجو بن منفو وبن امرئ القيس وشرح بن سعد وستر وشريح) .

طبعاً لم نفهم شيئاً عنه بسبب ما استعجم أو طمس فى أوله وفى آخر كلمتين ، غير أننا ندرك أن هؤلاء الأشخاص اشتركوا فى أمر أو عمل واحد دلّتنا عليه واوات العطف بعد كلمة سرجو ، فهل نقدر الكلمة المستعجمة فى أول النقش فعلاً ماضياً (بارك) ، والكلمتين اللتين فى آخره (بُناة الكنيسة) أو (المشهد) وعليه يجىء على هذا النحو : (بارك الإله سرجو بن منفو وبن امرئ القيس وشرح بن سعد وشريح بُناة الكنيسة) أو بناة المشهد .

ونلاحظ أيضاً فى هذا النقش ترك الأثر النبطى واستعماله إلا أننا لا نجد به الأثر الآرامى .

أما النقش الرابع والأخير وهو نقش (حرّان اللّجا) بشرق الأردن فإن خطه لا يختلف عن هذا الخط ومن الحسن أنه لم يطمس أو يستعجم منه كلمة فجاءت جملته مفيدة رغم قصره . وهذا نصه : أنا شرحبيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول سنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم هو مشهد ، قيل[2] مشهد (يوحنا المعمدان) والنقش يخبرنا بأمرين : أولهما بناء شرحبيل للمرطول ، وثانيهما خراب لحق بمدينة خيبر على يد أحد أمراء الغساسنة . لكنه بدا لم يتخلص من الأثر الآرامى والنبطى ، إذ رأيناه لا يزال يستعمل كلمة (بر) ، وإضافة الواو إلى الأعلام وحذف الألف ، وإن كنا رأيناه فى

(١) المراد (نزولهم ملوكاً على هذه الشعوب) .

(٢) الأب لويس شيخو اليسوعى فى (النصرانية وآدابها) ، وهو يعتبر أول المصادر العربية فى ذلك .

النقش السابق عليه بست وخمسين عاماً شبه متخلص منهما وأهمه أن (بر) أُبدلت (ابن) وليس هذا قياساً فربما كانوا تخلصوا من كثير من الأثر الآرامى والنبطى فى زمن سابق لنقش (زبد) بكثير وربما كانوا ظلوا يكتبون بهما حتى بعد (حرّان اللّجا) ، بل الواقع يقول إننا لم نتخلص من الآثار النبطية والآرامية وغيرهما حتى يومنا هذا وهى فى صميم لغتنا .

وبعدُ فإن هذين النقشين كما ذكرت لا يختلفان شيئاً عن الكتابة التى كُتب بها فى عهد النبى (ص) والخلفاء الراشدين (ر) ، وبدا للمعنيين بالأمر حقيقة . وكانت جامعة القاهرة [1] قد أقامت معرضاً للمجموعة النادرة لرسائل النبى (ص) لملوك فارس والروم والحبشة وعظيم القبط وللمنذر بن ساوى وبعضاً مما كتب فى عهد الخلفاء الراشدين (ر) ، وبمضاهاة هذه المكاتيب [2] وُجدت لا تختلف شيئاً عن كتابتىْ (زبد) و(حرّان) وهذه المكاتيب يرجع تاريخ بعضها للسنة السادسة من الهجرة ●

(١) أقيم هذا المعرض فى أبريل من عام ١٩٩٧م .

(٢) ارجع إلى مركز بحوث ودراسات التراث الإسلامى بالقاهرة إن كنت معنياً بالأمر .

- ٣ -

الحيرة وغسان وأثرهما التعليمى

ذكرت أنى متحدث عن أثر هاتين المملكتين فى العرب ، وقد رأينا كيف أن إخواننا الأنباط هم أساس هذا الأمر العظيم ، وهو اشتقاقهم لخط نبطى عربى من الأصل الآرامى ، وبعد ذلك عرفه إخوانهم فى شمالى الحجاز والجزيرة العربية وغيرها أسهل وأحسن من الخط المسند الذى كانوا يكتبون به منذ عهود قديمة فارتضوه واتخذوه بديلاً عنه ، وما وجدوا فى هذا غضاضة ولا تثريب ؛ إذ إنه قادم عن إخوة لهم أيضاً بل وأقرب منهم نسباً . إذن فالمملكتان جاءتا وهذا الخط قائم يعنى به أصحابه الأنباط متفرقين فى إخوانهم وفى غيرهم ، كذلك يعنون به وهم تحت الولاية الرومانية، ويعنون به تجّاراً مقيمين أو متنقلين .. وهكذا شاءوا له الخلود ، ولو لم يكن الأمر على هذا النحو لذهب هذا الخط مع ذهاب سلطانهم (ببتراء) .

وكانت الظروف أخذت تتغير فى منطقة الشام ودخل غالب سكانها فى دين المسيح ما خلا الإسرائيليين ، وكان ضمن سكانها الأنباط الذين لم يغادروها ، وذُكر فى عهد متأخر عن هذا أن من الأنباط من انخرطوا فى السبيل الدينى وغدا فيهم رهبان وأساقفة ، وغدا واجبا على هؤلاء تعليم إخوانهم من بنى جنسهم على الأقل ومن ثم ظهر مزيد لحاجتهم للكتابة والتدوين ومزيد من تطور هذا الخط .

ثم إننا رأينا فى سيرة الغساسنة أنهم جاءوا هذه المنطقة وتسيطر عليها قبيلة قضاعة وعلمناها مسيحية ، فأنّى صارت مسيحية وهى قافلة عن اليمن ولمّا يدين أهله بعد بالمسيحية ؟ أنّى صارت إذا لم يكن سعى إخوانهم الأنباط إليهم به ؟ وغدا هذا داعياً لمزيد من الاهتمام بهذا الخط ومزيد للتطور والانتشار ، هكذا جاء الغساسنة والحال بالمنطقة قائم ، ثم ينبغى ألا ننسى قبل هذا وذاك أنه كان منتشراً بهذه المنطقة المدارس السريانية والرومانية وكانت الأخيرة نظامية ولا تختلف كثيراً عن مدارسنا اليوم ، فالسنة الدراسية كانت فى أكثر من فصلين من فصول السنة ، ما عدا الصيف وجانباً من الربيع ، واليوم الدراسى يبدأ فى الصباح الباكر إلى ما بعد الظهر ، وقد تكون هذه المدارس ألحقت فصولاً دراسية لإخوانهم فى الدين وجيرانهم العرب الذين هم ضمن

رعاياهم ، بيد أنى لم أقرأ هذا صراحة وهو احتمال قائم ، إنما الأمر غير المستبعد أن تكون هذه الفصول أُلحقت بالأديرة والكنائس وهو دأبها حينئذ ، وكان التعليم بالمدارس الرومانية نوعين (تعليم عالٍ) والتعليم الآخذ السبيل إليه ، وعُرِفَت مدينة بيروت فى ذلك الحين بأنها كانت تضم مدرستين عالِيتين (الحقوق) و(الهندسة) وعُرفت مدن سورية بهذا أيضاً ، وكان التعليم العالى فى أيدى البلغاء يُنتخبون كأستاذة من قبل مجلس الشيوخ المحلى فى المدن الكبرى ، ومن قبل الجماعات عموماً فى المدن الصغرى ، وكان للمعلمين نقابات متفاوتة حسب منزلتهم لكل نقابة رئيس .

وعلى هذا الشأن العظيم نزل اليمنيون الشام ، وعُرفوا فيما بعد بالغساسنة ، وبعد أحداث وخطوب وبعد حقب من الدهر نراهم ظهروا وبلغوا فى الدين والدنيا ما بلغوا . ثم بدا لنا أنه كان بينهم من يقرأ باليونانية ولولا الصدفة فى تاريخهم الغامض ما كنا عرفنا ذلك ، وعرفناه من خلال (المنذر بن الحارث) ملكهم ، وهذه الحادثة سببها أن الامبراطور (يطينوس) لما ضاق بهذا الملك بعد أمور كبيرة بينهما أمر كاتبه أن يكتب رسالتين واحدة لقائده (مرقيانوس) الذى كان مرابطاً بمدينة نصيبين يأمره فيها بقتل المنذر ، وأخرى للمنذر نفسه لم يُذكر مضمونها ، لكن يبدو أنها كانت تطيب خاطره حتى يظفر به مرقيانوس ، ويقال إن الكاتب أخطأ فأرسل رسالة مرقيانوس إلى المنذر وأرسل رسالة المنذر إلى مرقيانوس ، فلما قرأها المنذر غضب غضباً شديداً وتحالف مع قابوس ملك الحيرة وجعلا يغيران على مدن الشام الرومية ، ولما صار (طيباروس) امبراطوراً ذهب إليه المنذر وأطلعه على الرسالة ، ثم عادت العلاقة بينهما حسنة .

وعرفنا ذلك أيضاً من خلال طرف حكاه بعض الشعراء الذين كانوا يفدونه عليهم مادحين لنوال عطاياهم وهداياهم القيمة منهم حسان بن ثابت الذى يقول عن زيارته لآخر ملوكهم جبلة بن الأيهم :

لقد رأيت عشر قيانٍ فى مجلسه خمس يغنين بالرومية بالبرابط [1] وخمس يغنين بالعربية .

وهب أن التعليم الأجنبى ما كان يستطيع الرقى إليه إلا الطبقة الحاكمة والأغنياء - ومبلغ علمى أن مدارس الأديرة والكنائس تكون مفتوحة للجميع - فهل يليق أن يتطلع هؤلاء إلى التعليم الأجنبى وهم جاهلون القراءة والكتابة بلغتهم ؟ ما تلك سمة العربى الغيور على قوميته ولغته ، وهل لولا غيرة العربى وشدة حبه للغته كان كُتب لها النجاح والدوام منذ اشتقوا خطهم

(١) (برابط) جمع بربط ، والبربط هو العود واللفظ فارسى .

من الأصل الآرامى ؟ على هذا النحو جاء اليمنيون هذه المنطقة وهذا الخط قائم يكتب به إخوانهم الذين سبقوهم إليها ، فلما بسطوا نفوذهم عليها ثم عرفوا بالغساسنة احتضنوا هذا الأمر وعملوا على مزيد من انتشاره وأقاموا مدارس على غرار ما يرون من مدارس أجنبية دونهم ، واستعانوا بالبيزنطيين ليساعدوهم فى هذا ، وقد رأينا أن البيزنطيين ما كانوا يضنون عليهم بشىء ، وإذا كانوا أقاموا لهم كنيسة مذهبها مخالف للكنيسة الامبراطورية ألا يقيمون لهم مدارس عربية ؟ .

وقد رُوى عن ملوك الغساسنة أنهم اعتبروا أنفسهم خلفاء لملوك الأنباط ، وأنه لم يبق من ميراث الأنباط شىء مادى إلاّ هذه الكتابة – وحسبه من ميراث غال – ألا يجدر بهم أن يراعوه ويعملوا على انتشاره ؟ .

بقيت أمور تدلنا على أن المدارس العربية كانت قائمة عندهم سواء ملحقة بالأديرة والكنائس أو مستقلة .. من هذه الأمور المنافسة التى كانت بينهم وبين الحيريين ، وقد [1] بدا لنا جالياً أن المدارس والكتاتيب كانت منتشرة بالحيرة ، أفلا يكون هذا داعيا لمحاكاتهم من باب المنافسة أو الاقتداء ، وقد تكون غسان هى أصل هذا ، لكن لأن اليونانيين هم الذين كانوا يؤرخون لهم ثم انقطعوا فجأة عن هذا ؛ أغمض على كُتّاب السِّيَر والأخبار العرب أمرهم كثيرا .

ومن تلك الأمور ما حكى عن رجل كان يعيش فى بادية الشام ، ثم انتقل إلى مكة ، ولولا أحداث جرت بينه وبين سكانها الخزاعيين ما علمناه يكتب فى هذا الحين من الدهر ، وهذا الرجل هو (قصى بن كلاب) الجد الخامس للنبى (ص) سنة ٤٠٠ م الذى حين أراد إخراج خزاعة من مكة كتب إلى أخيه من أمه (رُزاح بن ربيعة) يدعوه لنصرته ، فأقبل رزاح ومعه ثلاثة إخوة من أبيه وبمن أجابه من قضاعة .. وإذا كان سكان بوادى الشام عرفوا القراءة والكتابة فكيف يكون الحال عند سكان حواضره ؟

أحسب أنه سيخطر ببالنا أن قصياً خرج من مكة طفلاً ورجع إليها يافعاً ، وقد يكون لقى تعليمه بها ، فهذا وارد واحتماله كبير ؛ لكنه لا يغير من الأمر شيئاً فقصىّ كتب وأرسل بكتابه إلى من سيقرؤه والمرسل إليه بقضاعة أو بعذرة والموطن واحد هو بادية الشام .. وهذا يعزز ما نوهت به بأن قبيلة قضاعة نزلت دون الأنباط واستفادت من تعليمهم ، ثم جاء مواطنوهم الذين عُرفوا فيما بعد بالغساسنة ووجدوه ووجدوا غيره بمدن الشام فعملوا على رعايته وانتشاره ما داموا اعتبروا أنفسهم خلفاء لملوك الأنباط .

---

(١) ستقف عليه توآ .

ثم يبقى أمر دامغ ، وهو أن جميع هذه النقوش التى عُثر عليها ومرّت بك توّا كانت بمنطقة الشام ودون موطن الأنباط ، ألا يكون هذا دليلاً على أن هذه الكتابة كان لها الرعاية والعناية من جميع من حلوا بالشام من العرب ، وكيف يكون لها هذه الرعاية إلا فى دورها ، ودورها المدارس؟ وما كانت المدارس بغريبة على المنطقة على نحو ما قدمت .

غير أنى لى على النقش الثانى حديث من جهة العراق ، ولا يغير من الأمر شيئاً ههنا ، بل هو يبدى اهتمام العرب جميعاً بهذه الكتابة ، وأرجو أن أكون كشفت عن دواعى التعليم وثبوته بين عرب الشام ، والمقصود التعليم العربى بالخط العربى .

الحيرة

مملكة الحيرة أمرها مختلف عن أمر مملكة غسان إذ نقل كتاب السير والأخبار أمرها واضحاً جالياً.. ففى كتاب الأغانى يذكر أبو الفرج : أن حماداً أول من كتب من آل أيوب فخرج من أكتب الناس ، وطُلب حتى صار كاتب الملك النعمان الأكبر ، فلبث كاتباً له حتى ولد له ابن من امرأة من طيّئ فسماه زيداً باسم أبيه ، وكان لحماد صديق من الدهاقين[1] يقال له (فرّوخ ماهان) وكان محسناً إلى حماد فلما حضرت حماد الوفاة أوصى بابنه إلى الدهقان ، فأخذ الدهقان زيداً فكان عنده مع ولده ، وكان زيد حذق الكتابة العربية قبل أن يأخذه الدهقان ثم علمه الفارسية مع ابنه فحذقها وكان لبيباً فأشار الدهقان على كسرى أن يجعله على البريد فى حوائجه ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلاّ بأولاد المرَازبة ، فمكث يتولى ذلك لكسرى زماناً ، ثم إن النعمان النصرى هلك فاختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه فأشار عليه مرزبان بزيد بن حماد ، فكان على الحيرة إلى أن ملّك كسرى المنذر بن ماء السماء . ونكح زيد نعمة بنت ثعلبة العدوية ، فولدت له عدياً ووُلد للمرزبان ابن فسماه شاهان مَرْد ، فلما تحرك عدى وأيفع طرحه أبوه إلى الكُتّاب حتى إذا حذق العربية أرسله مع ابن المرزبان إلى كُتّاب الفارسية فكان يختلف مع ابن المرزبان ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى خرج من أفهم الناس وأفصحهم بالعربية والفارسية ، ثم توسط له المرزبان فرّوخ عند كسرى ، فكان عنده مُعظماً ويكتب له بالعربية والفارسية ، وكان إذا أهلّ على مجلس خفّ له الحاضرون احتراماً ، وعلا شأنه على شأن أبيه ...

---

(١) جمع (دهقان) وهو لفظ فارسى، قيل معناه وجيه فى القوم، وقيل معناه كبير تجار . وقد وجدت كلتا الترجمتين .

رأيت أن أبا الفرج يذكر حماداً أول من كتب من آل أيوب وكان كاتباً للنعمان الأكبر ، والنعمان هذا اعتلى عرش الحيرة ما بين نهاية القرن الرابع والعقدين الأولين من القرن الخامس الميلادى ، ولا نحسب أن حماداً أول من كتب بالحيرة ؟ .

كذلك يذكر أبو الفرج : أن أبا المرقّش عهده وأخاه حَرْملة إلى معلم نصرانى من معلمى الحيرة فعلمهما الكتابة .

وقصة المرقش وكتابته على رحل زوج مولاته معروفة لدى دارسى الأدب العربى ، مذكورة فى بعض كتب الأدب .. وهذه الرواية تذكر : أن المرقّش لما خرج طالباً ابنة عمه ومحبوبته فى أرض مراد بعد أن زُوجتْ هناك بدون علمه ، صحب معه مولاة له وزوجها وكان راعياً يرعى له وهو الذى يسمّيه مرقش الغُفَلى ، وفى أثناء رحلتهم ودون أرض مراد أُعتُلّ مرقش ، فجفاه وحدبت عليه المرأة ، ثم اضطرت لأن تطيع زوجها فى التخلى عنه وأزمعا أن يتركاه ، وأحس مرقش هذا فانتظر غفلةً منهما وكتب على رحل الرجل :

يا صاحبىَّ تلوَّما لا تعجلا	إن الرحيل رهينٌ أن لا تعذلا
فلعل بُطْأكما يُفرّطُ سيئاً	أو يسبق الإسراع سيْباً مُقْبِلا
يا راكباً إما عَرَضْتَ فلبغَنْ	أنس بن سعد إن لقيتَ أو حَرْملا
لله دُرُّكما ودرُّ أبيكما	إن أفلتَ الغُفَلى حتى يُقتلا
مَنْ مبلغ الأقوام أن مرقشا	أمسى على الأصحاب عبئاً مثقلا
ذهب السباع بأنفه فتركنه	أغنى عليه بالجبال جيئلا
وكأنما ترد السباع بلشوه	إذْ غاب جمع بنى طُبيعة منهلا

فلما عاد الغُفَلى وامرأته أذاعا أن مرقّشاً مات ، ثم إن حَرْملة نظر إلى رحل الرجل فقرأ الأبيات فدعاهما وأمرهما أن يصدقاه ، ففعلا [1]

ومن هنا نرى أن مملكة الحيرة كانت مقصداً علمياً فى هذا الحين يفد إليها أهل الجزيرة العربية فيمكثون بها الوقت الذى ينالون فيه تعليمهم ، ثم يعودون إلى بلادهم متعلمين ، ولولا أن مرقشاً شاعر ذائع الصيت ما كنا علمنا أن أباه أرسله وأخاه ليتلقيا تعليمهما بالحيرة ، وقد يكون هناك

(١) القصة تجدها بجزء (٥) من الأغانى لأبى فرج الأصفهانى ، وفى المفضليات عند ذكر المرقش .

ألوف غيرهما وغير المشاهير الذين حفظ لنا التاريخ سيرتهم وجاء ذكر الحيرة فى ثناياها ، نعم قد يكون هناك ألوف أرسلهم آباؤهم وعائلاتهم إلى هذه المملكة ونالوا تعليمهم بها ، لكن لكونهم أناساً عاديين لم يذكرهم التاريخ كذكره مرقشاً وأخاه حرملة من خلال سيرته ، وكذكره النضر بن الحرث الثقفى القريشى الذى قدم الحيرة ودرس بها علم العرب والفرس فى التاريخ والأدب ، وكان إذا جلس النبى (ص) مجلساً ودعا فيه إلى الله وتلا القرآن وحذر قريش ما أصاب الأمم الخالية خلفه فى مجلسه وحدثهم عن كتب رستم وإسفنديار والسابقين يقول[1] : والله ما محمد بأحسن منى حديثاً وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتُها .

وكذكره المعلم (بشر بن عبد الملك) أخو (أكيدر) ملك دومة الجندل الذى نال تعليمه بالحيرة ، ورجع إلى بلده يعلم الناس ، وقيل كان يخرج يعلم فى غير مملكتهم .

وكذكره المعلم (جفينة) النصرانى ظئر (سعد بن أبى وقاص) (ر) ، كذلك نقل لنا التاريخ أسماء غير هؤلاء لكونهم شعراء أو كانوا دون أحداث عظيمة مثلما مرّ بك من سيرة النضر ، وجفينة الذى قتله عبيد الله بن عمر بن الخطاب (ر) مع من قتلهم عقب مقتل أبيه .. أو من ذكرهم من باب إجلال مهنة المعلم ، فمثلوا بشخصية بشر بن عبد الملك لكونه أخاً للملك .

فهل كان المعلمون والمتعلمون كلهم كهؤلاء ؟ .

وما كانت المدارس والكتاتيب منتشرة فى حاضرة المملكة وحسب إنما كانت منتشرة كذلك فى مدن أخرى بل وفى القرى ، ففى ذكر مسير (خالد بن الوليد) (ر) من عين التمر وجد فى كنيسة قرية من قراها تسمى (النقيرة) أربعين غلاماً يتعلمون[2] فأخذهم وفرقهم فى أصحابه وكان ضمن هؤلاء الغلمان عمران مولى الخليفة عثمان بن عفان (ر) .

وثمة قصة تدلنا على انتشار التعليم فى الحيرة ، وهذه القصة تروى : أن عمراً بن هند الملك كتب لطرفة بن العبد وخاله المتلمس كتابين مضمونهما قتلهما وقال لهما : انطلقا إلى عاملى على البحرين فاقبضا منه جوائزكما ، أما سبب هذا فاختلف فيه ، قيل سببه هجاء طرفة له ، ولما أراد قتله خُوِّف من لسان المتلمس ، فدعا الاثنين وكتب لهما هذين الكتابين ، وقيل سببه أن طرفة كان ينادم عمراً الملك فأشرفت أخته فرأى طرفة ظلها فى الكأس التى بيده فقال فى هذا شعراً ، فحقد عليه عمرو .. وذكر فى موضع آخر أن كليهما نالاه بالهجاء .. الخلاصة أنه كتب لهما هذين

(١) تجده فى (سيرة ابن هشام) ، الجزء الأول ص ٣٨١ ، وفى غيره من المراجع .

(٢) (الطبقات الكبرى) لابن سعد ، الجزء الثالث و (الكامل) لابن الأثير ، الجزء الثانى .

الكتابين ، وخرجا من عنده حتى إن بلغا موضعاً بالنجف قال المتلمس لطرفة : تعلمن والله أن ارتياح عمرو لى ولك لأمر مريب عندى ، وأن انطلاقى بصحيفة لا أدرى ما فيها لحماقة .. فقال طرفة : إنك لتسيء الظن وما تخاف من صحيفة إن كان فيها الذى وعدنا ، وإلاّ رجعنا فلم نترك له شيئاً ، وأبى طرفة أن يجيبه فى النظر فيها ، ففك المتلمس خاتم الصحيفة وعدل إلى غلام من[1] غلمان الحيرة فأعطاه إيّاها ليقرأها ، فشرع الغلام يقرأ وفى أثناء هذا أقبل غلام آخر يبدو أنه كان معه أو متطفل فأشرف فى الصحيفة ولا يدرى ممن هى وقال : ثكلت المتلمس أمُه .. هناك انتزعها المتلمس من يد الغلام وأتبع طرفة فلم يلحق به .

وهذه القصة وإن كانت تبدى لنا المتلمس أُمِّيّاً فهى تبدى لنا مدى انتشار التعليم فى الحيرة ومدن العراق العربى - غلام يقرأ فى مكتوب فيأتى آخر وبمجرد ما يطل فيه يقرأ ما به .. أما يشبه هذا شأننا اليوم إذا ما كان شخص ممسكاً مكتوباً يقرأه وآخر دونه يشرف فيه يختلس منه النظر ، أو يقرأ معه .

ثم إنها تبدى لنا أيضاً أن الكتابة فى هذا الحين كانت بلغت كمالها وإلاّ ما كان استطاع الغلام أن يطل فى الصحيفة ويلتقط ما بها التقاطا .

كذلك تبدى لنا أن الصبيان كانوا يتبارون ويتراءون بقراءتهم .

منهج التعليم فى الحيرة

هل كان التعليم بهذه المملكة مقصوراً على هذا ، أعنى على تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، ومعرفة طرف من الدين وأخبار الأولين بما يلاءم عمرهم ؟ . إن المراجع والمصادر تحدثنا أنه لم يقتصر على هذا ؛ بل كان لديهم تعليمٌ عالٍ فى الدين والدنيا ، وقد دلتنا عليه مؤلفات فيهما .. وقد مرّ بنا الحديث عن النضر بن الحارث الذى قدم إليها ودرس بها الأدب والتاريخ الفارسى ، وقيل إن أباه سبقه إليها وتوقف بها إذ هو فى طريقه إلى (كلية طب جُند يسابور) ، وقد يكون عناها أولاً ليتعلم بها الفارسية واليونانية ، أو على الأقل اليونانية التى هى لغة الدراسة بهذه الكلية رغم وجودها فى بلاد الفرس ، ثم بقاؤه فى هذه البلاد طبيب معالج مشهود له .

أما تلك المؤلفات ففى علوم الدين وضع الأب (يوحنا الأزرق) فى النصف الأخير من القرن السابع الميلادى رسائل فى (التهذيب الرهبانى) وألف فيه كتاباً ، وكانت مؤلفاته باللغة العربية ،

---

(١) القصة تجدها فى (المعلقات السبع الطوال) بشرح الأنبارى وتحقيق عبد السلام هارون طبعة دار المعارف المصرية .

وألف الأب (يوحنا نيشوع) مباحث فى الكتاب المقدس ونقل ما جاء فى كتاب (الآداب السريانية) رواية عن (إيشو عداد) أسقف حيرى أيضاً فى ترجمة الكتاب المقدس المعروفة (بالبسيطة) وألف (يوحنا نيشوع برسروشاى) معجماً سريانيا .

وهذه المؤلفات الحيرية بعض من مجموعة [1] حفظها لنا الدهر ووصلت إلينا وأن كثيراً وعظيماً أخنى عليها .

وما كان الحيريون يكتفون بما فى معاهدهم من علوم إنما كانوا يتطلعون إلى المزيد مما ليس لديهم ، فيشدون الرحال فى طلبه .. فى (الرُّها) و(نصيبين) و(أنطاكية) وغيرها ، وكانوا كذلك يتخذون سبيلاً آخراً فى طلب العلم وهو استدعاء المعلمين إلى بلدهم .

من هم سكان الحيرة ؟

لعل الحديث التعليمى عن الحيرة يجعل سؤالاً يلح على فكرنا وهو : متى أنشئت هذه المملكة؟ ومن هم سكانها ؟ وما العوامل التى جعلت منها منارة للعلم فى هذا الحين من الدهر ؟

: المرجح أنها أنشئت فى عهد سابور الأول الامبراطور الفارسى ، أما سبب إنشائها فهو حماية الحدود الفارسية من غارات الأعراب . أما سكانها فكانوا من العرب وهم العنصر الغالب وكانوا عدنانيين وقحطانيين وكان الملك فى فرع لخم القحطانى ، أى اليمنى ، وكانوا أيضاً من الفرس ، والأنباط ومن سكان العراق الأصليين [2] ... أما العوامل التى جعلت منها منارة للعلم فيبدو لنا من خلال هذه التركيبة السكانية أنها ضمت أصحاب عدة حضارات وهؤلاء جميعاً لو لم ينقلوا إليها شيئاً من حضاراتهم لنقلوا أبسط أمورها وهى إنشاء المدارس والكتاتيب لأبنائهم .

وهذا ما بدا لنا واضحاً من خلال سيرة (حماد) وصداقته للفرس ، وقد مرّ بنا أنه ألحق ابنه زيداً بالكتاب الفارسى بعد أن كان زيد تعلم العربية بالكتاب العربى فى حياة أبيه .

ومثل ما جاء فى ذكر يهود بابل الذين كانت لهم مدارسهم فى (سورا) ونهر (دعة) و(فم البادية) .

وأحسبنا نلمس أيضاً من خلال هذه التركيبة أن أول ما أُنشئ بها من مدارس كانت الفارسية

---

(١) الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة فى كتابه (الحيرة) ، طبعة بغداد .

(٢) أطلق المسلمون الفاتحون على بعض سكان العراق تسمية (النبط) لكن أحسبك تتنبه أن ثمة فرق بينهم وبين الأنباط الذين مر بك الحديث عنهم منذ قليل والذين هم عرب شماليون ، وقد وضحت لك هذا .

والعربية ، ثم أخذت تتسع لتشمل السريانية واليونانية وغيرها .

متى انتشرت النصرانية بها ؟

قد يداعب بالنا سؤال آخر وهو : متى تنصر سكان هذه المملكة العربية أو جانب كبير من سكانها وهى المنشأة الفارسية المجوسية ؟

إن هذا لا يعنينا هنا ، وما رأيت له تاريخاً أو كيفية محددة ؛ إنما لا ينكر أن غالب قبائل العراق قبل الإسلام كانت مسيحية شأنهم شأن إخوانهم فى الشام ، وذكر[1] أنه دوّن انعقاد مجمع كنسى بتاريخ سنة ٤١٠ م عليه توقيع رئيس أساقفة الحيرة ، ومن ثم تكون المسيحية عرفت سبيلها إليهم قبل هذا بكثير جداً إذ لا يليق أن يكونوا بلغوا هذه المنزلة فى المسيحية وهم حديثو العهد بها ..

لكن الواضح والذى يعنينا هنا أن الكنائيس والأديرة بها قامت بدور هام فى تعليم العربية ورُقيّها .

وكانت اللغة العربية هى السائدة فى هذه المملكة لكون غالبيتها من العرب وملوكها من العرب وما كان للفرس دخل فى شئونها سوى اختيار البيت الموالى لهم ، وأيضاً كان يخضع لهذه المملكة العربية أجزاء من الجزيرة العربية ، ثم إن ملوكها وعربها جميعاً أرادوا هذا وسعوا نحوه جادين فتحقق لهم .

وكانت بها كذلك لغات لا تنكر وتعلم ولها مدارسها مثل الفارسية والسريانية واليونانية والعبرية والكلدانية ، وما كانت هذه اللغات مقصورة على أصحابها بل كانت تدرس لغيرهم وقد رأينا هذا فى ذكر عدى وأبيه ، وفى ذكر لقيط بن يعمر ، وفى سيرة النضر بن الحرث ، وذكر عبود الحيرى الذى ترجم بين رستم والمغيرة بن شعبة وفى ذكر كثيرين غير هؤلاء تعلموا بها أكثر من لغة .

ويبدو أن هذه المملكة كانت ذات صفة تسامحية فهى مجوسية المنشأ نصرانية الأغلبية وعاشت بجوار هذه وتلك الوثنية والمانوية واليهودية وما صادفنى نزاع حدث بين طوائفها ، بل رأينا صداقة حميمة بينهم أحسبنا لمسناها من خلال الحديث عن حماد وأبنائه وسيرتهم مع الفرس وسيرة الفرس معهم ، وأحسبنا لمسناها كذلك من خلال تنوع المدارس والمؤلفات .

---

(١) الأستاذ جواد على فى (تاريخ العرب قبل الإسلام) .

الأثر الجنوبى بها

يبـدو أيضاً أنه لم يكن للخط المسند والأثـر الجنوبى شىء يذكر بهـذه المملكة رغم أن ملوكـها وجانباً كبيراً من شعبها من اليمن ، أو أصوله يمنية ، بل ليس ثمة ما يدل على أنه كان للجنوبية أثر فى هذا الحين إلاّ فى بعض جهات نائية من الجزيرة بما فـيها اليمن نفسه وأعظم دليل على هذا تلك المكاتبات الكثـيرة التى كانت بين النبى (ص) وبين ملوك ورؤسـاء اليمنيات فليس بهـذه المكاتبات أى دليل على أنها كانت غير الشمالية اللهم إلاّ مـكتوباً واحداً عرفنا من خلاله أن اليمنيين كانوا لا يزالون يحتفظون بلـغتهم القديمة يستعملونها فيمـا بينهم إلاّ أنه يعرفنا أيضاً أن الشمـالية صارت العامـة ولم يكن للجنوبية إلاّ هذا الأثر الجانبـى فى اليمن نفسه . وهـذا المكتوب هو الذى بعث به النبى (ص) عيـاش بن أبى ربيعة إلى بنى كُـلال من حمير، وقـال له إذ هو منصرف به: خذ كـتابى بيمينك وادفـعه إليهم بيمينك فى أيمـانهم ، فهم قائلون لك اقرأ ، فاقـرأ (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) . فإذا فرغت منها فقل : آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتيك حجة إلاّ وقد دحضتْ ، ولا كتـاب زخرف إلاّ وذهب نوره ومُح لونه وهم قارئون فإذا رطنوا فقل ترجموا .

إذن لم يكن للجنوبية سـوى هذا الأثر الجانبى فى اليمن نفسه . ونرجع لـلحيرة فنرى أنه لا أثر للجنوبيـة بها بل إننا نرى العكس ، نرى أن ملـوكها عـملوا على رقى الكتابـة الشماليـة وبدا أنهم راعوا واحتضنوا أصحابها الأنباط شـأنهم فى هذا شأن الغساسنة ، ونحسب أن الأنباط الذين نزلوا دون الفرات إبان الفُرقة سعوا أو ضُم بعضهم إلى هذه المملكة بُعيد إنشائها ، بينما سعى بعضٌ آخر أو ضم إلى مدينة الأنبـار .. بل إنى أرجح لقاء هؤلاء بأولئك قبل إنشـاء الحيرة والأنبار حـين كان العرب ينزلون الخيام دون الفرات منذ عهـد قديم ، ثم نزل دونهم اللاجئون الأنباط ، هنالك كانت معرفة العرب العراقيين بالكتابة الشمالية النبطية ، وتمخض عن هذا تطور سريع فى الخط ؛ حتى إن أهل القرن الرابع الميلادى كانت الكتابة الشمالية تقترب من طور تمامها ونستطيع أن نلمس هذا من خلال نقش (النمارة) الذى هو دونك والمؤرخ بعام ٣٢٨م ، فإنه وإن وجد بمنطقة الشام إلا أنه كان لثـانى ملوك (مملكة الحيـرة) امرئ القـيس بن عمـرو بن عـدى الذى بسط نفوذه على هذه المنطـقة وغيرها من المناطق العـربية وتعاون مع الفرس والروم فى آن واحد ، ولا نحـسـب أن الملوك يكتبون أو يكتب لهم بغيـر خطهم ولغتهم ولو كانت كتـابتهم بالمسنَد ماتوانَوا فى الكتابـة به حتى لو كانوا بمنطقة الشام وكان كاتبه شامياً . أما رأينا أن هذا دأبهم حين كانوا يتخذون الخط الجنوبى من قبل ،

سـواء وجدوا بالشام أو بمصر أو بغيرهما . ولو كان لها استعمال فى الحيرة ما كان حماد [1] الراوية يعد ما يدنو من قرن ونصف من الـهجرة قال : إن النعمان بن المنذر أمر فنسـخت له أشعار العرب في الفنوج (الكراريس) ثم دفنها فى قصره الأبيض ، فلما كان المختار [2] بن أبى عبيدة قيل له إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفره وأخرج تلك الأشعار .

ولا كان هشام بن الكلبى [3] قال : كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتأريخ سنينهم من أديرة وبيع [4] الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها.

وإن كان أنكر على الرجلين قولهما فليس بسبب بلوغ الكتابة مبلغ التدوين ، إنما بسبب ما كان يُشاع فى الناس حـينئذ بأن العرب لم يدونوا فى كراريس وكـانت كتابتهم على العـسيب والجلود والعظام ، وينكرون تدوين الشعر ألبته .

لكننا رأينا ابن سـلام فى طبـقاته أيضـاً يقول : وكـان عند النعـمان بن المنذر من شـعر العـرب الجاهلية ديوان فيه أشعارهم الفحول وما مُدح به هو وأهل بيته .

وإن نحن تركنا التـصديق والتكذيب فى أمر التـدوين فى الكراريس أو التدوين كليـة وإن كان هذا غيـر مستبـعد عن الحيرة منشـأة الفرس وربيبـتها ومُخـرجة أبنائها يتـبوأون أعلى المناصب فى دواودين ملوك الفرس ، إن نحن تـركنا هذا نرى أنه لولا يقين هؤلاء فى بلوغ الكتـابة عند العرب الحيريين مبلغ التدوين حينئذ ما فاهوا بهذا البتة .

ثم إن المراجع والمصادر عـرفتنا أنه كان بالحيـرة مؤلفات وتراجم فى النصف الأخيـر من القرن السابع الميلادى ، فهل يتم هـذا إلاّ إذا كان مرّ على كمال كتابتهـم حقب من الدهر .. ولو كان ثمة شك بأنها غير الشمالية ما فـاهوا به كذلك وإلاّ كنا رأينا من ينبرى لهم ويرد عليهم قولهم بأن لغة وكتـابة الحيريين غيـر لغتنا ، مثلمـا فعل أبو عمـرو بن العلاء وقال فـيما أورد ابن سلام نفسه فى طبقاته : ما لسان حِمْيَر وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ..

هكذا رأينا الحيرة فى هذا الحـين من الدهر .. كتاتيب ومدارس – عربية وغـير عربية – ، ورأينا

---

(١) زعيم رواة الكوفة ، قيل توفى سنة ١٥٦ هـ وقيل ١٦٤ هـ .

(٢) زعيـم التوابين الذين نادوا بثـأر الحسين بن علـى ، وملك العراق حـقبـة وحاربه الزبيـريون والأمويون ، ثم قـتله الزبيريون عام عام ٦٧ هـ .

(٣) هشام بن محمد بن السائب راوية أيضاً توفى سنة ٢٠٤ هـ .

(٤) بيع جمع بيعة ، والبيعة الكنيسة .

إنْ أيفع الطفل بها وتحرك أُرسل إلى الكتاب ، ثم المدارس ، وإن تطلع إلى مزيد وجده بها أو شد الرحال إليه فى موطنه ، ومن ناحية أخرى كانوا يستدعون المعلمين من مواطن العلم ، ورأينا مؤلفات كبيرة فى الدين والدنيا ، ورأيناها مقصداً للعرب جميعاً يتزودون منها بالعلم ، وقد رأينا أن العرب من نواحٍ مختلفة من الجزيرة لا يقعدون عن طلب العلم وشد الرحال إليه رغم بعد المسافات ولقاء الصعاب والمشقة .

الأنبــار

قبل أن ندع العراق إلى داخل الجزيرة العربية لنقف على معرفتهم بالقراءة والكتابة لا يفوتنا الحديث عن مدينة الأنبار التى كان يستوطنها العرب منذ زمن بعيد والتى ينسب إليها بعض الإخباريين تعليم القريشيين والعرب القراءة والكتابة ، وإننى كنت أريد ذكر طرف مما كتبه الأقدمون فى هذا الموضوع لا يتعدى اعتقادهم أن أصل الخط العربى يرجع إلى الأنبار وإياد ، ثم أوضحه وأرده إلى أصله على نحو ما سأفعل . وأكون بذلك قدمت إلى القارئ فى كل ما تحدث به الأقدمون الطرف القريب من الصحة فيه ووضحته ، وذلك لأنى أرى أنه لا داعى من التشويش بما لم يعد منه جدوى بعد أن بين لنا السبيل العلمى الحقيقة واضحة ، إذ إن كل ما ذكره أولئك الأقدمون يكتنفه الخلط والتضارب والبعد عن الحقيقة وما عدنا نراه إلاّ ضرباً من عشواء لم تصادفه الإصابة مرة واحدة ، بل إنك لن تجد فى كلامهم المعنى بالخط ذكراً للأنباط أصحاب الأمر كأنهم لا يعرفون الأنباط ، أو كأنهم لا يريدون أن يعرفوهم إلينا ، إنما رأينا فى أحاديثهم بعيداً عن هذا ذكر أنباط أصحاب عيٍّ وهجنة [1] غير عربية ، وحين جاء فى كلام هؤلاء الأقدمين ذكر شمالى الحجاز جاء ساذجاً من باب الأساطير ودون أن يدروا أنه موطن الخط العربى .. أما ذكرى إيّاه فلأنه ينبغى على أن أذكره ما دام كتب فى هذا الموضوع وليقف عليه القارئ علّه يرى فيه شيئاً يوحى إليه بأمر ما ، ثم إننا سنجد فى بعض فقرات أحاديثهم ما يُعيننا ونستشهد به فى بعض مواضع آتية دون أن يكونوا قصدوا بنا ذلك ، ولعلنا فى النهاية نلتمس لهؤلاء الأقدمين العذر .

يقال فى مسير خالد بن الوليد (ر) إلى الأنبار لإخضاعها وجد أهلها بارزين فأيقن أنهم مسالمون ولا علم لهم بالحروب فأمر رجاله أن يرشقوا عيونهم بالسهام ، ففعلوا وخُرقت يومئذ [2] ألف عين ، ولما احتل المدينة وصالح أهلها وظهروا بعد الرعب الذى نزل بهم رآهم يكتبون بالعربية

---

(١) لفت نظرك لهذا فى صفحة سابقة .

(٢) ذكر الطبرى فى الجزء الثانى من (تاريخه) صفحة ٣٧٥ .

ويتعلمونها ، فسألهم من أنتم ، قالوا : قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا ، فكانت أوائلهم نزلوها أيام الامبراطور بختنصر حين أباح العرب ثم لم تُزل عنها . فقال ممن تعلمتم الخط؟ فقالوا تعلمنا من إياده ..

وهذا ما أردت التوقف عنده والاكتفاء به ههنا ، وأحسبك ترى فى هذا ما يؤيد مذهبى [1] بأن الأنباط أفادوا العرب فى العراق حين نزلوا دونهم قبل إنشاء الحيرة والأنبار وأن إياداً من أقدم القبائل العربية التى نزلت بالعراق وينسب إليها نشأة الخط العربى على نحو ما ترى . فمن أين جاءها هذا الخط خاصة وأن السبيل العلمى الحديث عرفنا أنه نبطى مشتق من الآرامى وموطنه شمالى الحجاز ، وقد بينت لك لجوء الأنباط دون إخوانهم فى الغراق .. وأحسب أن الطبرى نقل هذا من اعتقاده بأن بختنصر هو الذى أمر ببناء مدينتىْ الحيرة والأنبار فإنه يذكر فى تاريخه أن الحيرة هُجرت قرابة خمسين عاماً قبل أن تعود للعمران ثانية ويُنصب عليها اللخميون ، بينما سارت الأنبار فى طريقها العمرانى .

وقد يكون هذا صحيحاً ، أى قفر الحيرة زمناً ودوام عمران الأنبار وهذا الأمر أكسبها نسب الخط العربى .

ومن ثَمّ نرى فى هذا الجزء شيئاً من الصحة وقد وضحته وصححته .

وننظر إلى قول آخر تناول هذا ، وهو ابن النديم الذى يذكر فى (الفهرست) عن ابن عباس (ر) أنه قال : أول من كتب العربية ثلاثة رجال من (بَوْلان) وهى قبيلة كانت تسكن الأنبار ، وإنهم اجتمعوا ففرضوا حروفاً مقطعة وموصولة وهم (مرامر بن مُرة) و(أسلم بن سدرة) و(عامر بن جدرة) فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام .

وقول ابن النديم (وضع الصور) فهو يعنى صور الحروف الهجائية وقوله عن أسلم أنه (فصل ووصل) فيعنى بيان الحروف التى تكون مفصولة وموصولة فى الجملة أو الكلمة ، إذ ليس فى العربية حروف تعمل وهى منفصلة عن بعضها ، أما الفصل المعنىّ هنا مثل الألف والياء فى (الذى) فإنهما لا يكونان فى هذا الموضع إلاّ منفصلين ، لكن الفصل ليس صفة ملازمة لهما ولا لغيرهما إلاّ لوقوعهما فى مثل هذا الموضع .

وقوله أما عامر فوضع الإعجام ، فإنه يعنى إزالة العجمة عن الكلمة بالنقط التى تفرق وتبين

---

(١) (مذهبى) أى ما ذهبت إليه بفكرى ورؤيتى .

الحاء والجيم والخاء وهكذا .

ويردف ابن النديم فى معرض حديثه عن الخط : وسُئل أهل الحيرة ممن أخذتم العربى ؟ قالوا: من الأنبار .

أما البلاذُرى فى (فتوح البلدان) فيذكر عن عباس بن هشام الكلبى أنه قال: اجتمع ثلاثة نفر من طيّئ ببقة، وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار.

وتلك الأسماء التى نسب إليها الأقدمون الخط العربى ليست فى الحقيقة أسماء لأشخاص حقيقيين ؛ إنما مجرد أسماء وُفقت على هذا النحو ، وتوفيقها هذا نجم عن تصحيف حدث بجمل سريانية كان السريان يطلقونها على أصحاب العلم والكتابة ، وإنك إن تأملت هذه الأسماء الثلاثة لصدق عندك هذا ، فاسم (مرامر بن مرة) هو فى الأصل تصحيف لجملة (مارا ما برماوى) ومعناها (شيخ شيوخ العلم بن حامل لواء العلم) واسم عامر بن جدرة تصحيف لعبارة (عمرايا بر جدرا) ومعناها (العماد الحاذق) و(أسلم بن سدرة) تصحيف لجملة (شليما بر سدرا) وتعنى التام العلم الخطاط . ولما كان السريان يطلقونها كذلك - أو هى جرت على الألسنة على هذا النحو - حسبها بعض العرب أسماء لأشخاص حقيقيين ، ومن خلال تأملك لهذه الجمل الثلاث أو الأسماء الثلاثة سيعتريك شك أنها لأشخاص ؛ لما هى عليه من سجع ، وسوف يذهب بك ظنك أنها صيغت على هذا النحو ليحسن وقعها فى الأسماع . ثم لا ننسى أن السريانية كانت معروفة فى الحيرة والأنبار ومنطقة الشام ويدرس بها قبل الإسلام وظلت كذلك إلى ما بعد الإسلام بثلاثة قرون ، وكان لأصحابها الفضل فى تعليم أبناء المسلمين الدراسات العليا ، كذلك كان لهم الفضل[1] الأوحد فى التراجم الكبرى التى نقلت من اليونانية والسريانية إلى العربية .

والحقيقة أن السريانية لم تنته عند هذا التاريخ ورجعت تسيطر على جزء من منطقة الشام - لبنان - حتى القرن الثامن عشر الميلادى وهى لا تزال متداولة فى صلوات بعض الطوائف المسيحية العربية .

وفى موضع آخر من (الفهرست) يقول ابن النديم ؛ إذ هو يتحدث عن القلم العربى : اختلف الناس فى أول من وضع الخط العربى ، فقال هشام الكلبى أول من وضع ذلك قوم من العرب العاربة نزلوا عدنان بن أدد وأسماؤهم (أبو جاد) و(هواز) و(حطى) و(كلمون) و(صعفطى)

---

(١) الأستاذ أحمد أمين فى (فجر الإسلام) ص ٢٠٣ وما بعدها .

و(قريشات) ، وهذا من خط ابن الكوفى بهذا الشكل والإعراب وضعوا الكتابة على أسمائهم ، ووجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم وهى الثاد والخاء والظاء والشين والغين فسموها الروادف ، وهؤلاء ملوك مدين وكان مهلكهم يوم الظلة فى زمن شعيب النبى ، وأورد شعراً على لسان أخت كلمون ترثيه به :

كلمون هدّ ركنى ... هُلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه ... الحتف ناراً وسط ظُله
جُعلت ناراً عليهم ... دارهم كالمطمحله

ويردف ابن النديم : قرأت بخط ابن أبى سعيد على هذه الصورة وبهذا الإعراب (أبجاد هاوز حاطى كلمون صاع فض قرشت) .

ثم يقول بعد أن سرد هذه الصور : قالوا هم الجبلة الآخرة وكانوا نزولاً فى عدنان بن أدد أبو معد بن عدنان ، وأدد هو أبو اليسع بن الهميسع بن سلامان بن زلف بن حمل بن قيذ بن إسماعيل، فلما استعربوا وضعوا الكتاب العربى والله أعلم ، ثم يردف : وقال محمد بن إسحاق وأما الذى يقارب الحق وتكاد النفس تقبله فذكر الثقة أن الكلام العربى بلغة حمير وطسْم وجديس وإرم وحويل فهؤلاء هم العرب العاربة ، وأن إسماعيل لما حصل فى الحرم ونشأ وكبر وتزوج فى جرهم فهم أخوال ولده فتعلم كلامهم ، ولم يزل ولد إسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ويضعون للأسماء أشياء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها ، فلما اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد الفصيح فى العدنانية ، وكثر بعد معد بن عدنان ومما يصدق ذلك ما روى مكحول عن رجاله أن أول من وضع الكتاب [1] العربى نفيسُ ونصر وتيما ودومة وهؤلاء ولد إسماعيل ووضعهوه مفصلاً ، وفرقه قادور وزنبت بن هميسع بن قادور .

ويتبع ابن النديم : قال محمد بن إسحاق أن نفراً من أهل الأنبار من إياد القديمة وضعوا حروف (أ ب ت ث) وعنهم أخذته العرب ، وقرأت فى كتاب مكة لعمر بن شبة وبخطه أنه يقول أخبرنى قوم من علماء مضر ، قالوا الذى كتب العربى الجزم [2] رجل من بنى يخلد بن النضر بن كنانة ، فكتبت حينئذ العرب ، وعن غيره (يعنى ابنُ النديم غير عمرو) قيل إن الذى

(١) يعنى بالكتاب (الكتابة) .
(٢) (الجزم) القطع ، ووضعوا الخط العربى تحت هذا المسمى ظناً منهم أنه قطع عن الخط المسند . أو فصل عنه .

حمل الكتابة إلى قريش بمكة أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وقيل حرب بن أمية ، وذكر أنه حين هُدمت الكعبة بأيدى القريشيين وجدوا فى ركن من أركانها حجراً مكتوباً فيه (السلف بن عبقر يقرأ على ربه السلام من رأس ثلاثة آلاف سنة) ، وكان فى خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم فى جلد من أدام فيه ذكر حق لعبد المطلب بن هاشم على فلان بن فلان الحميرى من أهل زل صنعاء ، عليه ألف درهم فضة كيلا بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه . شهد الله والمكان.

ومن كُتّاب العرب أُسيد بن العيص إذْ وجد على حجر بمسجد المريين ، وقد حسم السيل عن الأرض مكتوب (أنا أسيد بن أبى العيص ، ترحم الله على بنى عبد مناف ....) أما ابن خلدون فحسب نفسه المصيب فى هذا الرجم بالغيب إذ قال فى معرض حديثه عن الخط العربى : إن الخط العربى بلغ فى دولة التبابعة فى اليمن مبلغاً من الأحكام والجودة لما بلغت دولة التبابعة من الحضارة والترف ، وأن الخط انتقل من اليمن إلى الحيرة على أيدى المناذرة . (يعنى ملوك الحيرة) ويذكر أيضاً : فالقول بأن أهل الحجاز إنما لُقنوها من الحيرة ولُقنها أهل الحيرة من التبابعة وهو الأليق من الأقوال ... يردف ابن خلدون : ورأيت فى كتاب التكملة لابن الأبار عن التعريف بابن فرّوخ القيروانى الفاسى الأندلسى من أصحاب مالك واسمه عبد الله بن فروخ بن عبد الرحمن عن أبيه قال قلت لعبد الله بن العباس يا معشر قريش خبرونى عن هذا الكتاب العربى ، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث محمد (ص) تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق ، مثل الألف واللام ، والميم والنون ، قال نعم ، قلت وممن أخذتموه قال من حرب بن أمية ، قلت وممن أخذه حرب بن أمية ، قال من عبد الله بن جدعان ، قلت وممن أخذه عبد الله بن جدعان ، قال من أهل الأنبار ، قلت وممن أخذ أهل الأنبار ، قال من طارئ طرأ عليهم من أهل اليمن ، قلت وممن أخذه هذا الطارئ ، قال من الخلجان بن القسم كاتب الوحى لهود ...

أحسبك رأيت تضارب الأخباريين فى هذا الأمر ، إنما أحسبك أيضاً لمست يقينهم بقدم الكتابة عند العرب ، لكنهم تخبطوا فى الأمر خبط عشواء وأسرفوا حتى رأينا منهم من يعتقد بأنها وُجدت قبل ثلاثة آلاف سنة ؛ وذلك من خلال ما رددوا أنه وُجد حجر بركن من أركان الكعبة حين هدمتها قريش مكتوب عليه : (السلف بن عبقر يقرأ على ربه السلام من رأس ثلاثة آلاف سنة ولا ندرى بأى لغة كتب السلف بن عبقر ـ رحمة الله عليه - ؟ لعلها كانت الهيروغليفية ، وأن (باخوم القبطى) لما أحضره القريشيون لبناء الكعبة ترجم لهم لغة أجداده إن كانت ظلت متداولة لدى المصريين حتى مطلع القرن السابع الميلادى الذى هدمت فيه قريش الكعبة وأعاد

بناءها باخوم القبطى ، لكننا لا نشك فى أنهم قصدوا العربية التى نكتب بها وأنهم يرددون هذا ليعلمونا قدمها ، ثم إن غالب الذين تناولوا هذا الموضوع من القدماء جعلوا الكتابة توقيفاً من الله ، تعلمها آدم فكتب بها كتب الأمم كلها ، فلما أظل الأرض الطوفان ، ثم انحسر عنها أصابت كل أمة كتابها .. ثم رأينا من أرجعها إلى إسماعيل وإلى أبنائه ، وإلى نفر من اليمن (أبو جاد) و (هوز) وأصحابهما، وقد لا يكون لهم وجود أصلاً وليسوا سوى أسماء وهمية كأسماء (مرامر) و(أسلم) و(عامر). ورأينا منهم من يرجع بها إلى مدين، ومنهم من يرجع بها إلى كاتب الوحى لهود وتلك إشارة عشوائية إلى شمالى الحجاز . ومنهم من يرجع بها إلى بنى النضر وتلك إشارة إلى الحجاز نفسه بل إلى قريش وذلك على رأى بعض الذين يقولون إن النضر هو أبو قريش ..

بدا لنا تضاربهم وخطأهم فى كل هذا ، وأن أقربه إلى الصحة القول القائل بأن مصدره الحيرة والأنبار والحجاز ، لكنهم لم يعلموا مصدره إلى الحيرة ، فزعم ابن خلدون أنه (اليمن) وحسب نفسه المصيب .

وزعم آخرون أنه الأنبار وأن مصدره إلى الأنبار إياد ووقف علمهم عند هذا ..

وزعم بعض آخر أنه الحجاز ولم يذكروا مصدره إلى الحجاز . ومنهم من ذكر شمالى الحجاز لكنه ذكر خزعبليّ .

إنما تخلل هذا وذاك كلام مفيد وصحيح لكنه لم يعنِ موضوع أصل الخط العربى ، من هذا الكلام ما نسبوه إلى (عامر بن جدرة) من إزالة العجمة وقد وضحته كما عناه الأقدمون والمعاصرون ، فإنما ذكر جميعهم هذا من يقينهم بأن النقط والعلامات والفواصل كانت موجودة منذ ما قبل الإسلام ، والذى يعنينا هو أمر إزالة العجمة ولا يعنينا إن كان عامر وصاحباه حقيقة أم وهماً [1] ... ومن هذا الكلام ذكرهم لكتاب عبد المطلب الذى كان فى خزانة المأمون ، فإن عبد المطلب ذُكر بالكتابة فى موضع آخر سأذكره لاحقاً .

ومن هذا الكلام ذكرهم لأسيد بن أبى العيص الذى وجدت كتابته على حجر ، وقالوا إنه من كُتّاب العرب ، وللأسف ذهبت كتابته كما ذهبت كتابة كثيرين فى هذا العصر وأطلق على جماعة منهم (الكملة) [2] ، ولعلنا فى النهاية نلتمس لهم العذر ونُرجع تضاربهم هذا إلى يقينهم بقدم

(١) لى عليه حديث قادم ؛ أى على النقط والفواصل .

(٢) جمع كامل وهو نعت كان يطلق على من جمع بين الفروسية والعوم والرمى إضافة إلى قراءته وكتابته .

الكتابة وإلى الكتابة الجنوبية بالذات وإلى حاضرتهم الممعنة فى القدم .

وقبل أن ندع هذا الفصل على أن أشير أن هذا القلم النبطى أو أن هذا الخط النبطى عُرف عنه قلمان فيما بعد (النسخ) وكان معروفاً فى شمالى الحجاز والحجاز بـ (الأسطرنجلى) ، كان معروفاً فى العراق وهو الحيرى الكوفى ، وما ابتعد أحدهما عن الأصل ، ونحسب أنه أمر عن التجويد والشكل وليس الخصائص ويؤيد هذا كل ما قدمته دون يديك يعززه السبيل العلمى[1] .

جاء فى عقب حديث البلاذُرى عن الثلاثة الطائيين الذين اجتمعوا ببقة ذكره عن معرفة القريشيين للكتابة والقراءة فقال :

كان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل يأتى الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانياً ، فتعلم الخط من أهل الحيرة ، ثم كان يأتى مكة فى بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة يكتب فسألاه أن يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتبا ، ثم إن بشراً وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف فى تجارة فصحبهم غيلان بن سلمة الثقفى فتعلم الخط منهم ، وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مضر فتعلم الخط منه عمرو زرارة بن عدس فسمى عمرو الكاتب .

بينما أسند ابن النديم هذه المهمة إلى أبى قيس بن عبد مناف أو حرب بن أمية أو رجل من بنى يخلد بن النضر بدون مصاحبة المعلم بشر ●

(١) أكتفى بهذا هنا لكى لا أشوش على القارئ العادى الذى سيرى فى النهاية صحة ما أشرت إليه ، أما إن كنت معنيّاً بموضوع الخطوط فثمة كتب تتناول هذا وأسهلها كتيب (قصة الكتابة العربية) للأستاذ إبراهيم جمعه، وفيه يفند الرأى القائل بأن الخط الكوفى هو أصل الخطوط العربية ، ويثبت هذا للخط النبطى العربى ، ويتحدث كذلك عن الخطوط فى عصور متأخرة من الإسلام ، أما أنا فمعنىٌّ بإثبات الكتابة فى عصر ما قبل الإسلام .

- ٤ -

مكة والخط النبطى العربى

تحدثنا فى موضوع نشأة الخط العربى وعرفنا عن طريق العلم الحديث أصله ، ثم رأينا ما ذكره الإخباريون فى هذا الأمر وبدا لنا الخلط والتضارب ، ثم بعد ذلك رأينا ما ذكروه عن السبيل الذى عرف من خلاله القريشيون الكتابة العربية . فهل نأخذ به ونصدق أن القريشيين ما عرفوا الخط العربى النبطى إلاّ فى ذلك الحين على يد المعلم بشر أو غيره ؟ إن المتأمل لأحوال المكيين يستبعد أن يكونوا تخلفوا عن الخط النبطى إلى قبيل القرن السادس الميلادى وهو الحين الذى سعى أو بالأحرى ما قيل أن بشراً سعى فيه بهذه المهمة التعليمية . لماذا ؟ لأن مكة كانت حينئذ وقبل هذا الحين بكثير ذات موقع هام وكانت الرباط بين اليمن والشام ومن ثم بين الشرق والغرب ، وموقع مثل هذا لا يُظن أهله يكونون متخلفين وبأيديهم ممر الأمم فى مقدمتهم الأنباط الذين كانوا يمرون بهم ذهاباً وإياباً .

يقول القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى [١] : كانت مكة أصل علم الأخبار ومعدن معرفة السير والأمصار ، ليس يوصل إلى خبر من أخبار العجم والعرب إلاّ بالعرب ومنهم ، وذلك أن من سكن مكة من العمالقة وجرهم وآل السميدع بن هونة وخزاعة أحاطوا بعلم العرب العاربة والفراعين العاتية ، وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارة فيعرفون أخبار الناس .

ثم لا ننسى أن منطقة الحجاز كانت متاخمة للاتحاد النبطى أو لجنوبه العربى المتمثل فى الثموديين واللحيانيين ، وقد دلت المراجع والمصادر يقينا أنهم نزلوا الطائف وهذيل وهما أقرب بلدين من مكة موقعاً وصلة ، وإذا كانت الأخبار تحدثنا أن كثيراً من الأنباط تفرقوا فى الجزيرة العربية والعراق ؛ فما بالك بمكة وتلك مكانتها وقد عرفوها عن كثب ؟ ، بل إن من الكتاب المعاصرين[٢] من رجعوا بأصل القريشيين إلى الأنباط وأنهم نزلوا شعاب مكة ورءوس جبالها حين أزال الرومان سلطانهم واستولوا على (بتراء) . وإن كان حسبنا هذا داحضاً عن القريشيين

---

(١) فى كتابه (طبقات الأمم) ، فى باب علم الأخبار .

(٢) دكتور شوقى ضيف فى (العصر الجاهلى) ص ٤٩ .

صفة التخلف فإنى أزيد وأذكر أموراً تعزز عندك هذا ، من هذه الأمور أمر يتعلق بشخصية قصى بن كلاب وبنيه ، ولقصى رواية رواها كتاب السير والأخبار أقدمها إليك : هو ابن كلاب بن مرة بن كعب القريشي ، وأمه فاطمة بنت سعد ، ينتهى نسبها إلى أزد شنوءة حلفاء فى بنى كنانة ، وكان له أخ اسمه (زهرة) ومات أبوه وهو طفل ، ثم تزوجت أمه من رجل عذرى يُدعى ربيعة بن حرام وكان لا يزال زيد صغيراً فحمله وإيّاها إلى بلاده ، بينما كان أخوه زهرة شب وبقى بمكة ، فلذلك أطلق عليه قصى ، أى لأنه أقصى عن بلده . وينشأ فى قوم زوج أمه ، ويبدو أنه مع مرور الأيام أحدث أمراً جعل رجلاً منهم يقول له : إنك لست منا وغريب فينا . فقال قصى : ممن أنا ؟ فقيل له اسأل أمك ، فسألها فقالت له : أنت خير منه وأبوك كلاب بن مرة وأهلك بمكة ، ثم جهزته وانتظرت به حتى يخرج حجاج قضاعة فيخرج معهم ، ولما خرج حجاج قضاعة خرج معهم حتى إن بلغوا مكة أسلموه لأخيه زهرة وأهله .

وتنتقل بنا الرواية بأن قصياً تاجر وجمع المال وبدت عليه مخايل السيادة ، ثم خطب إلى كبير خزاعة وصاحب سدنة البيت الحرام (حُليل بن حُبْشيّة) ابنته حُبّى ، ثم تزوجها . ويبدو أن حُليلاً لم يكن لديه أبناء ذكور إذ نراه لما أحس بدنو الأجل أو لما ثقل أعطى مفاتيح الكعبة إلى ابنته حُبّى زوج قصى وجعل إليها ولايتها ، فقالت إنى لا أقدر على فتح الباب وغلقه ، فقال لها : إنى أجعل هذا إلى رجل يقوم به ، فجعله إلى سُليم بن عمرو المكنى بأبى غُبشان ، وكان أبو غبشان سكيراً معوزاً ، ويبدو أنه طلب يوماً الخمر فلم يجد عنده ما يشتريه به . تقول الرواية : فعرض عليه قصى أن يبعه إيّاه مقابل مفاتيح الكعبة ، وتنهى الرواية هذا العرض بأن قصياً أخذ مفاتيح الكعبة من أبى غُبشان مقابل زق خمر وقعود ، أو يكون قد فعل ذلك فى حالة سكر أبى غُبشان . أى أتم هذه الصفقة فى أثناء سكره ، إذ إن الرواية تحدثنا أن خزاعة حين علمت ذلك ثارت على قصى ، فاستنفر هو قريشاً وكتب إلى أخيه من أمِّه يستنفره ، فجاء أخوه ومعه أخواه من أبيه ومن نهضوا معهم من قضاعة .

ونستطيع أن نلمس ما كان فى فترة ما بين إقبال رُزاح أخو قصى ومن نهضوا معه من بادية الشام وبين غضب الخزاعيين بأنه جرت خلالها مفاوضات ومساعٍ حميدة بين زعماء خزاعة وبين صهرهم قصى لاسترداد مفاتيح البيت الحرام وذلك حرصاً على المصاهرة التى بينهم ، لكن يبدو أن هذه المفاوضات والمساعى لم تجد شيئاً وأن الأمور تأزمت حين جاء المدد القضاعى ، إذ رأينا قصياً يحاربهم بقريش وبهذا المدد وينتصر عليهم وينفيهم عن مكة نفياً .

وأخذ قصى بعد ذلك يمارس سلطات الملك الظافر فأول ما فعله هو تجميع القريشيين وإنزالهم من الشعاب ورؤوس الجبال وفرق فيهم أحياء خزاعة ، وأسكنهم بطاح مكة وكانوا قبلاً يحرمون ذلك ولا يجرؤون ، ثم بنى دار الندوة وهى بمثابة مجلس تشريعى أو مجلس شيوخ وكانت العضوية به لا تكون إلاّ لمن بلغ الأربعين سنة ولمن له رجاحة العقل وعرف مداراة الأمور ، وكان لقصى رياسته لكونه [1] ملك مكة لا يبت فى أمر من أمور مكة صغيراً كان أو كبيراً إلاّ بإذنه وتحت مشورته ورأيه .

وعمل قصى على أن يكون الأمر فى أبنائه من بعده فتم له هذا . فهل ترى رجلاً له تلك التطلعات وذلك الصنيع ويقدم على ما أقدم عليه ، ويمهد لأبنائه سبل السيادة والجاه ولا يفكر فى أهمية الكتابة وهو (الكاتب) .

وهب أن قصياً ما فكر فى ذلك ، ألا يفكر فيه أبناؤه وخلفاؤه وقد أصبحت مقاليد الأمور بأيديهم ويعملون على أن تكون فى أبنائهم ويدعون الأمر ويبقون متخلفين عن هذه الكتابة حتى يكبر الجيل الثالث من أبناء قصى ليتعلم أحدهم على يد المعلم بشر وهو أخو ملك وهم أبناء ملك وقد غدا الناس يجلونهم وينشرون بينهم أنهم خير العرب وأعز العرب .

أحسب لا يليق بعد هذا تخلف قريش عن الخط العربى النبطى السهل وأن يظلوا متخذين المسند الصعب حتى قبيل القرن السادس الميلادى ، أى بعد اشتقاقه عن الآرامى بأكثر من ستة قرون وقد بينت لك هذا أثناء الحديث عن مملكة النبط . والمروجون هذا جاءوا بأبيات نسبوها لشاعر كندى يخاطب بها قريشاً :

لا تجحدوا نعماء بشر عليكم	فقد كان ميمون النقية أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتم	من المال ما كان شيئاً مبعثرا
وأنقذتم ما كان بالمال مهملا	وطامنتم ما كان منه منفرا
واغتنيتم عن مسند القوم حمير	وما دبرت فى الكتب أقيال حميرا

أتجعلنا هذه الأبيات نصدق حقاً أن بشراً هو الذى علم القريشيين الكتابة الشمالية ، أم نذهب مذهب الذين يقولون فى مثل هذا الشأن أنها ما أُنشئت إلا لتبدى المجد المؤثل فى القحطانية على

(١) ليس هذا رأيى ولا أنا الذى أصبغ عليه هذه الصفة ، إنما نقلته عن ابن جرير الطبرى فى (تاريخه) وابن هشام فى (سيرته) وابن سعد فى (طبقاته) .

العدنانية ، وذلك حين علت قريش رقاب العرب والعجم ؟

والحقيقة أنى أميل لهذا ولا أميل لتخلف قريش عن الخط النبطى حتى زمن بشر المعلم أو غيره لما بدا لنا ، وأن هذا الخط عرفه الحجازيون فى طوره الأول وأخذ لديهم مراحل التطور غير منفصلة عن شماله وشرقه ما دام مصدره واحد وما دام أصحابه نزلوا بين هؤلاء وأولئك ، إلا أنه قد يكون مال كل منهما لشكل لا يبعد عن الأصل ، فبدا هذا يميل للتربيع [1] وذلك للتدوير .

ثوابت النفى وجيل النهضة من أبناء قصى

رأينا على أى نحو ساد قصى مكة وأقرّ [2] أهلها له بالملك بعد أن نفوا سكانها السابقين ، ثم أخذ الرجل يمارس سلطات الملك ، وأخذ كذلك يمهد لأبنائه سبل السيادة ، فساروا عليها وأصبحت بأيديهم مقاليد الأمور ، وأهمها أمر الكعبة لعائده المعنوى والمادى لتعظيم كثير من العرب لها ، ولم يكد يمر على رحيله غير عقود حتى نرى الجيل الثانى من أبنائه لا يكتفى بما يفرض من ضرائب وإتاوات على من ينزل ببلدهم سواء كانوا حجاجاً [3] أو تجاراً عرباً أو غير عرب إنما تطلعوا لأعظم من هذا وبدأوه بالخروج لإقامة العلاقات والمعاهدات ، ونحسبهم تأملوا الأحوال دونهم فرأوها ملاءمة ورأوا أنفسهم أهلاً لأن ينهضوا بهذا ..

فها هو اليمن قد أصابه الوهن ومحتل من قبل الأحباش وأهله مشغولون بأمرهم ، وها هم الفرس والروم فى حروب مهلكة ، ثم تلك المناوشات وحروب الثارات التى تكون بين المملكتين العربيتين من حين لآخر ، وحتى لو لم تكن هذه الحروب ذات بال فإن هناك أمراً أهم وهو نظرة العرب داخل الجزيرة إلى هاتين المملكتين على أنهما تابعتان لقوىً أجنبية ، وفى المقابل نظرتهم لمكة على أنها القوة العربية المستقلة ، ويعزز هذا وذاك وجود البيت الحرام بها ، وأيضاً كان ينظرها الفرس والروم بنظرة قريبة من هذه ، فإذا كانت كل من الإمبراطوريتين نجحت فى إقامة مملكة عربية على حدودها لحماية هذه الحدود من إغارة الأعراب فإنها لا تملك تلك الحماية داخل الجزيرة العربية والذى يعنيهم ههنا هو الجانب التجارى البرى ، وتعلم كل منهما أن هذه الحماية بأيدى القريشيين وحدهم . هنالك نهض هاشم بن عبد مناف للأمر وخرج إلى أنقرة ليقيم هذه

---

(١) ذكرت هذا عند الحديث عن الخط الإسطرنجلى والنسخ ، أى هذا داخل فى حيزهم ، وأشرت أيضاً إلى المصدر الذى من خلاله نقف على أمر الخطوط .

(٢) المراجع سالفة الذكر .

(٣) ابن فقيه فى (البلدان) .

العلاقات والمعاهدات بينهما ، فلاقاه القيصر واحتفى به [1] وأجابه ، وكتبا بينهما كتاباً بأن يختلف بموجبه القريشيون فى الولايات الرومية آمنين ، وكلمه هاشم بأن يكون لهم مثل هذا فى أرض الحبشة ، فأجابه أيضاً ، وكتب بهذا إلى نجاشى الحبشة حليفه ، فخرج هاشم بعد ذلك إلى نجاشى الحبشة ممثلاً عن بلاده فلقى الترحيب وقامت بين البلدين العلاقات والمعاهدات ، وخرج أخوه نوفل إلى العراق وفارس لنفس الغرض ، فتحقق له ما تحقق لأخيه ، ثم خرج المطلب إلى اليمن لنفس الأمر فما خاب مسعاه ، ثم قصدوا هذا عند باقى ملوك وأمراء ومشايخ البلاد والقبائل العربية ، فتحقق لهم هذا كله .

وعندئذ اختلف الأمر من تجارة عابرة إلى تجارة دائمة وعابرة وإقامة دائمة وعابرة لرعايا تلك البلاد فى مكة ، وللملكيين فى بلادهم إن شاءوا . فجعل هذا كله مكة تزدهر ازدهاراً عظيماً ، ثم عمل أبناء قصى على ازدهار الناحية الثقافية بمكة ومنطقة الحجاز ؛ ليكون لديهم مثابة أخرى للعرب ، ورأوا أكبر انتشار لها حينئذ الأسواق فأقاموا للمثقفين فيهم وفى سائر العرب القباب بها، وأقاموا أيضاً القباب للخطباء والأحبار والقساوسة والحكماء كل يعرض بضاعته ويبشر بعقيدته ويعظ ويخطب ، فعاد هذا كله عليهم بمزيد من العائد المعنوى والمادى وتحقق لهم ما تطلعوا إليه وغدت منطقتهم مركزاً ثقافياً كذلك . وفى المفضليات فى ذكر (علقمة بن عَبَدَة) أورد المفضل : كانت العرب تعرض أشعارها على قريش فما قبلوه كان مقبولاً وما ردوه كان مردوداً ، ويؤكد هذا ما روى فيما بعد من أمر الوليد بن المغيرة .

وحديثه فى نفر من قريش حين حضرهم موسم الحج ، وكان النبى «ﷺ» يدعو العرب إلى الإسلام فى هذه المواسم ، فقال الوليد : إنه حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه فلا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : قل وأقمْ لنا رأياً نقول به ، قال : بل قولوا وأسمع ، قالوا نقول كاهن . قال : ما هو بكاهن ولقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه . قالوا : نقول مجنون ، قال : لقد رأينا الجنون وعرفناه . قالوا : نقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

وهكذا كانت مكة من الناحية الثقافية والعلمية بأن يقصدها العرب ، فما قبلت من شعرهم كان مقبولاً وما ردوه كان مردودا ، وأظننا نرى منزلة كهذه لا يبلغونها بدون قاعدة علمية ، وأظننا نرى أنهم قطعوا نحوها حقباً من الدهر لا تليق أبداً أن تكون متزامنة مع معرفتهم الحديثة بالكتابة ، أو

(١) ذكر الطبرى فى الجزء الثانى من (تاريخه) .

بعدها بثلاثة أو أربعة عقود وهو ما يرجح أنه الزمن الذى أقبل عليهم فيه علقمة إن نحن قدرناه أول مجلس تحكيم لهم ، وهذا الزمن يوافق الثلث الأول من القرن السادس الميلادى وهو ترجيح لظهور علقمة بن عَبَدَة . وعليه ترى أنه قريب العهد من الحقبة التى حددوا فيها قيام المعلم (بشر) بمهمته التعليمية ونزوله مكة وهى قبيل القرن السادس الميلادى ، فهل يليق أن يبلغ المكيّون تلك المنزلة فيما يدنو من نصف قرن ، ألا نظرت إلى قول الوليد : لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

ونخالُ لولا الإطالة لقال ووافره وكامله ورمله إلى آخره من بحور الشعر وضروبه ، ونخالُ لو كانت هناك ضرورة لذكر غيره من علوم العربية لذكرت فقد كانت متداولة [١] .

ثوابت النفى والجيل الثالث والرابع

رأينا ثوابت النفى لحداثة الكتابة الشمالية فى مكة والآن نبيّن ثوابت النفى لقلة هذه الكتابة فيهم.

بدا لنا ن مكة كانت مقصداً دينياً ومقصداً ثقافياً والتماس قوة وعزة ، وفى هذا يقول أحد أبناء قصى وهو أبو سفيان بن حرب :

أبا مطر هلمَّ إلى صلاح [٢] ليكفيك الندامى من قريش
وتنزل بلدة عزَّتْ قديماً وتأمن أن ينالك ربُّ جيش

ثم نرى مكة فى ظل هذين الجيلين أصبحت مركزاً اقتصادياً هائلاً وبلغ أهلها من الغنى والترف بأن كان منهم من يشربون فى كئوس من ذهب ويأكلون فى صحاف من ذهب ، [٣] وتبلغ أعداد عبيدهم ومواليهم وأحلافهم بأن كانت لهم أحياء بظواهر مكة ، وفاقت المملكتين الغربيتين فى هذا ، بل إن العرب كانوا يرون منزلة أغنياء القريشيين كمنزلة قيصر وكسرى ، ويصور الشاعر أحدهم قائلاً :

يوم ابن جُدْعان بجنب الحزورة كأنه قيصر أو ذو الدَّسكرة

كل ذلك بلغوه بفضل التجارة التى صارت زمامها بأيديهم وهيأتها الظروف ، وبفضل

(١) سيأتى حديث فيه بموضع قادم .
(٢) كانوا يطلقون على مكة (صلاح) .
(٣) ابن دريد فى (الاشتقاق) .

الضرائب والإتاوات ، ثم سوق المال الذى عرف طريقه نحوهم مع النهضة التجارية الكبرى واتخذ له مركزاً لديهم . ودون هذا كله الجانب الدينى والثقافى ، ونحسب أن تلك الأمور تجعل مكة تفتقر دائماً إلى الأيدى العاملة ، والأيدى العاملة هنالك ليست هى التى تعنى بالإبل وتقوم بما يشبه هذه الأعمال ؛ إنما الأيدى الكاتبة التى تسجل دواعى التجارة والضرائب وسبل الصرافة التى لا تقل كثيراً عن السبل المعاصرة ، ثم إن تعاملهم التجارى لم يكن حاضراً كله ؛ إنما فيه التأخير الكلى والجزئى وكان فيه ما لم يعد يلائم عصرنا ، مثل تجارة الرقيق . وما كان يفوتهم فوائد التأخير الكلى والجزئى ، وقد ورد فى كتب الأخبار والسيَر كتابتهم للدين ، مثل الكتاب الذى ذكر توًا فى (الفهرست) والذى يذكر بأنه كان فى خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب فيه حق له على فلان بن فلان الحميرى من أهل زل صنعاء . وورد فى سيرة أسماء بنت مخربة بن جندل جدة الشاعر عمر بن أبى ربيعة ، إذ تحكى الرُّبيِّع بنت معوذ بن عفراء عنها قائلة : دخلت فى نسوة من الأنصار على أسماء فى زمن عمر بن الخطاب (ر) وكان ابنها عبد الله يبعث إليها بعطر من اليمن، وكانت تبيعه إلى (الأعطية) فكنا نشترى منها ، فلما جعلت لى فى قواريرى ووزنت لى كما وزنت لصواحبى قالت : اكتبن لى عليكن حقى ، فقلت : نعم أكتب ... فهذه تاجرة قريشية فارقت مكة إلى المدينة وفارقت عهداً إلى عهد ولم تفارق أصول التعامل التجارى وأهمه تدوين الدين لأصالة الأمر فيهم وأثره فى تعاملهم حتى ورد فى أشعارهم وأشعار العرب عموماً ، يقول أبو ذؤيب الهذيلى الحجازى يصف كاتباً :

أدان وأنبـــــــــاه الأولـو ... ن أنّ المـدان المـمـلـى الـوفـىُّ

فنمنمـــهم فـى صـحـف كـالـربا ... ط فـيـــهن ررث كـتـاب مـــحىُّ

وقال علياء بن أرقم بن عوف :

أخـذت لـدين مطمـئن صـحـيـفـة ... وخـالـفت فـيــهـا كل جـارٍ أو ظلم

ألا نظرت إلى هذا ورأيت مُراد كتابة الدين لا يختلف عن مراده اليوم . ويؤكد هذا القرآن العظيم فى كبرى آياته (آية الدين) وسورة هى أكبر سوره (البقرة) : " يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ إلى أجل مسمىً فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله . فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً . فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملَّ هو فليُملل وليُّه بالعدل . واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ؛ أن تضل إحداهما فتذكر

إحداهما الأخرى ولايأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم" .

وكان هناك أمر أدعى للمسجلات وهو توظيف الأموال ، تلك التى كان يبعث بها أغنياء العرب ومن دونهم لاستثمارها لدى أرباب التجارة القريشيين ، ومنهم من كان يبعث بما عنده من سلع أو رقيق أو حُلى ، وما كان هذا الأمر مقصوراً على الرجال دون النساء ؛ إنما كان النساء يفعلن هذا أيضاً على نحو ما رأينا فى سيرة السيدة (خديجة بنت خويلد) (ر) وكان يستطيع فعله كل من يقدر عليه . انظر إلى قول أحد القريشيين إذ هو يستحثهم على الخروج لمحاربة المسلمين قبيل بدر : يا معشر قريش إنه والله ما نزل بكم أمر أجلّ من هذا أن تستباح عيركم ولطيمة قريش التى فيها أموالكم وحرائبكم ، والله ما أعلم رجلاً ولا امرأة من بنى عبد مناف له نش فصاعداً إلاّ فى هذه العير .

ألا تأملت قوله (نش فصاعداً إلاّ فى هذه العير) أى أن كل أموالكم بضاعة تحملها هذه العير . وأوضح لك الأمر أكثر فأُعرّف إليك (النش) ، النش هو عملة صغيرة كانوا يستعملونها حينئذ وهى أصغر عملة لديهم ، وكان الدرهم يساوى عشرين نشاً .

وتخصيص طعيمة بن عدى لبنى عبد مناف ههنا لا يعنى أنهم وحدهم الذين لهم القليل والكثير بهذه البضاعة التى ظنوا أن المسلمين استولوا عليها ، فقد كانت التجارة فى قريش وفى غيرهم إنما هو خصهم لأنهم رهط النبى ﴿ﷺ﴾ ولعله خاف أن يقعدوا عن النهوض لحربه فذكرهم بهذه البضاعة التى كل أموالهم فيه حتى النش .

ونحن لا يمكن أن نتصور قيام هذا الأمر بدون تسجيل كتابى يعرّف المودعين ويحدد ما أودعوه ، ثم ينبغى علينا ألا ننسى أمراً مهما هنا ، وهو الزمن الذى يكون بين أخذ المال واسترداده سائباً كان أو بضاعة ، فنحن نعلم أن أمر الخروج للتجارة كان يستغرق شهوراً عندهم ، وقد تظل الوديعة لحول كامل ؛ حتى تتم الرحلتان القريشيتان (رحلة الشتاء ورحلة الصيف) . فهل نتصور قيام كل هذا بدون تسجيل كتابىٍّ ؟ وبما بلغ القريشيون من ثراء وترف وبما وسعت بلدهم بكل شئون المال على النحو الذى رأيت فكان لزاماً عليهم اتخاذ الكتبة ، ولعل هذا أغرى كثيراً من العرب ومنهم لأن يعلموا أبناءهم وأنفسهم ؛ ليلحقوا بالوظائف الكتابية لدى القريشيين .

وقد بدا لنا أن المستضعفين كان فى استطاعتهم هذا، وذلك مما رأينا فى سيرة (عمار بن ياسر) (ر) بأنه كان يكتب ويقرأ وارتقى إلى إمارة مصر من أكبر الأمصار الإسلامية وهو (الكوفة)، وعلى نحو ما رأينا من سيرة (عبد الله بن مسعود) (ر) الذى ارتقى ليكون صاحب بيت مال هذا المصر.

ومثل (خباب بن الأرت) (ر) الذى أول ما يطالعنا فى سرية إسلام (عمر بن الخطاب) (ر) أن سببه خباب وصحيفته التى كان يُقرئ منها فاطمة أخت عمر وزوجها .

ومثل أبى بصير مولى أزهر بن عوف الذى كتب إليه النبى«ﷺ»، فقرأ رسالته وهو على فراش الموت[1] .

ومثل أبي موسي الأشعري (ر) ، ومثل أبي رافع مولي النبي «ﷺ» الذى قيل إن ابنه عبيد كتب (لعلى بن أبى طالب) (ر) ، وغير هؤلاء من المستضعفين الذين حفظ لنا التاريخ أسماءهم ؛ لكونهم شاركوا فى الأحداث الإسلامية ، ونحسب أنه أسقط أسماء مئات من الكتبة الذين لم يشاركوا ولم يقحموا أنفسهم فى الأحداث الإسلامية الكبرى حتى مقتل الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) (ر) ثم مقتل الخليفة الرابع (على بن أبى طالب) (ر) مثلما كان من هؤلاء .

يؤكد هذا قول المسعودى الذى يذكر [2] أنه أسقط أسماء كثيرين من الكتبة ؛ لأنهم غير جديرين بأن يسجل أسماءهم مع الذين سجلهم لكونهم لم يزيدوا فى كتابتهم للنبى «ﷺ» على ثلاثة كتب .

وتلك نظرة المسعودى ورؤيته ، لكن هؤلاء الذين لم يعرهم اهتماماً كتبوا بلا شك فى أمور شتى مما تتطلبه حوائج مكة ، لكنهم لم يواصلوا الكتابة مع الرسول «ﷺ» ؛ لظروف لا نعلمها ، ولعلها كانت كثرتهم حوله - كما سترى لاحقاً - وأولئك وصلت أسماؤهم إلى المسعودى المتوفى سنة ٣٤٥ هـ فأسقطها فما بالك بالذين لم تصل إليه أسماؤهم أصلاً .

ثوابت النفى وأثر الكتابة فى الجيل الرابع والخامس

لم تكن القراءة والكتابة عند المكيين لدواعى التجارة وحسب ؛ إنما كانت ذات أهمية فى سائر شئونهم اليومية وكانوا يجلونها ويهابونها ، وذلك يبدو لنا من خلال أمور منها الرؤيا التى تراءت لعاتكة بنت عبد المطلب ، وتهديد عمرو بن هشام لأخيها العباس لأن لم تصدق هذه الرويا ليكتبن

(١) سأذكر هؤلاء فى موضع قادم .
(٢) فى كتابه (التنبيه والإشراف) .

فيهم كتاباً أنهم أكذب بيت فى العرب ، وأصل هذه الحكاية أن عاتكة قبل مجيء ضمضم [١] لمكة بثلاث ليال رأت فى منامها رؤيا أفـزعتها ، فبعثت إلى أخيها العـباس فقالت له : يا أخى والله لقد رأيت الليلةَ رؤيا أفزعتنى وتخوفت أن يـدخل على قومك منها شر ومصيبة فـاكتم منى ما أحدثك به . فقـال : وما رأيت ، قـالت : رأيت راكبـاً أقبل على بعـير له حتى وقف بالأبـطح ثم صرخ ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث ، فأرى الناس اجتمـعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه وفيما هم حوله مَثُلَ به بعير على ظهـر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم فى ثلاث ، ثم مثل به بعير على رأس جـبل أبى قبيس ، فصرخ بمثلها ثم أخذ صخـرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى كانت أسفل الجبل فأفضت فما بقى بيوت من بيوت مكة ولا دار إلاّ دخلتها منه فلقة ، قال العباس : اكتمـيها ولا تذكريها لأحد ، ثم خرج فلقى الوليد بن عقبـة وكان صديقاً له فذكرها على مسمـعه واستكتمه إيّاها ، لكن الوليد لم يكتـمها هو الآخر وذاعت حتى بلغت مـسمع عمرو بن هشام ، فلمـا لقى العباس قال له : يا بنى عـبد المطلب متى حدثت فـيكم النبيئة ؟ قـال العباس كأنه لا يعلم : ومـا ذاك ، قال عمـرو : يا بنى عبد المطلب أمـا رضيتم بأن يـتنبأ رجالكم حـتى تتنبأ نساؤكم قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنها قالت : انفروا فى ثلاث ، فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن كانت ما قالت كذباً سنكتب [٢] كتاباً بأنكم أكذب بيت فى العرب .

وتذكر الرواية أن العبـاس بعد أن سمع منه هذا لبث قلقاً خائفاً ألا تصـدق الرؤيا ويُكتب فيهم هذا الكتاب .

تُرى لو لم يكن للكتابة الانتشار الكبير والأثر العظيم كان خافها العباس هكذا أو كان لوّح بها عمرو أصلاً ؟

وأهمية الكـتابة ونشرها على الكعبـة ليس مستحدثاً فى عـصر النبى ﴿ﷺ﴾ بل هو قديم ، ففى سيرة جده عـبد المطلب يروى الطبرى : أن نوفل بن عبد مناف عمه وهـو آخر من بقى من بنى عبد مناف ظلم ابن أخيه على أركاح (ساحات) وكـانت أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو النجارية من الخزرج ، فتنصف عبد المطلب عمَّه فلم ينصفه ، فكتب إلى أخواله بيثرب يقول :

يا طول لـيلى لأحـزانى وأشـغـالى   هل من رسول إلى النجـار أخوالى [٣]

---

(١) هو (ضمضم الغفارى) الذى بعث به أبو سفيان يستنفر قريـشاً إذ علم أن المسلمين سيعترضون طريقة ويستولون على البضاعة التى فى معيته ، وذلك قبل معركة بدر .

(٢) تجدها فى الجزء الأول من (سيرة ابن هشام)، وفى الجزء الثانى من (الكامل) لابن الأثير وفى الجزء الخامس من (الأغانى) .

(٣) بقية القصيدة تجدها مع هذه القصة بالجزء الثانى من (تاريخ الطبرى) .

ولما بلغت القصيدة بنى النجار قدم عليه ثمانون راكباً ، فأناخوا بفناء الكعبة ولما رأوا نوفل بادروه بقولهم : أيها الرجل أنصف ابن أختنا فى ظلامته ، فقال : أفعل بالحب والكرامة ورد عليه الأركاح ونصفه .

ولما انصرف بنو النجار إلى بلدهم ، دعا عبد المطلب رجالات من خزاعة وتحالف معهم وكتبوا بهذا صحيفة وعلقوها على جدار الكعبة .

والأمر أبعد عهداً من كتاب الخزاعيين وعبد المطلب وأبعد أثراً أيضاً ، فقد كان ضمن الصور المعلقة على جدار الكعبة صورة للنبى إبراهيم «ﷺ» وفى يده مجموعة من الأقداح مكتوب على جزء منها (افعل) وعلى آخر (لا تفعل) ، وكانوا إذا ما أقبلوا على أمر مصيرى كالحرب والزواج والسفر يأتون بتلك الأقداح ، ويضعونها فى وعاء ، ويحركون الوعاء تحريكاً يجعل هذه الأقداح ، تختلط ، ثم يمد المعنىُ يده فيتناول واحداً منها ، فإذا كان مكتوباً عليه (افعل) فعل ، وإذا كان مكتوباً عليه ألا تفعل ، قعد .

وهذا أمر قد نراه ساذجاً ، لكنه رغم سذاجته يبدى لنا شيئاً يعنينا هنا وهو أن الكتابة كانت هى الأسرع إلى خواطرهم وأيديهم ، وهذا شأن الكتبة ، ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت هناك أمور كثيرة وهى تلاءم الكتبة وغيرهم كلونين مختلفين مثلاً (أخضر) و(أحمر) امضِ ، توقف .

ومن تلك الأمور (صحيفة المقاطعة) التى علقت على الكعبة ، وهى الصحيفة التى وافق على صياغتها كثير من القريشيين ، ومضمونها كما نعلم مقاطعتهم لبنى هاشم وعبد المطلب ، فهذا أمر هام يريدون أن يجنوا أثره ونتاجه سريعاً وكذلك يريدون أن يكون هذا الأثر والنتاج عظيماً فما وجدوا غير الصحف ليبلغوا بها هذا وما كان للصحف حينئذ إلاّ التعليق فعلقوها على أهم موضع يقصده أهل مكة والعرب .

وكان ثمة موضع تعليق آخر تعلق عليه الصحف وهو المجلس التشريعى أو مجلس الشيوخ ، ففى (طبقات فحول الشعراء) يقول ابن سلام عند الحديث عن عبد الله الزِّ بعرى : أصبح الناس يومًا بمكة وعلى دار الندوة مكتوب :

ألهى قُصيًّـا عن المجد الأساطير ورشوة مثل ما ترشى السفاسير[1]

وأكلها اللحم لا خليط له وقولها رحلت عير أتت عيرُ

(١) (السفاسير) جمع سفسير ، والسفير هو السمسار .

وربما كانت الصحف تعلق بأماكن أخرى كثيرة لكنها دون هذين المكانين فى الأهمية فسقط ذكرها.

اتخاذ الكتابة فى جميع الأغراض

إن الدارس ، وربما القارئ ، لحياة العرب قبل الإسلام وصدره باعتباره فترة اتصالية سوف يجد أن المكيين والعرب استخدموا الكتابة فى جميع الأغراض التى تحتاج إلى تدوين ، مثل المعاهدات وما يدخل فى حيزها ، ومثل الهبة والجوائز والأوقاف والتصدق والرسائل المختلفة ، ومثل تنظيم المياه بينهم والدور وحصر الزروع على الأشجار والأرض ، وبعد جنيها ، وكتابة المغانم على أنواعها . وستبدو لنا أخبار العرب فى هذا الشأن من خلال تعاملهم مع القريشيين الذين حازوا على كل اهتمام كتاب السير والأخبار .

المعاهدات

منها التى ذكرتها آنفاً بين هاشم بن عبد مناف وقيصر الروم ، ثم المعاهدات التى تلتها بين أخويه ومن خرجا إليهم ، والمعاهدة التى كتبها النبى «ﷺ» بعد نزوله يثرب والتى كانت بين المهاجرين والأنصار من جانب وبينهم وبين اليهود من جانب آخر ، ومعاهدة كتبها النبى «ﷺ» مع بنى ثعلبة الغسانيين ، وأخرى كتبها مع اليهود بعد أن اغتال المسلمون كعباً بن الأشرف .

ومن هذه المعاهدات ما شملت الحلف والمناصرة على نحو ما رأينا من حلف عبد المطلب ورجالات خزاعة والذى أنشد فيه عبد المطلب يقول :

سأوصى زبيراً [1] إن توافت منيتى ... بإمساك ما بينى وبين بنى عمرو
أن يحفظ الحلف الذى سنّه شيخه ... ولا يلحدون فيه بظلم ولا غدر

ومثلها معاهدة حلف ذى المجاز الذى يشيد به الحارث بن حلزة قائلاً :

واذكر حلف ذى المجاز وما ... قُدِّمَ فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدى ، وهل ينـ ... قص ما فى المهارق [2] الأهواء

***

(١) (الزبير) ابنه .

(٢) المهارق جمع (مهرق) والمهرق صفحة كانوا يكتبون فيها ولى فيه حديث قادم ، ويعنى الحارث أنهم دونوا ما تعاهدوا عليه ، ولك زن تتأمل هذين البيتين لترى أهمية الكتابة عندهم .

ومنه حلف الرسول «ﷺ» مع نعيم بن مسعود .

وشملت المعاهدات صيغة الحفاظ على الأموال والأملاك ، وهذه الصيغة تكون بين اثنين وأكثر، وتعقد بين مقيمين ببلد واحد ومقيمين ببلدين متباعدين . كما رُوى عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال : كاتبت أُمية بن خلف كتاباً يحفظنى فى صياغتى بمكة وأحفظه فى صياغته بالمدنية .

وشملت المعاهدات الموادعة والمهادنة . منها ما جاء فى ذكر أول غزوة غزاها الرسول «ﷺ» وهى (غزوة الأبواء) أنه وادع مخشى بن عمرو الضمرى زعيم بنى ضمرة ألا يغزو المدينة ولا يكثر عليه جمعاً ولا يعين عدداً ، وكتب وإيّاه كتاباً بهذا .

ومنها هدنة (الحديبية) وهى معروفة .

وشملت المعاهدات كتب الأمان التى كانت تكتب للأفراد والجماعات ، مثل كتاب سراقة بن مالك الذى خرج متعقباً الرسول «ﷺ» وصاحبه (ر) حين خرجا مهاجرين ؛ وذلك لما علم أن قريشاً رصدت مائة ناقة لمن يردهما أو يرد الرسول «ﷺ» ، يقول ابن هشام فى السيرة : لما كبا بسراقة فرسه مرات وأدرك أنه غير بالغ النبى «ﷺ» وصاحبه (ر) نادى ، فقال النبى لأبى بكر : انظر ماذا يبغى منا ، فلما سأله أبو بكر ، قال سراقة : تكتب لى كتاباً يكون بينى وبينك ، فقال الرسول «ﷺ» : اكتب له يا أبا بكر .

ومنه ما كتبه النبى «ﷺ» لمطرف بن الكاهن الباهلى حين وفد عليه على رأس وفد باهلة وكان الكتاب لباهلة عموماً .

ومنه ما كتبه «ﷺ» لأعرابى من بنى زهير بن أُقيش وهم حى من عُكل .

ومنه ما كتبه «ﷺ» ليهود بنى عاديا من تيماء .

وقريب من هذا ما كتبه «ﷺ» ليوحنا رؤبة صاحب (أيْلة) أو أسقفها بأن يُحفظوا ويُمنعوا ، لكن بعد أن اشترط عليهم الجزية وقرى من يمر بهم من المسلمين .

وقريب من هذا (المكاتبة) ، والمكاتبة غالبها كان بين اثنين سيد ومسود ، والمسود إما كان عبداً أو أسير حرب ، وقد جاء فى ذكر إسلام سلمان الفارسى أنه كاتب على غرس خمسمائة فسيلة . وفى موضع آخر أنه كاتب على ثلاثمائة ودية عالقة وأربعين أوقية ذهب ، وقد عاونه المسلمون فى أدائها .

وكانت المكاتبة تعقد بين الرجال وبينهم وبين النساء ، وكذلك يتعاقد النساء بينهن ، ففى ذكر

السيدة جويرية بنت أبى ضرار زعيم بنى المصطلق ، وزوج النبى «ﷺ» فيما بعد أنها كانت ضمن سبايا بنى المصطلق ووقعت فى سهم ثابت بن قيس (ر) فكاتبته على الفداء .

وفى ذكر السيدة أم سلمة (ر) زوج الرسول «ﷺ» يقول مولاها أبو نبهان (وكان مكاتباً لها) : إنها قالت له يا أبا يحيى عندك ما فضل من كتابتك ، قلت نعم ، قالت فادفعه إلى ابن أختى فقد أعنته به فى نكاحه ، قال : فبكيت وقلت لا أدفعه إليه أبداً ، فقالت : إن كان بك أن ترانى فلا ترانى فإن رسول الله «ﷺ» قال : إذا كان عبدٌ مكاتب إحداكن ما بقى عليه من كتابته فاحتجبن منه .

وعن سعيد بن سلم وعُتيم بن نسطامى : أن سالم سبلان أخبرهم أنه كان مكاتباً لرجل من بنى نصر وكان يرحل بأزواج النبى «ﷺ» ولا يحتجبن منه ، وكن لا يحتجبن عن المملوكين المكاتبين ، فرذا أعتقن احتجبن[1] .

ولعلنا نرى المعاهدات تشمل كتابة (الدين) لأن المدين يتعهد بأداء ما عليه من دين وقد مرّ بك ذكر هذا توآ .

الأوقاف والتصدق

كتبوا فى الأوقاف والتصدق ، فقد جاء فى ذكر [2] دارة الأرقم بن أبى الأرقم التى نزل بها الرسول «ﷺ» ، أن أبا يحيى حفيد عثمان بن الأرقم قال : دعيت دار الأرقم دار الإسلام وتصدق بها الأرقم على ولده فقرأت نسخة كتابته التى كتبها : (بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما قضى عليه الأرقم فى ربعه ما حاز الصفا أنها محرمة بمكانها من الحرم لا تباع ولا تورث ، شهد هشام بن أبى العاص وفلان مولى هشام) . ولم تزل هذه الدارة صدقة قائمة حتى كان زمن أبى جعفر المنصور .

الوصية والإقطاع

جاء فى ذكر [3] أبى ضميرة مولى الرسول «ﷺ» وهو فارسى الأصل أن النبى «ﷺ» كتب له

(١) ذكر هذا فى (سيرة ابن هشام) الجزء الثانى وفى (الطبقات الكبرى) لابن سعد الجزء الخامس والثامن وفى تفسير القرطبى باب فى هذا الموضوع بالجزء الثانى عشر ، وله عليه شرح مطول أورد فيه ما جاء من أحاديث وآيات ، وما يعنيه لفظ المكاتبة لغوياً واصطلاحياً . فإن كان يعنيك الأمر فارجع إليه .

(٢) (الطبقات الكبرى) جزء (٣) .

(٣) المرجع السابق .

كتاباً بالوصية ، وبقى عنده ، ثم بقى عند ولده إلى زمن المهدى فقدم عليه به الحسين بن عبد الله بن أبى ضميرة فأخذه ووصله بثلاثمائة دينار .

وكتب النبى «ﷺ» بالوصية لوفد الرُّهاويين وهو حى من مذحج ، وأوصى لهم فيه بحاد مائة وسق بخيبر .

وكتب لثور بن عروة بن عبد الله القشيرى قطيعة حين وفد عليه على رأس وفد قشير .

وكتب لزيد الخيل بإقطاعه فيد وأراضين .

وسأله رجل شيبانى أن يقطعه أرض الدهناء ، لا يجاوزها من بنى تميم أحد إلا مسافراً أو مجاوزاً ، فقال النبى «ﷺ» لكاتب بين يديه : اكتب له يا غلام ، وهنالك انبرت امرأة تميمية كانت فى صحبة الشيبانى وقالت : يا رسول الله إنه لم يسألك السوية إذ سألك ، إنما الدهناء عندك مقيدك الجمل ومرعى الغنم ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك ، فقال النبى «ﷺ» لما سمع منها هذا :

أمسك يا غلام . (أى لا تكتب)

رسائل البريد

وكتبوا رسائل البريد ، لكن لم يبد لنا أن العمل به كان نظامياً حينئذ ، أى لم يذكر له ديوان ولا أناس كانوا عليه . وإن كان ذكر البريد والرسالة وردا [1] فى موضع واحد ، ورأينا أقدم هذه الرسائل رسالة قصى الذى استنصر فيها أخاه والقضاعيين ، ومثلها رسالة حفيده عبد المطلب التى بعث بها لأخواله بيثرب ..

ومن الرسائل العادية رسالة حنظلة بن أبى سفيان إلى أبيه حيث كان بنجران ومعه العباس بن عبد المطلب وكتب فيها يبلغه بقيام النبى «ﷺ» بدعوته .

ورسالة الوليد بن الوليد لأخيه خالد ، وكان خالد خرج كارهاً لقاء النبى «ﷺ» وأصحابه (ر)، لكن النبى «ﷺ» سأل عنه الوليد وقال : لو أتانا لأكرمناه وما مثله سقط عليه الإسلام عقله ، فكتب الوليد بهذا لخالد ، فوقع الإسلام فى قلبه .

ويدخل فى حيز الرسائل . رسائل النبى «ﷺ» إلى الملوك والأمراء وزعماء القبائل يدعوهم إلى الإسلام .

---

(١) سأعاود ذكرهما فى موضع قادم .

ومن الرسائل ، رسائل التحذير . كرسالة حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يحذرهم فيها خروج الرسول «ﷺ» على رأس جيش كبير قاصداً مكة .

ومثلها رسالة بُجير بن زهير بن أبى سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يحذره فيها ويدعوه ليقدم على النبى معتذراً .

وقريب من هذا الرسائل التى كان يبعث بها العباس عم النبى إلى الرسول «ﷺ» يعلمه فيها أخبار القريشيين المعادين له ، يقول ابن سعد فى (طبقاته) أسلم العباس بمكة قبل بدر وأسلمت أم الفضل معه حينئذ وكان سبب مقامه بمكة أنه [1] لا يُغبى على النبى بمكة خبرا .

وكانت هناك الرسائل التى كان النبى «ﷺ» يتلقاها من عماله على البلاد التى خضعت له ، مثل الرسائل التى بعث بها عماله على اليمنيات وكان أكثرها فى أمر الأسود العنسى ، ورد الرسول «ﷺ» برسالة تقول : اقتلوه مصادمة أو اغتيالاً [2] .

ومثل ما جاء فى سرية (مؤتة) حين بلغ المسلمون (معان) ونزلوا بها ثم جاءتهم الأخبار أن هرقل نزل (مآب) فى مائة ألف من جذام وبهراء ولخم ، فأقام المسلمون ليلتين لينظروا أمرهم ، ثم اتفقوا [3] أن يكتبوا إلى النبى «ﷺ» ليخبروه بهذا ..

أما بقية هذه الأمور فأنقلها عن الجهشيارى حيث يقول فى كتابه (الوزراء والكتاب) : هذه أسماء من ثبت على كتابة رسول الله «ﷺ» . على بن أبى طالب وعثمان بن عفان كانا يكتبان الوحى ، فإن غابا كتبه أبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان يكتبان بين يديه فى حوائجه ، والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس المداينات وسائر العقود ، وكان عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم فى مياههم وقبائلهم وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء ، وكان معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى يكتب مغانم الرسول «ﷺ» ، وكان حنظلة بن الربيع ابن أخى أكثم بن صيفى الأسيدى خليفة كل كاتب من كتّاب النبى «ﷺ» .

وأغفل الجهشيارى أو لم تصل إليه أسماء نفر ذكرهم المسعودى عند تناوله هذا الموضوع ، وأولئك النفر : الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت وكانا يكتبان أموال الصدقات ، وحذيفة بن

(١) تجده فى ذكر إسلام العباس بن عبد المطلب ، الجزء الرابع .
(٢) ذكرها ابن الأثير فى الجزء الثانى من كتابه (الكامل) .
(٣) نفس المرجع .

اليمان يكتب خرص [1] الحجاز .

وينوه إلى علم زيد بن ثابت ، فيقول : وكان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك ويجيب فى حضرة النبى ﴿ﷺ﴾ ويترجم له بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية وقد تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن ، وكتب له عبد الله بن سعد بن أبى سرح ثم لحق بالمشركين مرتداً ، وكتب له شرحبيل بن حسنة الطابخى حليف قريش ، وكان إبان بن سعيد والعلاء الحضرمى يكتبان بين يديه . ويختتم المسعودى هذا الفصل بقوله : إنما ذكرنا من أسماء كتّابه من ثبت [2] على كتابته واتصلت أيامه فيها وطالت مدته . أى أنه أسقط ذكر كثيرين لم يكونوا ممن كتبوا أكثر من ثلاثة مكاتيب بين يدى النبى ﴿ﷺ﴾ ، ويصدق هذا ما رأيناه فى قوله : اكتب له يا غلام ، وأمسك يا غلام ، حين أراد حريث بن حسان الشيبانى أن يقطعه النبى ﴿ﷺ﴾ أرض الدهنان ، فلا يليق أن يقول الرسول ﴿ﷺ﴾ لأحد أصحابه الكتبة : اكتب يا غلام وأمسك يا غلام ، وقد يكون هؤلاء الغلمان الذين يكتبون بين يديه جزءاً من مجموع ما أسقطهم المسعودى ولم يلتفت أو بشر إليهم الجهشيارى إن كانت بلغتهما جملة أسمائهم وكلاهما من معاصرى القرن الرابع الهجرى .

ألا رأيت كثرة الكتبة حول الرسول ﴿ﷺ﴾ حتى كان لكل واحد منهم اختصاص ، وكانوا درجات ومنهم من يكتبون الوحى ومنهم يكتبون إلى الملوك الأجانب بلغتهم ويترجمون فى حضرته ، وذكر أن من هؤلاء من كان يتقن أربع لغات أجنبية ، ومنهم من يكتبون فيما يعرض من أموره وحوائجه ، ومنهم من يكتبون بين الناس المداينات ومختلف العقود والمعاملات ، ومنهم من يكتبون أموال الصدقات ، ومنهم من يكتبون الزروع والثمار ومنهم من يكتبون بين الناس فى مياههم وقبائلهم ودورهم ومنهم من يكتبون بين الناس فى مياههم وقبائلهم ودورهم ومنهم من يكتبون المغانم ، ومنهم من يكتبون الأخماس [3] ومنهم من كانوا يخرجون برسائله إلى الملوك والأمراء الأجانب والعرب وهم يتكلمون [4] لغتهم ، وغير هؤلاء وأولئك كان هناك كثيرون كتبوا بين يديه فأسقط ذكرهم لأنهم لم يداوموا الكتابة معه ، وإذا كنا رأينا كل هؤلاء حول شخص واحد ، وإن كان عظيماً ، فما بالك بأعدادهم ككل ، وما نحسب أن جميع كتّاب مكة أسلموا وما

---

(١) (الخرص) الثمار وهى لا تزال على الأشجار والنخيل .

(٢) أحسبك تتأكد هنا إلى ما أشرت إليه آنفاً .

(٣) لم يذكر المسعودى ولا الجهشيارى كتابة الأخماس بيد أنى لقيته أثناء بحثى عن الكتبة المكيين واليثربيين وسأذكره وسأذكر المرجع فى موضع قادم .

(٤) ذكر هذا ابن سعد وابن الأثير وستلقاه توآ .

نحسب أنهم جميعاً هاجروا إلى المدينة ليكونوا دون النبى «ﷺ» .

فهل هذا شأن من كانت الكتابة فيهم قليلة . ولكى ترى مزيداً وعظيماً من الأثر الكتابى وأهميته فيهم وفى العرب بما لا يدع شكاً بأن الكتابة كانت شائعة بينهم أقدم إليك جملة ما كتبه النبى «ﷺ» إلى الملوك والأمراء العرب والأجانب وما كتبه لزعماء البلاد والقبائل العربية وغيرهم وما كتبه للوفود التى وفدت عليه ، ثم أقدم إليك جملة ما جاء فى القرآن العظيم من ذكر القراءة والكتابة ، ثم الجانب الأكبر مما تكاتب به الصحابة حتى وفاة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ●

- ٥ -

جملة ما كتبه النبى «ﷺ»

يذكر ابن سعد فى (طبقاته) فى باب ذكر بعثة النبى «ﷺ» الرسل بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وكتبه للعرب وغيرهم يقول : لما رجع النبى «ﷺ» من الحديبية فى ذى الحجة سنة ست أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وكتب إليهم كُتباً ، فقيل له : إن الملوك لا يقرءون كتاباً إلاّ مختوماً ، فاتخذ النبى «ﷺ» يومئذ خاتماً من فضة فصه منه ونقشه ثلاثة أسطر (محمد رسول الله) وختم به الكتب ، فخرج ستة نفر منهم فى يوم واحد ، وذلك فى المحرم سنة سبع ، وأصبح كل رجل منهم **يتكلم** بلسان القوم الذين بعثه إليهم ، فكان أول رسول بعثه النبى «ﷺ» عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى **وكتب إليه كتابين** .

وبعث دحية بن خليفة الكلبى . وهو أحد الستة إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام **وكتب** معه كتاباً.

وبعث عبد الله بن حذافة السهمى وهو أحد الستة إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام **وكتب** معه كتاباً.

وبعث شجاع بن وهب الأسدى وهو أحد الستة إلى الحارث بن أبى شمر [١] يدعوه إلى الإسلام **وكتب** معه كتاباً ، قال شجاع فأتيت إليه بغوطة دمشق وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطاف لقيصر ، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه : إنى رسول رسول الله إليه ، فقال : لا تصل إليه حتى يخرج فى يوم كذا وكذا وجعل حاجبه يسألنى (وكان رومياً اسمه مُرى) عن رسول الله «ﷺ» وما يدعو إليه ، فكنت أحدثه عن صفته وما يدعو إليه ، فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول : إنى قرأت الإنجيل فأجد صفة هذا النبى بعينه فأنا أؤمن به وأصدقه وأخاف من الحارث أن يقتلنى ، وكان يكرمنى ويحسن إلىّ ، وخرج الحارث يوماً فجلس ووضع التاج على

---

(١) اعلم أن الرسائل التى سأذكر مضمونها سيكون فيه أو فى طرف منه شىء تحدثت به أو سأتحدث ، والذى يعنينا فى هذه الرسالة هو قراءة الحارث لها ، ثم قراءة فروة بن عمرو وكتابته إلى النبى ، وكلّ من الرجلين كان عاملاً للروم ، وكلاهما يحيا حياة أقرب إلى الرومية ، لكن هذا لم ينل من عروبتهما والحرص على لغتها ، ولعلك تذكر حديثى عن هذا فى الفصل الذى عنى أثر غسان التعليمى . وسترى فى رسالة ملكى عُمان (عبد وجيفر) اللذين هما من أصل يمنى أنه لم يكن للكتابة اليمنية القديمة إلا الأثر الجانبى ، بل ستتأكد من هذا من خلال رسائل النبى إلى رؤساء اليمنيات وهى كثيرة .

رأسه ، فأذن لى عليه ، فدفعت إليه كتاب رسول الله «ﷺ» **فقرأه** ثم رمى به وقال : من ينتزع منى ملكى ، أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته ، علىّ بالناس ، فلم يزل يفرض حتى قام ، وأمر بالخيول تنعل ثم قال أخبر صاحبك ما ترى ، **وكتب** إلى قيصر يخبره خبره وما عزم عليه ، فكتب إليه قيصر : لا تسر إليه والهُ عنه ووافنى بإليا ، فلما جاءه جواب كتابه دعانى وقال : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ، فقلت : غداً ، فأمر لى بمائة مثقال ذهب ، كذلك وصلنى مُرى وأمر لى بنفقة وكسوة وقال أقرئ النبى السلام ، فقدمت على النبى «ﷺ» فأخبرته فقال : صدق مُرى ، ومات الحارث عام الفتح .

قالوا : وكان فروة بن عمرو الجذامى عاملاً لقيصر على (عَمان) من أرض البلقاء فلم يكتب إليه رسول الله ، فأسلم فروة وكتب إلى النبى بإسلامه وأهدى له وبعث من عنده رسولاً من قومه يقال مسعود بن سعد فقرأ رسول الله كتابه وأجاز مسعوداً بخمسمائه درهم .

قالوا وبعث سليط بن عمرو العامرى وهو أحد الستة إلى هوذة بن على يدعوه **وكتب** معه كتاباً، فقدم عليه فأنزله وحباه **وقرأ** كتاب النبى «ﷺ» ورد رداً دون رد **وكتب** إلى النبى : ما أحسن[1] ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك ، وأجاز سليط بن عمرو بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر ، فسقدم بهذا كله على النبى «ﷺ» وأخبره عنه بما قال ، وقرأ كتابه وقال : لو سألنى سيَابةً من الأرض ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه . قالوا وبعث رسول الله «ﷺ» عمرو بن العاص (ر) فى ذى القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابنىْ الجُنلدى ، وهما من الأزد ، والملك منهما جيفر ، يدعوهما إلى الإسلام ، **وكَتب** معه إليهما كتاباً وختمه ، قال عمرو : فلما قدمت عُمان عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسلمهما خلقاً ، فقلت إنى رسول رسول الله «ﷺ» إليك وإلى أخيك ، فقال : أخى أكبر منى والمقدم علىّ بالملك وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، فمكثت أياماً ببابه ، ثم دعانى فدخلت عليه ودفعت إليه الكتاب مختوماً ، ففضّ خاتمه **وقرأه** حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه **فقرأه** مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، فقال : دعنى يومى هذا وأرجع إلىّ غدا ، فلما كان الغد رجعت إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إذا ملكت رجلاً ما فى يدى ، قلت إنى خارج غداً ، فلما أيقن بمخرجى أصبح فأرسل إلى ، فدخلت عليه فأجاب الإسلام هو وأخوه وصدّقا بالنبى «ﷺ» وخليّا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فى الذى بينهم ، وكانا لى عوناً على من خالفنى ، فأخذت الصدقة من أغنيائهم ورددتها فى فقرائهم ، فلم أزل مقيماً فيهم

---

(١) (هوذة بن على) كان رئيس اليمامة حينئذ .

حتى بلغنا وفاة الرسول «ﷺ» ، وكان عمرو آخر الستة .

قالوا : وبعث رسول الله «ﷺ» العلاء الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين يدعوه إلى الإسلام **وكتب** إليه كتاباً ، **فكتب** إلى الرسول «ﷺ» بإسلامه وتصديقه ، وإنى **قرأت** كتابك على أهل هجر فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه ، وبأرض مجوس ويهود فأحْدِثْ إلىّ فى ذلك أمرك **فكتب** إليه النبى : إنك مهما تُصْلِح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية ، **وكتب** النبى إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام ، فإن أبوا أخذت منهم الجزية وبان لا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم ، وكان الرسول «ﷺ» بعث أبا هريرة مع العلاء بن الحضرمى ، **وكتب** النبى للعلاء فرائض الإبل والبقر والغنم والأموال ، **فقرأ** العلاء كتابه على الناس وأخذ صدقاتهم [1] .

وكتب إلى أهل اليمن كتابا ، **وكتب** إلى عدة من أهل اليمن ، منهم : الحارث بن عبد كُلال ، وشُريح بن عبد كُلال ، ونعيم بن عبد كُلال ، ونعمان قيل ذى يزن ، ومعافر ، وهمدان ، وزُرْعة .

وكتب إلى بنى عمرو من حمير **وكتب** إلى جبلة بن الأيهم ملك غسان يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم جبلة **وكتب** بإسلامه إلى النبى «ﷺ» .

وكتب إلى معدى كرب بن أبرهة . **وكتب** إلى أساقفة نجران ولبنى الحارث . **وكتب** لربيعة بن ذى مرحب الحضرمى وإخوته ، **وكتب** لمن أسلم من حَدَس ، ومن لخم ، **وكتب** لخالد بن ضماد الأزدى ، **وكتب** لعمرو بن حزم حيث بعثه إلى اليمن ، **وكتب** لنُعيم بن أوس أخى تميم ، **وكتب** للحصين بن أوس الأسلمى ، **وكتب** لقُروة ولبنى قُروة بن عبد الله بن أبى نجيح النبهانيّين ، **وكتب** لبنى الضباب من بنى الحارث بن كعب ، **وكتب** لبنى زياد بن الحارث الحارثيين ، **وكتب** ليزيد بن الطفيل الحارثى ، **وكتب** ليثى القنان بن ثعلبة من بنى الحارث ، **وكتب** ليزيد بن المحجل الحارثى ، **وكتب** لقيس بن الحصين ذى الغصة ، **وكتب** لبنى قنان بن يزيد الحارثيين ، **وكتب** لعاصم بن الحارث الحارثى ، **وكتب** لبنى معلوية بن جرول الطائيين ، **وكتب** لعامر بن الأسود بن عامر بن جويين الطائى، **وكتب** لبنى جويين الطائيين ، **وكتب** لبنى معن الطائيين ، **وكتب** لبنى أسد ، **وكتب** لجنادة الأزدى ، **وكتب** إلى سعد هُذيم من قضاعة ، **وكتب** لبنى زُرعة وبنى الربعة من جهينة .

وكتب لبنى جُعيل من بلس، وشهد العباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب، وعثمان بن عفان وأبو سفيان بن حرب، **وكتب** لأسلم من خزاعة، **وكتب** لعوسجة بن حرملة الجهينى، **وكتب**

(١) ذكرت مضمون هذه الرسائل لأنها موصولة عند ابن سعد ، أى موصول بها ذكر (كتب وقرأ) وهو ما يعنينا .

لبنى شنج من جهينة ، **وكتب** لبنى الجُرْمُز بن ربيعة وهم من جهينة، **وكتب** لعمرو بن معبد الجُهنى وبنى الحُرقة من جهينة وبنى الجُرْمُز، **وكتب** لبلال بن الحارث المزنى، **وكتب** لبُديل وبُسر وسروات بنى عمرو، وكتب للعدّاء بن خالد بن هوذة ومن تبعه من عامر بن عكرمة.

وكتب لمسيلمة ، وكتب إليه مسيلمة ، فعاوده النبى «ﷺ» بمكتوب ثان ، **وكتب** لسلمة بن مالك بن أبى عامر السلمى من بنى عامر من بنى حارثة ، **وكتب** للعباس بن مرداس السلمى ، **وكتب** لهوذة بن نُبيشة السلمى ، **وكتب** للأجب رجل من بنى سُليم ، **وكتب** لراشد بن عبد السلمى ، **وكتب** لحرام بن عبد عوف من بنى سليم ، **وكتب** لنُعيم بن مسعود بن رُخيلة ، **وكتب** لجميل بن رِزام العدوى ، **وكتب** لحصين بن نضلة الأسدى ، وكتب لبنى غفار ، **وكتب** لبنى ضمرة بن بكر ، **وكتب** إلى الهلال صاحب البحرين ، **وكتب** إلى إسْيبخت بن عبد الله صاحب هجر ، **وكتب** إلى أهل هجر ، **وكتب** إلى المنذر بن ساوى كتابين ، **وكتب** إلى العلاء الحضرمى كتابين ، **وكتب** إلى ضغاطر الأسقف ، **وكتب** إلى بنى جنبة وهم يهود بمَقْنا ، **وكتب** إلى أهل مقنا ، **وكتب** إلى يوحنا بن رؤبة وسَرَوات أهله أيْلة ، **وكتب** لجُماع كانوا فى جبل تهامة قد [1] غصبوا المارة من كنانة ، **وكتب** لبنى غاديا وهم قوم من يهود ، **وكتب** لبنى عريض يهود أيضاً ، **وكتب** لبنى زهير بن أُقيس حى من عُكْل ، **وكتب** إلى أبى ظَبْيان الأزدى من غامد ، **وكتب** لحبيب بن عمرو أخى بنى أجا ، **وكتب** للوليد بن جابر بن ظالم ، **وكتب** إلى سمعان بن عمرو بن قُريط القُرَنى ، **وكتب** إلى بكر بن وائل ، **وكتب** لشعير بن عدّاء ، **وكتب** إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كُلال من حمير : سِلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته ، قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى الله ثالث ثلاثة عيسى ابن الله ، وبعث هذا المكتوب مع عياش بن أبى ربيعة المخزومى وقال : إذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلاً حتى تصبح ثم تطهر فأحسن طهورك وصلِّ ركعتين وسل الله النجاح والقبول واستعذ بالله وخذ كتابى بيمينك وادفعه بيمينك فى أيمانهم ، فإنهم قابلون واقرأ عليهم : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) . فإذا فرغت منها فقل آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتيك حجة إلاّ دُحضت ولا كتاب زُخرف إلاّ ذهب نوره وهم **قارئون** عليك فإذا **رطنوا** فقل ترجموا [2] ، **وكتب** إلى عبد القيس ، **وكتب** إلى أقيال حضرموت وعظمائهم ، زُورعة وقهد والبتسىّ والبُحيرى

---

(١) ألا تستوقفك كتابة النبى (ص) لهؤلاء ، وتنظر أثر الكتابة فيهم .

(٢) أحسبك رأيت أن جميع المكاتبات التى كانت بين النبى واليمنيين سواء كانوا باليمن أو خارجه لم يظهر بها الأثر الجنوبى ، وقد رزيت أنه أثر داخلى من خلال قول النبى : وهم قارئون عليك فإذا رطنوا فقل ترجموا .

وحجر وربيعـة وعبد كُلال ، وكتب إلى نُفاثة بن فروة الـدؤلى ملك السماوة ، وكتب إلى عُذرة ، وكتب لمطرف بن الكاهن الباهلى ، وكتب إلى نهشل بن مالك الوائلى من باهلة ، وكتب لثقيف ، وكتب لسعيد بن سفيان الرِّعلى ، وكتب لعتبة بن فرقد ، وكتب لسلمة بن مالك السلمى ، وكتب لبنى جناب من كلب ، وكتب لمهرى بن الأبيض، كتبه محمد [1] بن مسـلمة ، وكتب لخثعم ، وكتب لبارق من الأزد ، وكتب لوائل بن حجر لما أراد الشخوص إلى بلاده ، فقال النبى ﴿ﷺ﴾ : اكتب له يا معاوية إلى الأقيال العباهلة ، وكتب لأهل نجران : هذا كتاب من محمد النبى رسول الله لأهل نجـران أنه كان له عليهـم حُكمه فى كل ثمـرة صفراء ، أو بيضاء ، أو سوداء، أو رقيق فأفْضَلَ عليهم، وترك ذلك كله على ألفىْ حُلة من حلل الأواقى فى كل رجب ألف حلة وفى كل صفر ألف حلة، كل حُلة أوقية فما زادت حُلل الخراج أو نقصتْ على الأواقى فبالحساب ، وما قبضوا من دروع، أو خيل، أو ركاب، أو عرض أخذ منهم فبالحساب وعلى نجران مثواة رسلى عشرين يوماً فدون ذلك، ولا تحبس رسلى فوق شهر وعليهم عاريةُ ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان باليمن كيْد وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسلى حتى يؤدوه إليهم ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم لا يغيروا أسقفاً عن أسقفيته ولا راهباً عن رهبانيته ولا وقفا عن وقفانيته وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس رباً ولا دم جاهلية ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين لنجران ومن أكل رباً من قبل فذمتى منه بريئة ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم آخر وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبى أبداً حتى يأتى الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم . شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف النصرى والأقرع بن حابس والمستورد بن عمرو أخو بلىّ والمغيرة بن شعبة وعامر مولى أبى بكر .

ذكر وفادات العرب على النبى

انتهى ابن سعد من ذكر سفراء النبى برسائله إلى الملوك الأجانب والعرب ، ثم من مكاتيبه إلى العرب وغيرهم ، ثم أعقبه بهذا الفصل وهو (الوفادات العربية) وسأقدم إليك الذى تخلله ذكر الكتابة .

(وفد عقيل) هم أربعة رجال أقطعهم الرسول (ص) قطيعة تسمى عقيق بنى عقيل وهى أرض

(١) اعلم أن ذكر الكاتب أو الشاهد على المكتوب سوف أستشهد به فى الفصل الذى خصصته لحصر الكتبة من المكيين واليثربيين ؛ الذى سيأتيك قبل نهاية الكتاب .

فيها نحل وعيون ، **وكتب** لهم [1] بها كتاباً .

(وفد جعدة) **وكتب** للرّقاد بن عمرو بن جعدة ضيعة بالفالج .

(وفد قشير بن كعب) **وكتب** لثور بن سلمة بن قشير قطيعة (لم يسمها أو يذكر موقعها) .

(وفد بنى البكاء) **وكتب** للفجيع بن عبد الله بن جندح كتابا .

(وفد باهلة) ذُكرت فيه الكتابة لكن المكتوب له ذُكر فى الفصل السابق وهو مطرف بن الكاهن الباهلى .

(وفد سليم) قدم على النبى (ص) رجل من بنى سُليم يقال له قيس بن نُسَيْبة فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله ، ودعاه الرسول إلى الإسلام فأسلم ، ورجع إلى قومه فقال : سمعت ترجمة الروم وهينمة الفرس ، وأشعار العرب ، وكهانة الكاهن ، وكلام مقاول حمير فما يشبه كلام محمد شيئاً من كلامهم .

(وفود عبد القيس) **وكتب** إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم .

(وفد شيبان) قال أخبرنا عفان بن مسلم ، أخبرنا عبد الله بن حسان أخو بنى كعب بَلْعنبر أنه حدثته جدتاه صفية بنت عُليبة ودُحيبة بنت عُليبة عن حديث قيلة بنت مخرمة وكانتا ربيبتيها أنها قالت : خرجت إلى أخت لى ناكح فى بنى شيبان أبتغى الصحابة إلى رسول الله (ص) فبينما أنا عندها ليلة من ليالى تحسبنى نائمة إذ جاء زوجها من السامر فقال : وأبيك لقد وجدت لقيلة صاحب صدق ، فقالت : من هو قال : حريث بن حسان الشيبانى غادياً ووفد بكر بن وائل إلى رسول الله ، وفى الصباح غدوت إلى جملى فشددت عليه ثم نشدت عنه فوجدته غير بعيد فسألته الصحبة ، فقال : نعم وكرامة ، وكانت ركابهم مناخة فخرجت معه صاحب صدق ، حتى قدمنا على رسول الله وهو يصلى بالناس الغداة ، وقد أقيمت حين انشق الفجر والنجوم شابكة فى السماء ، والرجال لا تكاد تتعارف مع ظلمة الليل ، فصففت مع الرجال وكنت امرأة حديثة عهد بجاهلية ، فقال لى الرجل الذى يلينى من الصف : امرأة أنت أم رجل ، فقلت لا بل امرأة ، فقال : إنك كدت تفتنينى ، فصلى مع النساء وراءك ، وإذا بصف من النساء قد حدث عند الحجرات لم أكن رأيته حين دخلت ، فكنت فيهن حتى إذا طلعت الشمس دنوت فجعلت إذا رأيت رجلاً ذا رُواء وذا قشر طمح إليه بصرى لأرى رسول الله (ص) ، فوق الناس ، حتى رجل وقد ارتفعت

---

(١) اعلم أن كل مكتوب كان يكتبه النبى فى أى غرض كان يعطى نسخته للمكتوب له .

الشمس فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال الرسول : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . وكان على الرسول أسمال ملبّتين كانتا بزعفران ومعه عسيب نخلة مقشور غير خوصتين من أعلاه وهو قاعد القرفصاء ، فلما رأيت رسول الله (ص) أُرعدت من الفَرق ، فقال جليسه : يا رسول الله أرعدت المسكينة ، فقال الرسول : يا مسكينة عليك السكينة ، فلما قالها أدخل بقلبى الطمأنينة ، وتقدم صاحبى أول رجل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه ، ثم قال يا رسول الله : اكتب بيننا وبين بنى تميم بالدهناء لا يجاوزها إلينا منهم إلاّ مسافر أو مجاور ، فقال النبى (ص) : يا غلام اكتب له بالدهناء ، فلما رأيته أمر بأن يكتب له بها شُخص بى وهى وطنى ودارى فقلت : يا رسول الله إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك ، إنما هذه الدهناء عندك مقيد الجمل ومرعى الغنم، ونساء تميم وأبناؤها وراء ذلك . فقال النبى : أمسك [1] يا غلام ، صدقت المسكينة .

(وفادات أهل اليمن)[2] وفد طيئ، أقطع النبى زيد الخيل قطيعة فيد وأرضين **وكتب** بذلك كتاباً.

(وفد جعفى) **وكتب** لقيس بن سلمة كتاباً يقول : كتاب من محمد رسول الله لقيس بن سلمة بن شرحبيل : إنى استعملتك على مُرّان ومواَليها وحَريم وموَاليها والكُلاب ومواليها من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصدّق ماله وصفاه . (الكُلاب) هى أود ، وزُبيد ، وجزء بن سعد العشيرة ، وزيد الله بن سعد ، وعائذ الله بن سعد ، وبنو صلاءة من بنى الحارث بن كعب .

(وفد مُراد) **وكتب** لفروة بن مُسيك بالرياسة على مراد وزبيد ومَذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد على الصدقات . (وفد جرم) **وكتب** لرجلين جرميين هما الأصقع بن شريح بن حريم والآخر هوذة بن عمرو بن يزيد كتابا .

(وفد كلب) **وكتب** لحارثة بن قطن كتاباً لطوائف كلب .

(وفد همدان) **وكتب** لقيس بن مالك بن سعد بن لأى عهداً على الهمدانيين بأن يسمعوا له ويطيعوا .

(وفد الداريين) وكانوا عشرة نفر **كتب** لهم وصية بحاد مائة وسق بخيبر فى الكتيبة جارية عليهم .

(وفد خثعم) **وكتب** لعثعث بن زحر وأنس بن مدرك ونفر من خثعم كتاباً .

---

(١) أنت تعلم أن الذى يعنينا فى كل هذا عن قيلة قول الرسول (اكتب له يا غلام ، أمسك يا غلام) فهو مما استشهد على أنه كان هناك كثيرون كتبوا وضاع ذكرهم .

(٢) هكذا أورده ابن سعد ونقلته .

(وفد بارق) وكتب كتاباً لوفد بارق .

(وفد حُمالة والحُدّان) وكتب لعبد الله بن علس الشمالى ومُسْلِيَة بن هِزّان الحُدّانى كتاباً بفروض الصدقة فى أموالهم . كتبه ثابت بن قيس وشهد فيه سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة .

(وفد أسلم) كتب لهم كتاباً فيه ذكر الصدقة والفرائض فى المواشى ، كتبه ثابت بن قيس وشهد فيه أبو عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب .

(وفد جذام) وكتب لرفاعة بن زيد بن عمير الجُذامى كتاباً .

(وفد مهرة) ذُكرت كتابته فى الفصل السابق .

(وفد حمير) ذُكرت كتابته فى الفصل السابق .

(وفد نجران) ذُكرت كتابته فى الفصل السابق .

ألا رأيت جملة ما كتبه النبى (ص) ههنا ، وإن نحن قدرنا كتاباً واحداً لكل مبعوث إليه أو وافد رأيناه شيئاً عظيماً يدل على الرقى والأثر الكتابى فيهم ، أما غالب مضامين هذه المكاتيب فكانت تشمل تولية أحد الوافدين الذين يبايعون الرسول (ص) الرياسة فى قومه أو غيرهم ، وتولية آخر الصدقات والجزية ، وما يكون على هذا النحو مما يتطلبه ذلك العصر ، وكانت تشمل الأمان والإقطاع والوصية والموادعة وغيره ، وقد بدا لك طرف من هذا فى المكاتيب التى ذُكر مضمونها . ولعلك ترانى غير معنىٍّ ههنا بذكر خصائص [1] هذه المكاتيب إنما معنىٌ بأن أثبت لك أن الرسول (ص) تعامل مع العرب وسواهم بأرجاء الجزيرة العربية وخارجها بالوثائق الكتابيّة المختومة بخاتمه ، كذلك تعامل أمراؤه فى حياته وبعد رحيله ، وأحسبك تذكر أننى أشرت فى موضع سابق أن جامعة القاهرة أقامت معرضاً لبعض هذه الوثائق وأنها توجد بمركز بحوث ودراسات التراث الإسلامى ●

---

(١) إن شئت الوقوف عليها فهى بالجزء الأول من (الطبقات الكبرى) لابن سعد ، من أول صفحة ٢٥٨ حتى ٢٩٠ فى باب ذكر بعثة الرسول الرسل بكتبه وما كتب للعرب وغيرهم ، ثم من صفحة ٢٩١ حتى ٣٥٧ فى ذكر (الوفادات) .

ما حواه القرآن من ذكر القراءة والكتابة

وخير وثيقة بين أيدينا القرآن العظيم الذى حوت سوره وزخرت بتسعة وأربعين وأربعمائة (٤٤٩) ذكر للكتابة والقراءة ومشتقاتهما ومرادفاتهما ، وأدواتها أقدمها إليك وما القرآن عنك ببعيد، وسأذكره بترتيب السور وسأضع رقم الآية عند نهايتها كما هو شأنها فى القرآن ، وقد أكتفى من الآية بما يكون فى حيزه ذكر الكتابة والقراءة .

البقرة

(ذلك **الكتاب** لا ريب فيه ٢)(أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون **الكتاب** ٢٤) (وإذ أتينا موسى **الكتاب** ٥٣) (ومنهم أميون لا يعلمون **الكتاب** إلا أمانىّ وإن هم إلا يظنون ٧٨) ، (فويل للذين يكتبون **الكتاب** بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً . فويل لهم مما **كتبت** أيديهم وويل لهم مما يكسبون ٧٩) ، (أفتؤمنون ببعض **الكتاب** وتكفرون ببعض ٨٥) ، (ولقد آتينا موسى **الكتاب** ٨٧) ، (ولما جاءهم **كتاب** ٨٩) ، (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا **الكتاب كتاب** الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ١٠١) ، (ما يودُّ الذين كفروا من أهل **الكتاب** ١٠٥) ، (ودَّ كثير من أهل **الكتاب** ١٠٩) ، (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون **الكتاب** ١١٣) ، (والذين آتيناهم **الكتاب** ١٢١) ، (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو آياتك ويعلمهم عليهم **الكتاب** والحكمة ويزكيهم ١٢٩) ، (وإن الذين أوتوا **الكتاب** ليعلمون أنه الحق من ربهم ١٤٤) ، (ولئن أتيت الذين أوتوا **الكتاب** بكل آية ما تبعوا قبلتك ١٤٥)، (الذين آتيناهم **الكتاب** يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ١٤٦)، (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم **الكتاب** والحكمة ١٥١) ، (من بعد ما بيناه للناس فى **الكتاب** ١٥٩) ، (إن الذين يكتمون ما أنزل الله فى **الكتاب** ١٧٤) ، (ذلك بأن الله نزل **الكتاب** بالحق . وإن الذين اختلفوا فى **الكتاب** لفى شقاق بعيد ١٧٦) ، (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة **والكتاب** ١٧٧) ، (يا أيها الذين آمنوا **كُتب** عليكم القصاص فى القتلى ١٧٨) ، (**كُتب** عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن ترك خيراً الوصية ١٨٠) ، (وابتغوا ما **كتب** الله

لكم ١٨٧) ، (وأنزل معهم **الكتاب** ٢١٣) ، (**كُتب** عليكم القتال وهو كره لكم ٢١٦) ، (واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من **الكتاب** والحكمة يعظكم به ٢٣١) ، (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ **الكتاب** أجله ٢٣٥) ، (قال هل عسيتم إن **كُتب** عليكم القتال ألاّ تقاتلوا ، قالوا وما لنا ألاّ نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا . فلمّا **كُتب** عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ٢٤٦) ، (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمىً **فاكتبوه** . **وليكتب** بينكم **كاتب** بالعدل . ولا يأب **كاتب** أن **يكتب** كما علمه الله . **فليكتب** وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولايبخس منه شيئاً . فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم . فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ؛ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى . ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا . ولا تسئموا أن **تكتبوه** صغيراً أو كبيراً إلى أجله . ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلاّ أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جُناح ألاّ **تكتبوها** . وأشهدوا إذا تبايعتم . ولا يضار **كاتب** ولا شهيد . وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم . واتقوا الله ويعلمكم الله . والله بكل شيء عليم ٢٨٢) ، (كلٌ آمن بالله وملائكته **وكتبه** ٢٨٥) .

آل عمران

(ونزل عليك **الكتاب** بالحق مصدقاً لما بين يديه . وأنزل **التوراة** [1] **والإنجيل** ٣) ، (هو الذى أنزل عليك **الكتاب** منه آيات محكمات هن أم **الكتاب** وأُخَر متشابهات ٧) ، (وما اختلف الذين أوتوا **الكتاب** ١٩) ، (وقل للذين أوتوا **الكتاب** والأميين أأسلمتم ٢٠) ، (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من **الكتاب** يُدعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ٢٣) ، (وما كنت لديهم إذ يلقون **أقلامهم** أيهم يكفل مريم ٤٤) ، (ويعلمه **الكتاب** والحكمة **والتوراة والإنجيل** ٤٨) ، (ومصدقاً لما بين يدى من **التوراة** ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ٥٠) ، (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول **فاكتبنا** مع الشاهدين ٥٣) ، (قل يا أهل **الكتاب** تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ٦٤) ، (يا أهل **الكتاب** لِمَ تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت **التوراة والإنجيل** إلا من بعده ٦٥)، (ودت طائفة من أهل **الكتاب** ٦٩)، (يا أهل **الكتاب** لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون٧٠)، (يا أهل **الكتاب** لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون٧١)،

---

(١) المعنى بهما (الكتب) وهو الأقرب إلى أذهان الناس ، أى المعنى الاصطلاحى وليس اللغوى . إذ إن الإنجيل) معناه (البشارة) وهو لفظ يونانى لكنه معروف لدينا بأنه كتاب النصارى وعلى هذا النحو ورد فى القرآن ، وعنى التوراة بأنه كتاب موسى وهو لفظ عبرىّ .

(وقالت طائفة من أهل **الكتاب** ٧٢)، (ومن أهل **الكتاب** من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ٧٥)، (وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم **بالكتاب** لتحسبوه من الكتاب وما هو من **الكتاب** ٧٨)، (وما كان لبشر أن يؤتيه الله **الكتاب** والحكم والنبـوة ثم يقول للناس كـونوا عباداً لى من دون الله ولـكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون **الكتاب** وبما كنتم **تدرسون** ٧٩) ، (كل الطعام كان حـلاً لبنى إسرائيل إلا ما حـرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنزل **التوراة** . قل فأتوا **بالتوراة** فاتلوها إن كنتم صـادقين ٩٣) ، (قـل يا أهل **الكتاب** لِمَ تكفرون بآيات الله واللـه شهيد على مـا تعملون ٩٨) ، (قل يا أهل **الكتاب** لِمَ تصـدون عن سبـيل الله ٩٩) ، (يا أيهـا الذين آمنوا إن تطيـعوا فـريقـاً من الذين أوتوا **الكتاب** يردوكم بعد إيمانكم كافرين ١٠٠) ، (ولو آمن أهل **الكتاب** لكان خيراً لهم ١١٠) ، (ومن أهل **الكتاب** أمة قائمة ١١٣)، (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يـحبونكم وتؤمنون **بالكتاب** كله ١١٩)، (**كتباً** مؤجلاً ١٤٥)، (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فـيهم رسولا من أنفســهم يتلو عليهم آياته ويزكـيهم ويعلمـهم **الكتاب** والحكمـة وإن كانوا من قـبل لفى ضـلال مبـين ١٦٤)، (**سنكتب** ما قالوا١٨١) ، (فإن كذبوك فقد كُـذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات **والزبر** والكتاب المنير ١٨٤) ، (لتُبلوُن فى أمـوالكم وأنفسكم ولتسـمعُن من الذين أوتوا **الكتاب** من قبلكم ومن الذين أشـركوا أذىً كثيراً ١٨٦)، (وإذ أخذ اللـه ميثاق الذين أوتوا **الكتاب** ١٨٧)، (وإن من أهل **الكتاب** لمن يومن بالله ١٩٩).

النساء

(**كتـاب** الله عليكم ٢٤) ، (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيـباً من **الكتاب** ٤٤) ، (من الذين هادوا يحـرفون **الكلم** عن مواضـعه ٤٦) ، (يا أيها الذين أوتوا **الكتاب** ٤٧) ، (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من **الكتاب** ٥١) ، (فقد آتينا آل إبراهيم **الكتاب** ٥٤) ، (ولو أن **كتبنا** عليهم ٦٦) ، (ألم تر إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما **كُتِبَ** عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا **كتبت** علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ٧٧) ، (والله يكتب ما يبيتون ٨١) ، (أفلا يتدبرون **القرآن** ٨٢) ، (إن الصلاة كانت على المؤمنين **كتـاباً** موقـوتاً ١٠٣) ، (إنا أنزلنا إليك **الكتاب** بالحق ١٠٥) ، (وأنزل الله عليك **الكتاب** والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ١١٧) ، (ليس **بأمانيكم** ولا **أمانى** أهل **الكتاب** ١٢٣) ، (قل الله يفـتيكم فيهن وما يُتلى عليكم فى **الكتاب** فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما **كُتب** لهن ١٢٧) ، (ولقد وصـينا الذين أوتوا **الكتاب** من قـبلكم ١٣١) ، (يا أيهـا الذين آمَنوا آمِنوا بالله ورسـوله **والكتاب**

الذى نزل على رسوله **والكتاب** الذى أنزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته **وكتبه** ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيدا ١٣٦) ، (وقد نزل عليكم فى **الكتاب** ١٤٠) ، (يسألك أهل **الكتاب** أن تُنزل عليهم **كتاباً** من السماء ١٥٣) ، (يا أهل **الكتاب** لا تغلوا فى دينكم ١٧١) .

المائدة

(وطعام الذين أوتوا **الكتاب** حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا **الكتاب** ٥) ، (يحرفون **الكلم** عن مواضعه ١٣) ، (يا أهل **الكتاب** قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من **الكتاب** ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور **وكتاب** مبين ١٥) ، (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ١٩) ، (من أجل ذلك **كتبنا** ٣٢) ، (يحرفون **الكلم** من بعد مواضعه ٤١) ، (وكيف يحكمونك وعندهم **التوراة** ٤٣) ، (إنّا أنزلنا **التوراة** فيها هدىً ونور . يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استُحْفظُوا من **كتاب** الله وكانوا عليه شهداء ٤٤) ، (**وكتبنا** عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ٤٥) ، (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من **التوراة** وآتيناه **الإنجيل** فيه هدىً ونورٌ ومصدقاً لما بين يديه من **التوراة** وهدىً وموعظةً للمتقين ٤٦) ، (وليحكم أهل **الإنجيل** بما أنزل الله فيه ٤٧) ، (وأنزلنا إليك **الكتاب** بالحق مصدقاً لما بين يديه من **الكتاب** ٤٨) ، (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُوا ولعباً من الذين أوتوا **الكتاب** من قبلكم والكفار أولياء ٥٧) ، (قل يا أهل **الكتاب** ٥٩) ، (ولو أن أهل **الكتاب** ٦٥) ، (ولو أنهم أقاموا **التوراة** **والإنجيل** ٦٦) ، (قل يا أهل **الكتاب** لستم على شىء حتى تقيموا **التوراة والإنجيل** وما أنزل إليكم من ربكم ٦٨) ، (قل يا أهل **الكتاب** لا تغلوا فى دينكم ٧٧) ، (يقولون ربنا آمنا **فاكتبنا** مع الشاهدين ٨٣) ، (يا أيّها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل **القرآن** تبدَ لكم عفا الله عنها ١٠١) ، (وإذ علمتك **الكتاب** والحكمة **والتوراة والإنجيل** ١١٠) .

الأنعام

(ولو نزلنا عليك **كتابا فى قرطاس** ٧) ، (**كتب** على نفسه الرحمة ١٢) ، (وأوحى إليّ هذا **القرآن** لأنذركم به ومن بلغ ١٩) ، (الذين آتيناهم **الكتاب** يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ٢٠) ، (ما فرطنا فى **الكتاب** من شىء ٣٨) ، (**كتب** ربكم على نفسه الرحمة ٥٤) ، (وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاّ فى **كتاب** مبين ٥٩) ، (أولئك الذين

آتيناهم **الكتاب** والحكم والنبوة ٨٩) ، (قل من أنزل **الكتاب** الذى جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه **قراطيس** ٩١) ، (وهذا **كتاب** أنزلناه مباركاً ٩٢) ، (أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم **الكتاب** مفصلاً . والذين آتيناهم **الكتاب** يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ١١٤)، (ثم آتينا موسى **الكتاب** ١٥٤) ، (وهذا **كتاب** أنزلناه مباركٌ فاتبعوه ١٥٥) ، (أن تقولوا إنما أنزل **الكتاب** على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ١٥٦) ، (أو تقولوا لو أنّا أنزل علينا **الكتاب** لكُنَّا أهدى منهم ١٥٧) .

الأعراف

(**كتاب** أنزل إليك ٢) ، (أولئك ينالهم نصيبهم من **الكتاب** ٣٧) ، (ولقد جئناهم **بكتاب** فصلناه على علم هدىً ورحمةً لقوم يؤمنون ٥٢) ، (**وكتبنا** له فى **الألواح** ١٤٥) ، (وألقى **الألواح** ١٥٠)، (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ **الألواح** وفى **نسختها** هدىً ورحمةٌ للذين هم لربهم يرهبون١٥٤) ، (**واكتب** لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة . إنَّا هُدنا إليك . قال عذابى أُصيب به من أشاء . ورحمتى وسعت كل شيء **فسأكتبها** للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ١٥٦) ، (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه **مكتوباً** عندهم فى **التوراة والإنجيل** ١٥٧) ، (فخلف من بعدهم خلف ورثوا **الكتاب** يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا . وإن يأتهم عَرَضٌ مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق **الكتاب** أن لا يقولوا على الله إلاّ الحق **ودرسوا** ما فيه ١٦٩) ، (والذين يُمَسِّكون **بالكتاب** وأقاموا الصلاة١٧٠) ، (إنَّ وليِّيَ الله الذى نزل **الكتاب** . وهو يتولى الصالحين ١٩٦) ، (وإذا **قرئ القرآن** فاستمعوا له ٢١٤) .

الأنفال

(لولا **كتاب** من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم ٦٨) ، (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى **كتاب** الله ٧٥) .

التوبة

(من الذين أوتوا **الكتاب** ٢٩) ، (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى **كتاب** الله يوم خلق السموات والأرض ٣٦) ، (قل لن يصيبنا إلاّ ما **كتب** الله لنا ٥١) ، (وعداً عليه حقاً فى **التوراة والإنجيل والقرآن** ١١١) ، (إلاّ **كُتب** لهم به عمل صالح ١٢٠) ، (إلاّ **كُتب** لهم

ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ١٢١) .

يونس

(الر تلك آيات **الكتاب** الحكيم ١) ، (ائتِ **بقرآن** غير هذا أو بدله ١٥) ، (إن رسلنا **يكتبون** ما تمكرون ٢١) ، (وما كان هذا **القرآن** أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل **الكتاب** لا ريب فيه من رب العالمين ٣٧) ، (وقل فأتوا **بسورة** مثله ٣٨) ، (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من **قرآن** ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه . وما يعزُب من ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى **كتاب** مبين ٦١) ، (فاسأل الذين يقرءون **الكتاب** من قبلك ٩٤) .

هود

(الر تلك آيات **الكتاب** ١) ، (كل فى **كتاب** مبين ٦) ، (قل فأتوا بعشر **سور** مثله) ، (ومن قبله **كتاب** موسى إما ما ورحمة ١٧) ، (ولقد اتينا موسى **الكتاب** ١١٠) .

يوسف

(الر تلك آيات **الكتاب** المبين ١) ، (إنّا أنزلنا **قرآناً** عربياً لعلكم تعقلون ٢) .

الرعد

(المر تلك آيات **الكتاب** ١) ، (والذين آتيناهم **الكتاب** يفرحون ٣٦) ، (لكل أجل **كتاب** ٣٨) ، (وعنده أم **الكتاب** ٤٣) .

إبراهيم

(الر **كتاب** أنزلناه ١)

الحجر

(الر تلك آيات **الكتاب** وقرآن مبين ١) ، (وما أهلكنا من قرية إلاّ ولها **كتاب** معلوم ٣) .

النحل

(بالبينات **والزبر** ٤٤) ، (وما أنزلنا عليك **الكتاب** إلا لتبين لهم ٦٤) ، (ونزلنا عليك **الكتاب** تبينانا ٨٩) ، (فإذا **قرأت القرآن** ٩٨) ، (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . **لسان** الذى

يلحدون إليه أعجمى وهذا **لسان**[1] عربى مبين ١٠٣) .

الإسراء

(وآتينا موسى **الكتاب** ٢) ، (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى **الكتاب** ٤) ، (إن هذا **القرآن** يهدى للتى هى أقوم ٩) ، (ونخرج له يوم القيامة **كتاباً** يلقاه منشورا ١٣) ، (اقرأ **كتابك** ١٤) ، (ولقد صرفنا فى هذا **القرآن** ٤١) ، (وإذا قرأت **القرآن** ٤٥) ، (وإذا ذكرت ربك فى **القرآن** ٤٦) ، (وآتينا داود **زبورا** ٥٥) ، (كان ذلك فى **الكتاب مسطورا** ٥٨) ، (فمن أوتى **كتابه** بيمينه فأولئك يقرءون **كتابهم** ولا يظلمون فتيلا ٧١) ، (**وقرآن** الفجر إن **قرآن** الفجر كان مشهودا ٧٨) ، (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا **القرآن** لا يأتون بمثله ٨٨) ، (أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرُقيِّك حتى تُنزل علينا **كتاباً نقرأه** ٩٣) ، (**وقرآناً** فرقناه **لتقرأه** على الناس ١٠٦) .

الكهف

(الحمد لله الذى أنزل على عبده **الكتاب** ١) ، (أم حسبت أن أصحاب الكهف **والرقيم** كانوا من آياتنا عجبا ٩) ، (واتلُ ما أوحى من **كتاب** ربك ٢٧) ، (ووضع **الكتاب** فترى المجرمين مشفقين مما فيه يقولون يا ويلنا مال هذا **الكتاب** لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ٤٨) ، (ولقد صرفنا فى هذا **القرآن** للناس من كل مثل ٥٤) .

مريم

(يا يحيى خذ **الكتاب** بقوة ١٥) ، (واذكر فى **الكتاب** مريم ١٦) ، (قال إنى عبد الله آتانى **الكتاب** ٣٠) ، (واذكر فى **الكتاب** إبراهيم ٤٠) ، (واذكر فى **الكتاب** موسى ٥١) ، (واذكر فى **الكتاب** إسماعيل ٥٤) ، (واذكر فى **الكتاب** إدريس ٥٦) ، (كلا **سنكتب** ما يقول ٧٩) .

طه

(ما أنزلنا عليك **القرآن** لتشقى ٢) ، (قال علمها عند ربى فى **كتاب** ٥٢) ، (كذلك أنزلناه **قرآنا** عربيا ١١٣) ، (ولا تعجل **بالقرآن** ١١٤) .

---

(١) المقصود به (القرآن) ، وسبب مجىء الآية أن القريشيين المناوئين لدعوة النبى (ص) كانوا يقولون إنه يختلف إلى رجل رومى نصرانى ممن كانوا يعيشون بمكة ، وكان هذا الرجل معروفاً عندهم بإلمامه بالكتاب المقدس ، فقالوا إنه يأخذ عنه ، فجاءت الآية الكريمة تنفى هذا عن النبى (ص) . وتفسيرها : أن هذا الرجل الذى تتهمون النبى بالنقل عنه أعجمى ذو رطنةٍ أجنبية وهذا القرآن يأتيكم بلسان عربى خالص .

الأنبياء

(لقد أنزلنا إليكم **كتابا** ١٠) ، (وإنا له **كاتبون** ٩٤) ، (يوم نطوى السماء كطى **السجل للكتب**١٠٤) ، (ولقد **كتبنا** فى **الزبور** ١٠٦) .

الحج

(**كُتب** عليه أنه من تولاه فأنه يضله ٤) ، (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا **كتاب** منير ٨) ، (إن ذلك فى **كتاب** ٧٠) .

المؤمنون

(ولقد آتينا موسى **الكتاب** ٤٩) ، (ولدينا **كتاب** ينطق بالحق ٦٢) .

النور

(والذين يبتغون **الكتاب** [1] مما ملكت أيمانكم **فكاتبوهم**٣٣) .

الفرقان

(وقالوا أساطير الأولين **اكتتبها** فهى تُملى عليه بكرةً وأصيلا٢) .

الشعراء

(تلك آيات **الكتاب** المبين٢) (وإنه لفى **زُبر** الأولين١٩٦)، (**فقرأه** عليهم ما كانوا به مؤمنين١٩٩).

النمل

(طس ، تلك آيات **القرآن** و**كتاب** مبين ١) ، (وإنك لتُلقى **القرآن** من لدن حكيم عليم ٦) ، (اذهب **بكتابى** هذا ٢٨) ، (قالت يا أيها الملأ إنى أُلقى إلىّ **كتاب** كريم ٢٩) ، (قال الذى عنده علم من **الكتاب** ٤٠) ، (وما من غائبة فى السماء والأرض إلاّ فى **كتاب** مبين ٧٥) ، (إن هذا **القرآن** يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون ٧٦) ، (وأن أتلوا **القرآن** ٩٢) .

القصص

(تلك آيات **الكتاب** المبين ٢) ، (ولقد آتينا موسى **الكتاب** ٤٣) ، (قل فأتوا **بكتاب** من عند الله ٤٩) ، (والذين آتيناهم **الكتاب** من قبله هم به يؤمنون ٥٢) ، (إن الذى فرض عليك **القرآن** لرادُّك إلى معاد ٨٥) ، (وما كنت ترجو أن يلقى إليك **الكتاب** إلاّ رحمة من ربك ٨٦) .

---

(١) المراد (الكتابة) ، والمكاتبة تحدثت فيها منذ قليل .

العنكبوت

(ووهبنا له إسحاق ويعقـوب وجعلنا فى ذريته النبوة **والكتاب** ٢٧) ، (واتلُ[1] ما أوحى إليك من **الكتاب** ٤٥) ، (ولا تجادلوا أهل **الكتاب** ٤٦) ، (كذلك أنزلنا إليك **الكتاب** ، فالذين آتيناهم **الكتاب** يؤمنون به ٤٧) ، (وما كنت تتلو قبله من **كتاب** ولا **تخطه** بيمينك ٤٨) ، (أو لم يكفهم أنّا أنزلنا عليك **الكتاب** ٥١) .

الروم

(وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقـد لبثتم فى **كتاب** الله إلى يوم البعث ٥٦) ، (ولقد ضربنا للناس فى هذا **القرآن** من كل مثل ٥٨) .

لقمان

(تلك آيات **الكتاب** الحكيم ٢) ، (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا **كتاب** منير ٢٠) .

السجدة

(تنزيل **الكتاب** لا ريب فيه ٢) ، (ولقد آتينا موسى **الكتاب** ٣) .

الأحزاب

(وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كـتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معـروفاً . كان ذلك فى **الكتاب** مسطورا ٦) ، (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل **الكتاب** من صياصيهم ٢٦) .

سبأ

(وما آتيناهم من **كتب يدرسونها** ٤٤)

فاطر

وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلاّ فى **كتاب** ١١) ، (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من

---

(١) أحسبك تلتفت إلى أن (التـلاوة) قد تأتى عن تلقين وحفظ وقد تأتى عن قراءة ، كذلك (التـرتيل) وما يشبه هذا مما تركته (كالآية) مثلاً فهى النص المكتوب قـرآنياً ، وهى البينة والغاية والعلامة والدليل لغوياً وهو أصلها . ولو أنى أضفت التلاوة على الأقل - وإجازته أكبر من عدمها - لزاد العدد الذى بين يديك زيادة كبيرة .

قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات **وبالزبر وبالكتاب** المنير ٢٥) ، (إن الذين يتلون **كتاب** الله ٢٩) ، (والذى أوحينا إليك من **الكتاب** ٣١) ، (ثم أورثنا **الكتاب** الذين اصطفينا من عبادنا ٣٢) ، (أم آتيناهم **كتابا** فهم على بينة منه ٤٠) .

يس

(**والقرآن** الحكيم ٢) ، (إنا نحن نُحىّ الموتى **ونكتب** ما قدموا وآثارهم ١٢) ، (وما **علمناه** الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر **وقرآن** مبين ٦٩) .

الصافات

(وآتيناهم **الكتاب** المبين ١١٧) ، (فأتوا **بكتابكم** إن كنتم صادقين ١٥٧) .

ص

(وقالوا ربنا عجّل لنا **قطّنا** قبل يوم الحساب ١٦) ، (**كتاب** أنزلناه إليك مباركٌ ٢٩) .

الزمر

(تنزيل **الكتاب** من الله العزيز الحكيم ١) ، (إنّا أنزلنا **الكتاب** بالحق ٢) ، (والله نزل أحسن الحديث **كتاباً** متشابهاً ٢٣) ، (إنّا أنزلنا عليك **الكتاب** للناس بالحق ٤١) ، (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع **الكتاب** ٦٩) .

غافر

(تنزيل **الكتاب** من الله العزيز العليم ٢) ، (وأورثنا بنى إسرائيل **الكتاب** ٥٣) .

فصلت

(**كتاب** فصلت آياته **قرآناً** عربياً ٣) ، (وإنه **لكتاب** عزيز ٤١) ، (ولو جعلناه **قرآناً** أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ٤٤) ، (ولقد آتينا موسى **الكتاب** فاختلف فيه ٤٥) .

الشورى

(وإن الذين أُورثوا **الكتاب** من بعدهم لفى شك منه مريب ١٤) ، (قل آمنت بما أنزل من **كتاب** ١٥) ، (الله الذى أنزل **الكتاب** بالحق والميزان ١٧) ، (وما كنت تدرى ما **الكتاب** ٥٢) .

الزخرف

(**والكتاب** المبين ٢) ، (إنّا جعلناه **قرآناً** عربياً ٣) ، (وإنه فى أم **الكتاب** لدينا لعلىّ حكيم ٤) ،

(**ستكتب** شهادتهم ١٩) ، (أم آتيناهم **كتاباً** من قبله فهم به مستمسكون ٢١) .

الدخان

(**والكتاب** المبين ٢)

الجاثية

(تنزيل **الكتاب** من الله العزيز الحكيم ٢) ، (ولقد آتينا بنى إسرائيل **الكتاب** ١٦) ، (وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى **كتابها** اليوم تجزون ما كنتم تعملون ٢٨) ، (هذا **كتابنا** ينطق بالحق . إنا كنا **نستنسخ** ما كنتم تعملون ٢٩) .

الأحقاف

(تنزيل **الكتاب** من الله العزيز الحكيم ٢) ، (ائتونى **بكتاب** من قبل هذا ٤) ، (ومن قبله **كتاب** موسى إماماً ورحمة ، وهذا **كتاب** مصدق لساناً عربياً ١٢) ، (**كتاباً** أنزل من بعد ٣٠) .

محمد

(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت **سورة** فإذا أنزلت **سورة** محكمة ٢٠)، (أفلا يتدبرون **القرآن**٢٥).

الفتح

(سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى **التوراة** . ومثلهم فى **الإنجيل** ٢٩) .

ق

ق . **والقرآن** المجيد ١) ، (وعندنا **كتاب** حفيظ ٤) .

الطور

(والطور ، **وكتاب مسطور** فى **رق** منشور ٣) .

النجم

(ألم ينبأ بما فى **صحف** موسى ٣٦) .

القمر

(ولقد يسرنا **القرآن** ٣٢) ، (أم لكم براءة فى **الزُبر** ٤٣) ، (وكل شيء فعلوه فى **الزبر** ٥٢) ، (وكل صغير وكبير **مستطر** ٥٣) .

الرحمن

(الرحمن ؛ علم **القرآن** ٢)

الواقعة

(وإنه **لقرآن** كريم (فى **كتاب** مكنون ٧٨) .

الحديد

(كالذين أوتوا **الكتاب** ١٦) ، (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلاّ فى **كتاب** ٢٢) ، (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم **الكتاب** ٢٥) ، (وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه **الإنجيل** وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما **كتبناها** عليهم ٢٧) ، (لئلا يعلم أهل الكتاب ٢٩) .

المجادلة

(**كتب** الله لأغلبنّ أنا ورسلى ٢١) ، (أولئك **كتب** فى قلوبهم الإيمان ٢٢) .

الحشر

(هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل **الكتاب** ٢) ، (ولولا أن **كتب** عليهم الجلاء ٣) ، (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل **الكتاب** ١١) .

الصف

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من **التوراة** ٦) .

الجمعة

(هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم **الكتاب** والحكمة٢) ، (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل حمار يحمل **أسفاراً** ٥) .

التحريم

(ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها **وكتبه** وكانت من القانتين ١٢) .

القلم

(ن والقلم وما **يسطرون** ١) ، (أم لكم **كتاب** فيه **تدرسون** ٣٧) .

الحاقة

(فأما من أوتى **كتابه** بيمينه فيقول هاؤمُ اقرءوا **كتابيه** ١٩) ، (وأمّا من أوتى **كتابه** بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت **كتابيه** ٢٥) .

المزمل

(أو زد عليه ورتل **القرآن ترتيلا**) .

المدثر

(ليستيقن الذين أوتوا **الكتاب** ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا **الكتاب** والمؤمنون ٣١) .

القيامة

(إن علينا جمعه **وقرآنه** ١٧) ، (فإذا قرأناه فاتبع **قرآنه**) .

عبس

(فى **صحف** مكرمة ١٣) .

التكوير

(وإذا **الصحف** نشرت ١٠) .

الانفطار

(كراماً **كاتبين** ١١)

المطففين

(كلا إن **كتاب** الفجار لفى سجين ٧) ، (**كتاب** مرقوم ٩) ، (كلا إن **كتاب** الأبرار لفى عليين ١٨) ، (**كتاب مرقوم** ٢٠) .

الانشقاق

(فأما من أوتى **كتابه** بيمينه ٧) ، (وأما من أوتى **كتابه** وراء ظهره ١٠)

البروج

(بل هو **قرآن** مجيد ٢١) .

الأعلى

(إن هذا لفى **الصحف** الأولى ١٨) ، (**صحف** إبراهيم وموسى ١٩) .

العلق

(**اقرأ** باسم ربك الذى خلق ١) ، (**اقرأ** وربك الأكرم الذى علم **بالقلم** ٣) .

البينة

(لم يكن الذين كـفروا من أهل **الكتاب** ١) ، (رسول من الله يتلو **صحـفاً** مطهرة ٢) ، (فيـها **كتب** قيّمة ٣) ، (وما تفرق الذين أوتوا **الكتاب** إلاّ من بعد ما جاءتهم البينة ٤) ، (إن الذين كفروا من أهل **الكتاب** ٦) .

***

إيه ، أنحسـب أن القران العظيم يخـاطب أمييـن بكل هذا الذكر للكتـابة والقراءة .. حـاشا أن يتحدث القرآن بدون جدوى ! ●

- ٧ -

غالب ما تكاتب به الصحابة

مرّ بنا ما كتبه النبى (ص) وما جاء فى (القرآن) من ذكر الكتابة والقراءة ، والآن أقدم إليك غالب ما تكاتب به الصحابة (ر) حتى عصر الخليفة العادل عمر بن الخطاب (ر) وذلك لكى لا نبعد كثيراً عن العصر الذين يعنينا ، وأرجو ألا يظن البعض أننى ابتعدت إذ إن الذين سيمر بنا ذكرهم هم من المخضرمين .

يقول ابن الأثير [١] : لما مات النبى (ص) قدمت **كتب** أمرائه من كل مكان بانتقاض العرب عامة وخاصة ، ولما أخرج أبو بكر الأحد عشر قائداً لمحاربة المرتدين أخرج معهم أحد عشر رسولاً يحمل كلٌ منهم **نسخة** من كتابٍ كَتَبَه ينذر فيه المرتدين .

ثم يأتى ذكر الرسائل مفرداً وجمعاً ، يقول :

كتب أبو بكر [٢] لامرئ القيس الكلبى .. **وكتب** خالد بن الوليد إلى معن بن حاجز .. **وكتب** حسان بن ثابت [٣] إلى الخليفة يشكو خالد بن الوليد .. **وكتب** أبو بكر إلى خالد .. **وكتب** عكرمة بن عمرو بن هشام إلى الخليفة .. **وكتب** الخليفة إلى عكرمة رداً على كتابه .. **وكتب** العلاء الحضرمى إلى من ثبت على إسلامه من أهل البحرين .

وفى ذكر رِدة أهل عُمان كثرة **المكاتبة** بين عكرمة وجيفر وعبد وذى التاج لقيط بن مالك وحصين بن محصن الغلفانى وعرفجة البارقى .

وكتب عتاب بن أُسيد إلى الخليفة يعرفه من ارتدّ فى عمله .. **وكتب** إليه الخليفة .. **وكتب** الخليفة لوفد نجران بتجديد العهد .

وفى ذكر خبر ردة اليمن الثانية **كتب** الخليفة إلى عمرو ذى مُران ، **وكتب** إلى سعيد ذى زود ،

---

(١) فى تاريخه (الكامل) وغالب ما سأذكره فى هذا الفصل من الجزءين الثانى والثالث منه .

(٢) سيكون شأنى فى هذا كشأنى فى ذكر رسائل النبى (ص) . أى لا يعنينى مضامين هذه الرسائل ، إنما يعنينى تعاملهم الكتابى ، فإن شئت الوقوف عليها فقد أشرت إلى المرجع .

(٣) ديوانه طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب . تحقيق سيد حسنين ومراجعة حسن كامل .

وكتب إلى ذى الكُلاع ، وكتب إلى حوشب بن ظالم ، وكتب لشهر ذى نياف يأمرهم بالتمسك بدينهم .. وكتب المهاجر بن أمية إلى الخليفة .. وكتب فيروز إلى الخليفة .

وفى ذكر حضرموت وكندة كتب زياد إلى المهاجر يستحثه فلقيه الرسول فى الطريق .. وكتب الأشعث بن قيس ومعه تسعة آخرون كتاباً يطلبون فيه الأمان بعد أن خذلوا قومهم ، فقال لهم زياد بن لبيد : اكتبوا ما شئتم وأختمه لكم .

وفى ذكر خبر (دومة الجندل) وصل إلى خالد بن الوليد كتاب من امرئ القيس الكلبى .

وفى ذكر وقعة (مصيخ بنى البرشاء) يقول ابن الأثير :

وكان مع الهذيل عبدُ العزى أخو أوس مناة ولبيد بن جرير وكانا أسلما ومعهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما فقتلا .

وفى ذكر (فتوح الشام) كتب خالد بن سعيد إلى الخليفة .. وكتب الخليفة إليه رداً .. وكتب خالد بن الوليد إلى الخليفة .. وكتب الخليفة وهو فى فراش الموت آخر مكتوب له ، وهو خلافة عمر بن الخطاب .

وكانت هذه المكاتيب فى سنتين وبضعة أشهر هى فترة خلافة أبى بكر (ر) .

خلافة عمر

فى ذكر (فتح دمشق) كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر ، وكتب إليه الخليفة رداً ، ثم تراسلا بكتابين آخرين .

وفى ذكر (غزوة فحل) كتب أمراء الجند إلى عمر .

وفى ذكر (فتح بيسان وطبرية) كتب أبو عبيدة إلى عمر ، وفى هذا الحين كتب الخليفة يعزل خالد بن الوليد وتولية أبى عبيدة وكان أثناء حصارهم لدمشق .

وفى ذكر (خبر القادسية وملك يزدجر) كتب المثنى وباقى أمراء الجند إلى عمر ، وكتب إليهم جميعاً عمر .

وفى ذكر (ابتداء القادسية) كتب سعد بن أبى وقاص إلى الخليفة ، وكتب إليه الخليفة رداً ، ثم كتب إليه سعد بالفتح وبعدد مَن قتل وجرح من المسلمين .. وكتب الخليفة إلى أمراء الشام بعدما جاءته منهم رسائل .. وكتب أبو عبيدة إلى الخليفة فى نفر عنده شربوا الخمر ، وكتب إليه الخليفة

رداً فى هذا الأمر .

وفى ذكر (ولاية عتبة بن غزوان البصرة) ، كتب عتبة إلى عمر ، وكتب إليه الخليفة رداً ، ثم تراسلا بكتابين آخرين .

وفى ذكر (سنة أربع عشرة) أمر الخيلفة بالقيام فى شهر رمضان فى المساجد وكتب إلى الأمصار بذلك .

وفى ذكر (فتح حمص وبعلبك) وغيرهما من مدن الشام كتب الخليفة إلى أبى عبيدة .

وفى ذكر (فتح قِنسرين) ودخول هرقل القسطنطينية كتب عمر إلى أبى عبيدة .

وفى ذكر فتح قيسارية وحصار غزة) كتب الخليفة إلى يزيد بن أبى سفيان ، وكتب إلى أخيه معاوية .

وفى ذكر (فتح القدس) كتب عمرو بن العاص إلى أرطبون وأرسل إليه من يتكلم الرومية ، ثم كتب إلى الخليفة بهذا . وفى هذه السنة كتب الخليفة إلى أمراء الجند أن يوافوه (بالجابية) فى يوم عاينه لهم ، وكتب لأهل القدس عهداً .

وفى ذكر (فروض العطاء وعمل الديوان) يقال لما استشار الخليفة مستشاريه وهم نفر من كبار الصحابة ، وسمع منهم ؛ رأى أن يعمل برأى الوليد بن هشام القريشى ويحاكى فى هذا الأمر ملوك الشام فيدون الديوان ويجند الجند وأمر أن يتولى هذا الأمر ثلاثة رجال من نساب قريش وهم : (جبير بن مطعم ، وعقيل بن أبى طالب ، ومخرمة بن نوفل) ، وقال لهم : اكتبوا الناس [١] على حسب منزلتهم .

وفى ذكر (وقعة جلولاء وفتح حلوان) كتب سعد إلى الخليفة .. وكتب إليه الخليفة رداً .

وفى ذكر (فتح تكريت والموصل) كتب سعد إلى الخليفة به .. وكتب إليه الخليفة رداً .

وفى ذكر (ماتبذان) كتب سعد إلى الخليفة .. وكتب إليه الخليفة رداً .

وفى ذكر (فتح قرقيسيا) كتب سعد إلى الخليفة .. وكتب إليه عمر رداً .

وفى هذه السنة كتب الخليفة (التأريخ الهجرى) .

---

(١) نحسب أن أمراً كهذا لا يتم أبداً إلا إذا مرّ بمراحل كتابية ضخمة للمدنيين من رجال ونساء ، شيوخ وأطفال ، ثم للعامل الأساسى فيه وهو التجنيد النظامى المستحدث لديهم حينئذ ، إذ روئى أن يكون العطاء ذا جدوى ، وما كان يفوت الخليفة أن تُنظر الحالة الاجتماعية للجندى وأسرته ، ثم بعد هذا تأتى المراحل الحسابية لتقدير العطاء عموماً وخصوصاً حسب المنزلة .. ولك أن تبلغنى أى أمة هى التى تنهض بأمر كهذا .

وفى ذكر (بناء الكوفة والبصرة) **كتب** حذيفة إلى الخليفة وفيها **كتب** عمرو بن مالك إلى سعد بن أبى وقاص ، **وكتب** الخليفة إلى سعد رداً على كتاب حذيفة **وكتب** إليه سعد فيه ، فعاوده الخليفة بمكتوب آخر . ولما نزل سعد بموقع الكوفة **كتب** إلى عمر .

وكتب إليه عمر رداً ، **وكتب** إلى عتبة وأهل البصرة وفى ذكر (خبر حمص) حين قصد هرقل من بها من المسلمين **كتب** أبو عبيدة إلى عمر بهذا ، فلما بلغ عمر هذا **كتب** إلى سعد بن أبى وقاص بندب الجند مع القعقاع .

وفى هذه السنة **كتب** الخليفة إلى المغيرة بن شعبة أن يشخص أمامه ، **وكتب** إلى أبى بكرة ونافع بن كلدة وزياد بن أبيه وشبل بن معبد البجلى أن يشخصوا أمامه كذلك ، وفى هذه الحادثة كان عزل المغيرة وتنصيب أبا موسى الأشعرى عمله ، **وكتب** الخليفة مكتوباً بهذا .

وفى ذكر (فتح الأهواز ونهرى تيرى) **كتب** الخليفة إلى عتبة ، **وكتب** إلى سلمى إلى عتبة ، **وكتب** عتبة إلى الخليفة ، ورد الخليفة عليه **كتابة** .

وفيها **كتب** حُرقوص بن زهير إلى الخليفة بفتح سوق الأهواز .

وفى ذكر (صلح الهُرمزان) مع المسلمين **كتب** جزءُ بن معاوية إلى الخليفة وإلى عتبة ، **فكتب** الخليفة إلى حرقوص .

وفى ذكر (فتح رامهرمُز وتستر وأسر الهرمزان) **تكاتب** هؤلاء الأمراء وأهل الأهواز وتعاقدوا على النصرة ، فجاءت الأخبارُ حرقوص وجزءاً وسلمى وحرملة **فكتب** جميعهم إلى الخليفة . . **وكتب** الخليفة إلى سعد ، **وكتب** إلى أبى موسى الأشعرى .

وفى ذكر (فتح السوس) **كتب** عمر يصرف النعمان إلى أهل نهاوند .

وفى ذكر (مصالحة جُند يسابور) **كتب** أمراء الجند إلى الخليفة بأمر هذه المصالحة .. **وكتب** الخليفة إليهم ردوداً .

وفى ذكر (عام القحط) **كتب** الخليفة إلى أمرائه . ورد جميعهم **كتابة** .

وفى ذكر (قدوم عمر الشام) بعد الطاعون **كتب** إليه أمراء الجند .

وفى ذكر (وقعة نهاوند) **تكاتب** أمراء الجند بينهم .. **وكتب** سعد بن أبى وقاص إلى الخليفة بهذا ، **وكتب** لعبد الله بن عبد الله بن عتبان .

وفى ذكر (فتح أصبهان) **كتب** عبد الله بن عبد الله إلى عمر .

وفى ذكر (فتح قومس وجرجان وطبرستان) **كتب** نعيم إلى عمر بالبشارة وأخماس (الرِّى) .. **وكتب** إليه الخليفة يأمره بإرسال سويد بن مقرن ومعه نفر إلى قومس ، **وكتب** سويد إلى أهل جرجان بالصلح ، **وكتب** إلى ملك جرجان .

وفى ذكر (فتح أذربيجان) **كتب** عقبة بن فرقد إلى بكير ..

وفى ذكر (موقان) **كتب** سراقة إلى الخليفة بالفتح ، ثم **كتب** له بفتح خاقان ويزدجر .

وفى ذكر (فتح سجستان) **كتب** سلم بن زياد إلى الخليفة .. **وكتب** إلى عمه معاوية بن أبى سفيان بالفتح . **وكتب** أبو موسى الأشعرى إلى الخليفة .

كان هذا آخر مكتوب ذكره ابن الأثير، ذكر بعده وفاة الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).

ألا رأيت كيف كان التعامل بينهم وقتئذ ، ألا رأيت كيف خدمت الكتابة الإسلام حين بَعُدت المسافات بين عاصمة الخلافة فى الحجاز وبين الأمصار التى فتحت شرقاً وغرباً ، أما رأيت أن الكتابة كانت تسير والسيف جنباً إلى جنب ●

- ٨ -

خـاصيـــــة المكــــاتيب

للقارئ أن ينـظر من خلال هذا الفصل كـيف أخذ يخـصص ويعاين هؤلاء ، الذين يوصــمون ظلماً بعموم الأمية ، مكاتيبهم .

الكتاب

من خلال ما مـرّ بك فى كلامهم ستلمس أن (الكتاب) عمـومى اللفظ عندهم جاز له أن يطلق على كل (مكتوب) ، فـمثلاً أنت رأيت سراقـة بن مالك يقول للنبى (صلى الله عليـه وسلم) حين سأله (ماذا تبغى منا) ، فأجابه : تكتب لى كتاباً يكون بينى وبينك .. فهل يمكن تصور الكتاب ههنا كالكتـاب الذى فى ذهن كل واحد منا ؟ أو كـالكتاب الذى جاء ذكـره فى القرآن ؟ وعنى كـتاب اليهود أو كتاب النصارى أو غيرهما .

الصحيفة

يبدو أنها أصلاً كانت تشـمل أسفار الأنبياء ويذيعها الأحبار والرهبان فـاقترنت بذكرهم ، ومرّ بنا ذكرها فى القرآن لكن جمـيعه جاء فى صيغة جمع . (ألم ينبـأ بما فى صحف موسى) ، (رسول من الله يتلو صـحفاً مطهـرة) ، (إن هذا لفى الصحف الأولى) ، (صحف إبـراهيم وموسى) ، (فى صحف مكرمة) ، (وإذا الصحف نُشرتْ) . ويأتى أيضاً (صـحائف) لكن لـم يأت بهذه الصيغة فى القرآن ، إنما ورد فى أشعارهم وكلامهم . قال صخر الغَّى :

أبلـغ كـــبـــيـــراً عنى مـــغـلفـــة ... تبـــرق فـــيـــهـــا صـــحـــائف جـــدد

إلا أن الصيغة الأولى أخف نطقـاً وأجمل لفظاً ، فكان لها الشيوع حتى يومـنا هذا ، ونحسبهم استعاروا لفظها للمكاتيب ذات الأهمية . مثل العـهود والأمور التى لا تبعد عن جلالها ، فكان عبد الله بن عمرو لديه صحيفة تسمى (الصادقة) يسجل بها ما يسمعه من النبى «ﷺ» ، وكانت هناك (صحيفة المقاطعة) التى تعاهد بها كثير من القريشيين على مقاطعة رهطين منهم (هاشم) و(عبد المطلب) .

و(صحيفة لقيط) التى ذكرتها آنفاً وفيه قصيدة تحذير لقومه إياد بالجزيرة من إغارة ملك الفرس:

سـلام فى الصحـيفـة من لقـيط إلى مـن بـالجـزيـرة مـن إيـاد

وقد ذكرت الصحيفة فى كتابة الديْن ، والدين على ما نعلم فيه عهد من المدين للدائن ، وفى الغالب كانوا يشهدون أو يضيفون (شهد الله) .

وقد تتحرر الصحيفة من هذه الخاصة إلى العموم ، لكن يبدو مقصدها فى العموم هو (الصفحة) أى المقصود عموم اللفظ وليس الخاصية ، فنحن رأينا على سبيل المثل لقيط بعث لقومه صحيفة يحذرهم فيها ، فهل يمكن تصور صحيفته هذه كصحيفة عبد الله بن عمرو التى كان يسجل بها ما يسمعه من النبى «ﷺ» ، أو كصحف الرهبان والأحبار .. وذكر الصحيفة ظل يلازم القصص الدينى حتى صدر الإسلام ، ففى (تقيد العلم) يذكر الخطيب البغدادى عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قوله : أصبت أنا وعلقمة صحيفة فانطلقنا بها إلى عبد الله بن مسعود ، فلمّا دخلنا عليه قلنا هذه صحيفة فيها حديث حسن ، فقال : هاتها .. يا جارية هاتى طست واسكبى فيه ماء ، فلما جاءه الطست جعل يمحوها بيده ويقول : "نحن نقص عليك أحسن القصص" ، فقلنا : انظرها فإن بها حديثاً عجبا .

المجلة

كانت المجلة تختص أيضاً بحكم الحكماء وبآيات من (الكتاب المقدس) وقد جاء فى ذكر (سويد بن صامت) اليثربى أنه قدم مكة حاجاً أو معتمراً فتصدى له النبى «ﷺ» حين سمع به ودعاه إلى الإسلام فقال سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال النبى «ﷺ» : وما الذى معك ، أجاب سويد : معى مجلة لقمان [1] فقال الرسول «ﷺ» : اعرضها على فعرضها سويد عليه ، فقال الرسول «ﷺ» : هذا كلام حسن ، معى خير قرآن أنزله الله على هدى ونورا ، وتلا عليه القرآن ، ودعاه إلى الإسلام .. فلم يبعد وقال : هذا الكلام حسن ، ثم انصرف . وورد فى قصيدة النابغة الذبيانى (كلينى لهم يا أميمة ناصب) التى مدح بها عمرو بن الحارث الغسانى المسيحى قوله :

مـجـلتـهم ذات الإلـه ودينـهم قـويم فـمـا يرجـون غـيـر العـواقب

الزبور

كان يختص الزبور أيضاً بآيات من (الكتاب المقدس) وملازمة ذكر الأنبياء والأحبار والرهبان

(١) يعنى (حكمة لقمان) .

على نحـو ما جاء فى القـرآن الكريم وفى أشعـارهم وكلامـهـم (فإن كـذبوك فقد كـذب رسل من قبـلك جاءوا بالبـينات والزبر والكتاب المبين) ، (إنه لفى زبر الأولين) . وخـير كـلام نذكره بعـد القرآن كـلام الرسول «ﷺ» حين كـتب لمصعب بن عـمير بعد أن أرسله إلى المسلمـين اليثـربيين معلماً يقول : أما بعد فانظر اليوم الذى تجهر فيـه اليهود بالزبور لسبتهم فأجمعوا نساءكم وأبناءكم فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فتقربوا إلى الله بركعتين .

وذكر أيضاً أنه الـكتاب الذى تُدون فيه أعمـال البشر ويدون فيـه الحساب ليوم الحـساب ، وقد ورد فى القرآن على هذا النحو (أم لكم براءة فى الزبر) ، (كل شىء فعلوه فى الزبر) .

وعلى هذا النحو أيضاً ورد فى أشعارهم قال أُمية بن أبى الصلت [١] :

وابرزوا بصـعـيـد مـسـتـوٍ جـرز   وأنزل الـعـرش والمـيـزان والـزبر

وقريب من هذا وذاك قول خزر بن لوذان [٢]:

وكـــذاك لا خـــيـــر ولا   شــــر على أحـــد بـــدائـم

قـــــد خـط ذلـك فـى الـزبـو   ر ، الأولـيـــات القـــدائـم

وقد يبعد عن هذه الخاصية ويستعار للتشبيه مثل ما جاء فى قول لُبيد بن رُبَيْعَة العامرى :[٣]

وجـلا السـيـول عن الـطُلولِ كـأنهـا   زبر تجـد مـتـونهـا أقـلامـهـا

وقول امرئ القيس :

لمن طـلل أبصـرته فـشـجـانى   كـخط زبـور فى عـسيب يمـانى

وقوله :

أتت حجج بـعدى عليهـا فأصبحت   كـخط زبـور فى مـصاحـف رهبـان

وقال أيضاً : [٤]

أو زبر حـمـيـر بينهـا أحـبـارها   بالحـمـيـرية فى عـسـيب يمـانى

---

(١) (لنصرانية وآدابها) .
(٢) نفس المصدر .
(٣) (معلقته) .
(٤) جميعها (بديوانه) .

وقول المِخَش العقيلي :[1]

كـأن بحـيث استـودع الدار أهـلهـا ... مـخط زبور مـن دواة وقـرْطس

وورد فـى كلامـهـم (زبـرت الكتاب) بمعنى كتبته، وخـبرتـه بالـذال ، قال أبو ذؤيب الهذيلى[2]

عــرفت الـدار كـــرقم الـدوا ... ة يذبـره الكتـــاب الحـــمـيــرى

لكنه لم يرد فى كلامـهم بعثت إلى فلان زبوراً بمعنـى بعثت إليه مكتوبـاً بعيداً عمّـا مر بك من خاصية الزبور .

الأوصروالإثروالوصر

الأوصر والإصـر والوصر صرف لمعنى واحـد يعنى المكتوب الخاص بالإقطاع أو الإقطاعـيات التى كان يقطعها ملك أو أمير أو زعيم قبيلة لأحد .. يقول عدى بن زيد :[3]

فـــأيـكم لـم ينـله عُــــرف نائـله ... دثراً ســواها وفـى الأرياف أوصــارا

وقال آخر :

واتخـذت صِـدامـا[4] للمكوث بهـا ... ولا انتـــقـــشك إلاّ للـواصـــرات

السجل

السجل كان له خاصية الأوصر ويتجاوزها إلى تسجيل أى عقود .

القــط

وجمـعه قِطاط وقطوط وكـان هذا المكتوب خاصـاً بالجوائز من خـير وشر .. قـال الأعشى فى الحال الأول :

---

(١) (النصرانية وآدابها) .

(٢) (الاقتضاب) الجزء الأول .

(٣) ذكره الزمخشرى فى (الفائق) الجزء الثانى ، والبيت الثانى ذكره فى (أساس البلاغة) الجـزء الثالث ، واوردهما ذكتور ناصر الدين الأسد فى (مصادر الشعر الجاهلى) .

(٤) (صداماً) اسم لفرس .

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطة يعطى القطوط ويأفق

وقال المتلمس فى الحال الثانى : [١]

ألقيتها فى الثنى [٢] من جنب كافر كذلك أقنو كل قط مضلل

وقد مر بنا مجيئه فى القرآن : (ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) .

المغلفة

هى الرسائل التى كانت تُنقل من بلد إلى آخر ، وقد مرّ بك طائفة منها ، مثل رسالة عبد المطلب إلى أخواله ورسالة جده قصى بن كلاب لأخيه رزاح ، ومثل رسالة الوليد إلى أخيه خالد ، ورسالة بجير إلى أخيه كعب ، وغيرها .

يقول صخر الغّى [٣] :

أبلغ كبيراً عنى مغلفة تبرق فيها صحائف جددُ

فيها كتاب ذبرٌ لمقترئٍ يعرفه البهم ومن حسدوا

وورد فى كلامهم ذكر البريد والمغلفة معا بما قد يوحى بأنهم عرفوا البريد عن طريق الفرس لا سيّما إنْ كان اللفظ فارسى، لكن لا نحسب أن ظروفهم حينئذ تجعلهم يتخذون له شكلاً نظامياً.

قال سعيد بن العاص [٤]

يا راكباً إمّا عرضت مبلغا بريداً

عثمان أو عفان أو بلغ مغلفة أسيداً

فلا أمدحنّ الوافدين بمديحة تأتى سَرُوداً

حسناً دوابرها أحبِّرها فتحسبها بُرودا

(١) ذكرهما البطليموسى فى (الاقتضاب) الجزء الأول .

(٢) (الثنى) منعرج الوادى وكافر ، جزء متسع من الأرض يغطيه الماء ، أو الجزء المتسع من بحيرة أو تلعة .

(٣) (النصرانية وآدابها) .

(٤) فى (جمهرة نسب قريش) ، فى (ذكر نسب عثمان بن الحويرث) .

الآيـــة

تعنى أيضاً الرسالة المنقولة ، قال أبو العاص بن أمية أو غيره :

أبـلغ لـديـك بـنى أمـــــيــــــة آيـة نصـــــحـــــا مـــبـــــينـا

أنّـا خلـقـنا مـــــصــلحـــــيـن ومـــا خـلـقـنا مــــفـــــسـدينا

يقول الأستاذ محمود شاكر [1] : الآية تعنى الرسالة وهذا معنى أغفلته كتب اللغة وأول من جاءنى بالحجة عليه أبو جعفر الطبرى فى تفسيره الجليل فى الجزء الأول صفحة ١٠٦ واستشهد بقول كعب بن زهير :

ألا أبـلغـــــا هذا المعــــرِّض آيـة أيقظان قــال القــوْل إذ قــال أم حلم

قال : يعنى بقوله (آيةً رسالة منى وخبر عنى وقد كنت أشرت إلى نحو هذا فى (طبقات فحول الشعراء) فى شرح هذا البيت صفحة ٨٩ تعليق ٤ مع إبهام فى العبارة عنه ، فلما جاء تفسير الطبرى جمعت له أكثر من ثلاثين شاهداً من كلام العرب وشعرهم .

الــــرق

قالوا : إذا كان الكتاب من جلد فهو (رق) ، ومرّ بنا ذكره فى القرآن : (وكتاب مسطور) ، (فى رق منشور) .

وقال طرفة بن العبد [2] :

كـــــسطـور الرق رقـــــشـــــه بالـضـــحى مـــرقش يشـــمـــه

وقال حاتم الطائى [3] :

تـعــــرف آثار الـديـار توهـمـــــاً كـــخطٍ فى رق كــتـــاباً مـنمنمــــا

ويُنسب لخالد بن الوليد قوله :

هل تـعـــرف آثـار الديـار توهمـــــا كـالرق أجرى عليــها حـاذق قلمـا

---

(١) فى (نسب قريش وأخبارها) للزبير بن بكار ، بشرح وتحقيق محمود شاكر .

(٢) (ديوانه) .

(٣) البيتان ذكرهما أبو الفرج الأصفهانى فى (الأغانى) عند ذكر حاتم الطائى وعند ذكر خالد بن الوليد .

المهـــرق

هو مكتوب خـاص بالملوك والأمراء والمترفين من الأغنيـاء إذ إن أصله قطعة من حـرير تُعد ثم تصقل بالصمغ ثم بالخرز ويكتب فيها فتصير عندئذ مهرقا . وجمعه مهارق وأصله فارسيس وكان ذا شأن عظيم عندهم ، ومنهم انتـقلت معرفتـه إلى الحيرة ومن ثم إلى داخل الجزيرة العـربية ، وقد تكون معرفـة عرب الجزيرة به معـرفة مباشـرة .. وورد ذكر هذا النوع الراقى كثيـراً فى أشعارهم ، يقول الحارث بن حلزة [1] فى :

لمن الـديار عـــفـــون بـالحُـــبش ... آياتـهـــا كـــمـــهـــارق الفـــرس

وقال الأعشى [2] :

ربى كـــريم لا يـكدر نعـــمـــتـــه ... وإذا يناشـــد بـالمهـــارق أنشـــدا

وقال أيضاً [3] :

ســلا دار لـيلى هل تبـــين فـــتـنطق ... وأنى ترد الـقـــول بيـــضـــاء ســملق

وأنى تـرد القـــول دار كـــأنهـــا ... لطول بـلاها والتـــقـــادم مـــهـــرق

وقال سحيم بن خويلد [4] :

تســـمـع أصـــوات كُــــدْرِىٍّ ... مـثل الأعـاجم تغش المهـرق والقلمـا

وقال الأسود بن جعفر :

سطور يهـــوذيين فى مـهـرقـيــهـمـا ... مـجـيـدين من تيـمـاء أو أهل مـدين

وقال سلامة بن جندل :

لـبس الـرواسم والجـــديـد بلاهـا ... فـتـركن مـثل المهـرق الأخـلاق

وقال الحارث بن حلزة :

واذكـــر حـلف ذى المجـــاز ومـــا ... قُـدِّم فـيــه العـهـود والـكفــلاء

حـــذر الجـور والتـعـدى ، وهل يُنـ ... قص مـــا فى المهـــارق الأهواء .

---

(١) (المفضليات) صفحة ١٣٢ .

(٢) (النصرانية وآدابها) .

(٣) (أدب الكتاب) للصولى صحفة ١٠٣ .

(٤) هذا البيت والأبيات الأربع التالية ذكرها دكتور ناصر الدين الأسد فى (مصادر الشعر الجاهلى) .

القطيم

هو المكتوب الذى كان من جلد أبيض ، ذكره الزمخشرى فى (الفائق) [1] ، قال : إن الوحى كان يُكتب فى عهد الرسول «ﷺ» على القُطيم . يقول زهير بن أبى سُلمى [2] :

كأن دماء المؤسدات بنحرها ... أطيبة صرف فى قطيم مسرّد

وقال امرؤ القيس [3] :

فعادى عداء بين ثور ونعجة ... وبين شبوب كالقطيمة قَرْهب

وقال علقمة بن عبَدَة [4] :

وذكرينيها بعدما نسيتها ... ديار علاها وابل معتبق

بأكناف سمّات كأن رسومها ... قطيم صنّاع فى أديم منمق

وقال النابغة الذبيانى :

كأن مجر الرامسات ذيولها ... عليه قطيم نمقته الصوانع

القرطاس

قيل [5] القرطاس يستعمل فى كل بطاقة يكتب فيها ، ذكر هذا البطليموس فى كتابة (الاقتضاب) .

وصف الكتابة

بعد أن رأينا أنّى كانوا يخصصون ويعاينون مكاتيبهم نرى الآن أنى كانوا يصفون كتابتهم .

كانت الصفحة التى كتب عليها بعد مسح يطلقون عليها (طرس) أى الصفحة التى كان بها كتابة ومُحيت ، ثم كتب بها ثانية . وقالوا : رقمت الكتاب رقماً ، أى بينت حروفه ونقطه ، ولمقته

---

(١) أورد هذا أيضاً دكتور ناصر الدين الأسد فى نفس المصدر .

(٢) ديوانه .

(٣) ديوانه .

(٤) (النصرانية وآدابها) ، وفى (معجم ما استعجم) صفحة ٥٠٥ .

(٥) لى فيه حديث قادم .

لمقا ونمقته تنميقاً وحبرته تحبيراً ، أي سطرته ونسقته ورتبته ، ونبقته تنبيقاً ، أي جمعته وسويته ، ورقشته وزبرجته وزخرفته ، كل ذلك إذا كتب كتابة حسنة ، فإذا نقطه قال وشمته وشماً ونقطته نقطاً وأعجمته إعجاماً ورقمته ترقيماً .. وقد ورد هذا فى أشعارهم يقول طرفة بن العبد (١) :

كسطور الرق رقشه ... بالضحى مرقش يشمه

وقال المرقش (٢) :

الدار قفر والرسوم كما ... رقش فى ظهر الأديم قلم

وقال سلامة بن جندل (٣) :

لمن طلل مثل الكتاب المنمق ... خلا عهده بين العليب فمطرق

أكب عليه كاتب بدواته ... وحادثه فى العين جدّ مهرق

وقال معاوية بن مالك (٤) :

من الأجزاع أسفل نُميْلٍ ... كما رجعت بالقلم الكتابا

كتاب محبر هاج بصير ... ينمقه وحاذر أن يُعابا

وقال رؤبة (٥) :

دار كرقم ... الكاتب المرقش

وقال أبو ذؤيب الهذيلى (٦) :

برقم ووشم كما نمنمت ... بمشيها المزدهاةُ الهدىٌّ

ثم إن القدماء الذين عنوا هذا كالصولى والبطليموسى وغيرهما ذكروا أيضاً وصف الجاهليين لعكس هذا ، أى وصفهم لفساد الخط وعدم وضوحه ، ودقة حروفه أو كبرها أو طولها أو مدها ، أو استدراك الكاتب لكلمة أو جملة فألحقها بين السطور أو فى عرضها ، ولكل صفة منها اسم

---

(١) ديوانه بشرح الأعلم وتحقيق درية الخطيب ولطفى الصقال .
(٢) الفضليات صفحة ٢٣٧ ، و(الاقتضاب) الجزء الأول .
(٣) (الأصمعيات) صفحة ١٣٢ .
(٤) (الأصمعيات) صفحة ٢٦٣ ، و(المفضليات) صفحة ٣٥٨ .
(٥) (الاقتضاب) ، الجزء الأول .
(٦) المرجع السابق ، الجزء الأول .

يعاينها ، وذكروا أيضاً وصفهم لأدوات الكتابة غير أني أكتفى بهذا إذ أرى ولعلك ترى معى أننا لم نعد نتوسع ونعنى بأمر أوصاف الكتابة وأدواتها كما توسع وعنى هؤلاء الذين يوصمون بعموم الأمية ●

- ٩ -

القرآن وأميتهم

لعلك تتساءل بعدُ : أنّى وصف القرآن العظيم هؤلاء بالأمية ؟ : إن القرآن لم يعنِ وصفهم بأمية القراءة والكتابة ، وإلا كان القرآن - والعياذ بالله - يناقض الواقع أو ما كان واقعا ، إنما الذى يناقض ما كان واقعاً هم دعاة التعمية وأن القرآن عنى بأميتهم (أمية لكتاب سماوى) . أى إن العرب قبل مجىء القرآن لم يكن لهم ما كان لليهود والنصارى من كتب دينية ، وهذا ما ورد فى تفسير السلف من العلماء المعنيين وذكره ابن هشام فى (سيرته) إذ قال فى شرح الآية العشرين من سورة آل عمران : (قل للذين أوتوا الكتاب والأميين) . إن الأميين هم الذين لا كتاب لهم مثل كتب اليهود والنصارى .

وعلى هذا النحو أورده الطبرى فى (تفسيره) . قال : إن الأميين هم الذين لم يؤتوا كتاباً ، أى الوثنيين من العرب .. بل إننا إذا ما تأملنا هذه الآية لوجدناها مفسرة أو أدنت نفوسنا من هذا التفسير عند الوهلة الأولى ، وتحقق ما فى خلدنا عند البحث والدرس ، أو حتى السؤال .

ثم أكد العلماء هذا بتفسيرهم وشرحهم للآية الثامنة والسبعين من سورة البقرة (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانىّ) . فإن الأمية هنا أيضاً لا تعنى الجهل بالقراءة والكتابة إنما تعنى (الفطرة) وذلك يبدو أكثر وضوحاً ولا لبس فيه حين فسروا كلمة (الأمانىّ) بأنها القراءة ، وحسبنا أن يقرّها الشيخ [1] (محمد محيى الدين عبد الحميد) علم من أعلام العربية . وعليه يكون تفسير الآية هكذا : ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا قراءة تكون الآية هكذا (منهم أميون لا يعلمون الكتابة إلاّ قراءةً) . فهل نظن أن القرآن يأتى بتناقض - معاذ الله أن يكون - إنما المقصود الفطرة ، أى أن هؤلاء يقرأون الكتاب على فطرتهم دون تأمل وبحث ، وقد لا يكون المقصود بهذا العرب أو قُصد أهل الكتاب منهم ضمن ما قصدت الآية إذ إنها تخاطب أهل الكتاب .

والمقصد النهائى لهذه الآية : أن أهل الكتاب يقرأون كتبهم على فطرتهم دون أن يعلموا أنها

(١) كان - رحمة الله عليه - أستاذاً فى كلية اللغة العربية بالأزهر ، وهو ههنا الذى راجع (سيرة ابن هشام) وضبط حواشيها ، وللشيخ مؤلفات قيمة وعديدة منها شرحه لكتب (ابن هشام المصرى النحوى) شرحاً قيماً .

حُرفت ونُقل بعض الكلم عن مواضعه . ويصدق لدينا هذا أن آية سبقتها تقول : (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) . ثم إن الآية التى تليها تقول : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) .

وقد فسر بعض العلماء كلمة (الأمانى) بمعنى التلفيق [1] والأكاذيب ، أى كلام وضعه فريق من أهل الكتاب للحصول على مال أو مُلك باسم الدين . وهذا الشرح والتفسير لا يغير مقصود الأمية فى الآية بأنها (الفطرة) وبأنها القراءة مجرد قراءة وترديد دون عقلانية وتأمل .

أما الآية الثانية من سورة الجمعة (هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) . فقد قال بعض المفسرين فى (الأميين) نفس القول السابق ، أى هم (من لا كتاب لهم) وجاء تفسيرهم على هذا النحو (هو الذى بعث فيمن لا كتاب لهم رسولاً منهم يحمل إليهم كتاباً ليزكيهم ويعلمهم آياته وحكمته ، واستطردوا مستشهدين بالجزء الثانى من الآية وقالوا : إن مجيء (وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) هو نفسه تفسير لهذا .. وقال بعضهم : المقصود بالأميين فى هذه الآية ، هم الوثنيون الذين كانوا لا ينصاعون لأحكام الله .

وكما نرى أن أياً من العلماء القدماء والمحدثين لم يذكر أن ورود كلمة (الأمية) فى القرآن تعنى أمية القراءة والكتابة .. عجباً وهل كان مصطلح أمية القراءة والكتابة معروفاً حينئذ .

أما الحديث الذى ورد عن النبى «ﷺ» : (نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) ، فحسبى أن أشير إلى المناسبة التى قيل فيها وعلى الفور سيتضح لك قصد النبى «ﷺ» من قوله هذا ، وأنه لم يقصد جهل أمته بالقراءة والكتابة . وهذه المناسبة هى (رؤية هلال رمضان) أو غيره من الشهور العربية ، أحسبك فهمت الآن مراد النبى ، وهو أننا أمة نعتمد على رؤية الهلال ولا نحسب ولا نكتب تقويماً مسبقاً لشهورنا إلا بعد أن يبدو لنا الهلال ، وهذا هو رأى علماء تخريج الأحاديث .

وأحسب أن هذا أمر عملنا به حتى عهد قريب ولا زلنا نعمل به شكلاً وسنة .. وهل كان يقول النبى «ﷺ» بما يخالف القرآن ، ألم يذكر القرآن علم الأمة بالعدد والحساب ؟ : (وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد

---

(١) ارجع لشرح الشيخ محيى الدين لترى حجته ودلالته بما استشهد به ، وسيأتى فى موضع قادم حديث لعمر بن الخطاب يدل على أن (الأمانى) تعنى القراءة .

السنين والحساب . وكل شيء فصلناه تفصيلا)، (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) .. وهل الأمة الأمية هى التى تدون دوينا كالذى أمر بإنشائه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وأحصى فيه عددهم كبيراً وصغيراً ، وكان العامل الأساسى فيه هو الوقوف على الحالة الاجتماعية للجنود حين كثر المال ورأوا أن يكون العطاء ذا جدوى .

بل إنه مرّ بك فى كلام النبى ﴿ﷺ﴾ ذكر دقة الحساب وذلك نجده بعهده لأهل نجران : (هذا[1] كتاب محمد النبى رسول الله لأهل نجران إنه كان له عليهم حُكْمه فى كل ثمرة صفراء أو بيضاء أو سوداء ، أو رقيق فأفضل عليهم وترك ذلك كله على ألفى حُلة حُلل الأواقى فى كل رجب ألف حلة وفى كل صفر ألف حلة كل حُلة أوقية فما زادت حُلل الخراج أو نقصت على الأواقى **فبالحساب** وما قبضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم **فبالحساب** .

أما ترى فى قول الرسول ﴿ﷺ﴾ توخى الدقة فى الحساب ، أما ترى فيه الحرص عليه والحث على العمل به .

وفى نهاية هذا الفصل يبدو لنا أنهم لو كانوا أميين قراءة وكتابة لجاءتهم آيات مادية عينية يلمسونها ويرونها ، ولأنهم كانوا غير ذلك جاءهم كتاب بليغ معجز يفوق ثقافتهم اللغوية ويقفون أمامه صاغرين ، وإن من آيات هذا الكتاب ما جاءتهم بخطاب التحدى : (إن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) ، (قل فأتوا بسورة مثله) ، (قل فأتوا بعشر سور مثله) ، بل إن التلويح بهذا يردده العلماء صباح مساء .. ●

---

(١) ارجع إلى هذه الوثيقة فى الفصل الذى عقدته عن (رسل ورسائل النبى) وأشرت إلى المرجع هناك .

ما معرفة عموم عرب الجزيرة بالقراءة والكتابة

بدا لنا أن أهل مكة ومعهم أهل يثرب فى هذا الحين حازوا على القدر الأعظم من اهتمام كتاب السير والأخبار دون غيرهم من العرب ، وهذا أمر طبيعى لكون الرسول «ﷺ» من هذه المنطقة ولكونه جديراً بهذا ، وأن وقوفنا على هذا الأمر أو أن الحجة الدامغة فيه ستكون من خلال اتصال سائر العرب بالنبى «ﷺ» واتصال النبى بهم ، لكن قبل أن نتطرق إلى سائر العرب جملة علينا أن نقف أولاً على معرفة أهل المدينة بالقراءة والكتابة . يقول ابن سلام فى (طبقاته) عند تقييمه الشعراء الجاهليين : كان أهل القرى يكتبون لجوارهم أهل الكتاب ، وجعل أولى هذه القرى المدينة، فمكة ، فالطائف ، فاليمامة ، فالبحرين .

ويقول الطبرى فى (تاريخه) : إن المدينة كانت كاتبة .

ويذكر هذا أيضاً ابن سعد فى (طبقاته) .

بينما يقول ابن هشام فى (سيرته) : إن بيوت العبادة لليهود فى المدينة كان يطلق عليها (المدْراس) لأنها حينئذ لم تقتصر على العبادة إنما كان يلقى بها التعليم غير الدينى .. وكما يبدو لكَ من لفظ المدراس أنه صيغة مبالغة ، ولا يخفى عليك أنها تُصاغ على هذا النحو دلالة على كثرة ما صِيغَت منه .

ويؤكد لنا ما قاله الأخباريون وكتاب السير بيت من الشعر قاله سمّاك اليهودى يخاطب به الأنصار:

وكانوا الدارسين[1] لكم علم ... به التوراة تنطق والزبور

ويذكر المسعودى وغيره ممن تناولوا سيرة زيد بن ثابت بأنه تعلم اللغات الأجنبية على أصحابها بالمدينة ، لكن أمر المدينة هنا يختلف عن أمر مكة ؛ فمكة كان يستوطنها العرب منذ عهود بعيدة سواء كانوا عاربة أو مستعربة ، أما المدينة فكان اليهود هم السابقين إلى استيطانها ، ثم نزح إليها من اليمن قبيلتا الأوس والخزرج ، فيكون السبيل إلى معرفة متى وكيف عرف سكان المدينة الكتابة

---

(١) يقصد قومه اليهود ، وهذا البيت ضمن بضعة أبيات قالها عقب اغتيال كعب بن الأشرف اليهودى على أيد المسلمين بعد أحداث جرت بينهم .

الشمـالية أو يدنو من هذه المعـرفة أمراً صـعباً ، فالعنصران الأسـاسيـان بها غريبـان عن الشمـالية وأحدهما غريب عن العربية كلية . إذ قيل إن أصل اليهودية جاءت إليها من فلسطين مع أصحابها الفارين من تعسف الرومان ، وهم الذين أطلقـوا عليها اسم المدينة وهو تـصحيف للفظ (مـدينتا) العبرى أو الآرامى ، ثم تهود بعض العرب ، وثمة من [1] يذكر أن العمالقة هم أول من سكن هذا البلد وظلوا به حـتى مجىء اليهـود فى القرن الثـانى الميلادى ، لكنه لم يذكر أنّـى نزح عنها هؤلاء العمالقة ولا أنّى لقوا اليهود عند مجيئهم إليها .

ثم إن الإسـرائيليين فى هذا الحين لم يكونـوا خالصى الثـقـافة الإسـرائيليـة ؛ فقـد اضطرتهم الظروف لأن يعرفـوا حضـارات عديدة منها المصـرية والآشورية والفـارسية واليـونانية والرومـانية ورأينا فيهم فـلاسفة ومؤرخين وكتـاباً متأثرين بهاتين الحضارتين بـل إننا رأينا هذا التأثر قد تسلل إلى بعض طوائفهم الدينية الكبرى ، مـثل طائفة (الصدوقيين) نسبة إلى الحـاخام الأكبر (صدوق) الذى كانت له ولأبنائه كـهانة الهيكل منذ عهد النبى (داود) ، وبـقيت فيهم حتى عـهد (المسيح) ، وهذه الطائفة على الرغم من تشـددها فى التعـاليم الدينية القديمة إلاّ أن أعيانها وكثير من مـعتنقيها كان مسلكهم المعيشى مخالفاً لهذا ، إذ كانوا يأخـذون بأسباب الحضارة اليونانية والرومانية وكانوا ذا طابع ارستقراطى .

وطائفة أخرى هى طائفة (الأسين) نسـبة (للأسى) وهو لفظ آرامى يعنى الطبيب ، وبلفظه هذا عُرف فى العـربية ، وقيل سـبب إطلاق هذا التعريف عليـهم هو تعاطيهم الطب الروحـانى ، وقيل أيضاً أن مـنشأها كان فـى القرن الثانى قـبل الميلاد بمديـنة الاسكندرية ، ومنزلة الاسكندرية حيـنئذ منزلة حضارية عظيمة ، ثم انتقلت هذه الطائفة إلى فلسطين .

إذن فقد جاء هؤلاء اليهود إلى المدينة وبينهم من تأثروا بهذه الحضارات ، ثم لا ينبغى أن يفوتنا أن الحين الذى أقـبلوا فيـه على المنطقة هو نفس الحـين الذى فرّ فيـه الأنباط عن مملكتـهم ووطنهم الرومان .. فـهل التقى هؤلاء بأولئك وقـرب بينهما أن فـرارهـما لجم عن عدو واحـد . إن الوقوف على هذا بالتحديـد لم يبدُ لى ، غير أنه بدا لنا أنه كان بالمـدينة ضاحية تسمى (سـوق الأنباط) كان ينزل بها الأنبـاط قديماً ، وعند مجىء الإسـلام ذكرت هذه الضاحـية حيّاً للنصـارى ، فهل هؤلاء النصارى هم أنفسـهم الأنباط ؟ إن المصدر [2] الذى ذكر وجود النصارى بهـذا الحى لم يذكر أكثر من كونهم نصارى واجتهد ليثبت هذا .

---

(١) دكتور شوقى ضيف فى (العصر الجاهلى) صفحة ٥٣ .

(٢) الأب لويس شيخو اليسوعى فى (النصرانية وآدابها) .

ثم نزح الأوس والخزرج إليها مع بداية القرن الرابع الميلادى وعليه يكون التقى بهذه المدينة أصحاب حضارات ولابد أنهم نقلوا إليها ما يلائمها من حضاراتهم ولما كانت طبيعة المنطقة غير ملائمة لأسباب الحضارة المعقدة نقلوا إليها أبسط أمورها وعنوا الزراعة فجعلوا منها ومن مناطق دونها واحات وأقاموا أيضاً الصناعات الملاءمة ، ولم يهملوا فيه العمارة كلية فعنوا أبسط أمورها وهى الدور الجميلة ، لكنهم لم يدعوا الحصون والأبراج والأسوار .

والحق أن الفضل فى هذا كله يرجع لليهود وأن اليمنيين جاءوا وهذا الحال قائم ، لكن لا شك أن هؤلاء جميعاً نقلوا إليها أبسط الأمور التعليمية وهى القراءة والكتابة وما استطاعوا حمله من كتبهم الدينية ، وشيئاً فشيئاً يعودون فيتوسعون فيه وهذا ما بدا لنا فعلاً ، فلا أحد يستطيع إنكار انتشار التوراة والزبور والإنجيل والصحف والمجلات الدينية والحكمية فى المدينة وتداول اللغات الأجنبية أيضاً ، وقد رأينا هذا فى سيرة زيد بن ثابت على سبيل المثل والدواعى الظُّهورية ، ورأيناهم يحملون تلك الأسفار والمجلات أينما ذهبوا يهوداً وغير يهود ، والقرآن أشار فى مواضع كثيرة إلى حملهم الأسفار المقدسة ، وسجلت لنا الدواعى الظهورية (سويد بن صامت) وهو غير يهودى يفعل هذا حين تصدى له النبى فى موسم الحج ، إن هذا لا يُنكر لكننا - كما نوهت - لا ندرى على وجه التحديد أنّى ومتى عرفوا العربية الشمالية ، أو متى صارت الكتابة الرسمية لهم جميعاً وبقاء العبرية للتعاليم الدينية لليهود .

الحقيقة أن أمر الوقوف على معرفتها بالكتابة الشمالية أكثر بعداً عن الوضوح من مكة وأقل دلالة ، حتى التضارب الذى رأيناه سالفاً عند الحديث عن نشأة الخط العربى ليس به أى إشارة صريحة إلى المدينة ، غير أنه لدينا دليلان قويان على أن الكتابة كانت قديمة بها :

الأول : هو قربها من موطن الخط النبطى العربى ، ونزول الأنباط أنفسهم بها ، ثم هى دون ممر القوافل وكان بينها وبين مكة صلة وثيقة وتلك أمور تنفى عنها التخلف .

الثانى ، هو يقينى ويتمثل فى انتشار الأسفار والصحف الدينية ومجلات الحكمة وكانت كلها بالعربية وكان ظهورها على أدنى تقدير فى منتصف القرن السادس الميلادى ، وعليه فيكون سبق هذا الزمن زمن ترجمة لهذه الأسفار من العبرية إلى العربية ، ولا يمكن أن نتصور قيام هذا بدون قاعدة علمية ، ومن ثمّ يكون سبق زمن الترجمة والنسخ زمن آخر ألّموا فيه بهذه الكتابة وأتقنوها . بل إن الدلائل تشير بأنهم قننوا بعض مصطلحات تلاءم متطلباتهم اللغوية لدواعى حياتهم الثقافية فى هذا الحين . وتستطيع الاستدلال على هذا من خلال المساجلات الأدبية التى كان العرب يقيمونها فى محافلها وكان لمنطقة الحجاز الريادة فى هذا ، وكان بالمدينة شعراء كبار ، ويلم بهم

شعراء كبار أيضاً وفى إحدى تلك المرات بدا نقدهم فى (موسيقى الشعر) وقالوا لشاعر كبير بعد أن أنشد دونهم : أحسنت أبا أمامة ، غير أنك أقويت . وأبو أمامة هو النابغة الذبيانى ، و(الإقواء) هو اختلاف حرف الروى [1] فى الإعراب ، وفى علم (موسيقى الشعر) يسمى اختلاف حركة (المجرى)، أى اختلاف مجراه من الكسر مثلاً إلى الرفع ، وعندئذ اصطلح على تعريفه (إقواء)[2]، أما القصيدة التى أنشدها النابغة فهى داليّته فى المتجردة . ودونك مطلعها :

أمِن آلِ ميّةَ رائحٌ أو مغتدِ ... عجلان ذا زاد وغير مزوّدِ

أفِدَ التّرحلُ غير أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قدِ

زعم الغراب بأن رحلتنا غدا ... وبذاك خبرنا الغداف الأسودُ

ثم إنه كرر هذا العيب فى البيت الثامن عشر من القصيدة إذ قال :

بمخضب رَخصٍ كأن بنانه ... عَنَمٌ يكاد من اللطافة يعقدُ

فإن قلت إنهم استدلوا على هذا بطبعهم وغريزتهم التى فطروا عليها فسيكون هذا إغفال ، إذ إن الأجدر بهذه الغريزة هم الشعراء وليس من هم أقل منهم حظاً ونصيباً فى هذا . وعندئذ ترى أن تقنينهم لمثل هذه الفصول العلمية كان مرجعهم فى الصواب والخطأ ، وثمّ كان نقدهم ..

والذى لا ينكر وما يعنينا هنا هو أن الكتابة الشمالية كانت تبدو لغير المحقق منتشرة فى منتصف القرن السادس الميلادى على أدنى تقدير . ورغم هذا فقد رأينا من يقلل من شأن الكتابة بها حتى أن البلاذُرى ينزل بعدد الكاتبين فيهم حين دخلها الإسلام إلى أحد عشر كاتباً [3] .

أهمية الكتابة عندهم

يكفى ما نوهت به ، وهو انتشار الكتب الدينية ومجلات الحكمة وترجمتها إلى العربية ، وحملهم هذه الأسفار أينما ذهبوا وكل إشارة إلى غيره تكون دونه وما أكثر ما نشير به وإليه منه ما مرّ بك وما سيمر .. وفى النهاية أقول لعلى أكون وضحت لك أمر المدينة العلمى أو دنوت بك من هذا ولعل ما بقى من حديث عنها يبلغ بنا هذا .

---

(١) (الروى) آخر حرف فى البيت .

(٢) (الإقواء) عرفت أنه اختلاف حركة المجرى ، وهو أحد العيوب الكثيرة التى عرّفها العَروضيون والتى تلحق بالقافية عموماً ، ومن ثم يبدو لك أن الروى هو جزء من القافية ، وحسبى هذه الإشارة ههنا .

(٣) الحقيقة أن هذا الإحصاء للبلاذرى بعيد من أن يؤخذ به ، وسوف أبين لك هذا عند نهاية الكتاب .

بقية أهل الحجاز

ألا ينبغي علينا أن نخص بقية أهل الحجاز بوقفة فى هذا الموضوع ، وإنها وإن كانت وقفة قصيرة إلا أنها تبين لنا أمرهم الكتابى واضحاً . ففى باب القول فى اللغة التى نزل بها القرآن يقول ابن فارس [1] نقلاً عن ابن عباس أنه قال : نزل القرآن على سبعة أحرف منها خمسة بلغة العَجُز من هوازن وهم الذين يقال لهم (عُليا هوازن) وهى خمس قبائل أو أربع (سعد بن بكر) ، (جشم بن بكر) ، (نصر بن معاوية) ، (ثقيف) وأحسب أفصح هؤلاء بنى سعد لقول النبى «ﷺ» أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش وأنى نشأت في بنى سعد ، وكان مسترضعاً فيهم ، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عُليا هوازن وسُفلى تميم ، وعن عبد الله بن مسعود أنه كان يستحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مُضر ، وقال عثمان بن عفان عند كتابة المصاحف : اجعلوا المملى من هذيل والكاتب من ثقيف .

وقال عمر بن الخطاب : لا يملّينّ فى مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف .. ولعل هذا يدلك على كثرة الكتبة فى هذه المنطقة وانتشار الكتابة عموماً حتى ينظر الخلفاء والمعنيون بكتابة المصاحف من يكتب ومن لا يكتب .

بقية عرب الجزيرة والقراءة والكتابة

ذكرت آنفاً أن الحجة الدامغة فيه ستكون من خلال اتصال العرب عموماً بالنبى «ﷺ» ، وأهم هذا الاتصال ، وأهم ما يعنينا هنا هو الاتصال المباشر الذى تمثل فى الوفود ، فإننا رأينا أن كثيراً من هذه الوفود لم ينثنوا عن النبى «ﷺ» إلا ومعهم المكاتيب المختلفة ، بل رأيناهم هم الذين كانوا يطلبون من الرسول «ﷺ» هذه المكاتيب ، فترى لو لم يكونوا قارئين كاتبين ، بل لو لم تكن للكتابة الأهمية عندهم كانوا يطلبونها حجة وبرهاناً بين أيديهم ، فمثلاً هب أن قيس بن سلمة الذى نصبه النبى «ﷺ» رئيساً على مُران ومواليها وحريم ومواليها والكُلاب ومواليها بلغ هذه البلاد وأعلن فى أهلها رياسته عليهم من قِبل النبى «ﷺ» أمَا أحوجه هذا إلى برهان يدفعه إليهم ليصدقوه ؟ وترى لو لم يكن فى هذه البلاد القارئون الكاتبون ، ونتجاوز هذا ونقول ، لو لم تكن للكتابة الأهمية والتقدير عندهم كان حمل إليهم قيس كتاباً ألبته .

وهب مثلاً أن الأرض التى أقطعها النبى «ﷺ» لثور القشيرىّ أو غيره كانت دون قوم

---

(١) فى كتابه (الصاحبى) .

فاعترضوا أن يحوزها ثور ، ألم يقدم لهم حينئذ حجته وهى كتاب النبى «ﷺ» بهذا ، ولو لم يكونوا مقدرين لأهمية الكتابة كان يحمل إليهم هذه الحجة .

بل إنك رأيت كيف انزعجت المرأة التميمية حين طلب صاحبها الشيبانى أن يكتب له الرسول «ﷺ» أرض الدهناء وانبرت معترضة ، وجعلت تبدى للنبى «ﷺ» أسباب اعتراضها حتى عدل عن هذا .

وكانت غالب مكاتيب الرسول «ﷺ» لا تخرج عن هذا كما ذكرت آنفاً ، أى كانت بالرياسة والإقطاع أو الموادعة والأمان والتحالف أو جباية الصدقات أو الجزية أو الفروض .

إذن فهذه حجة دامغة نحتج بها لأهمية الكتابة والقراءة عند عموم العرب ، علاوة على الرسائل التى بعث بها النبى «ﷺ» إلى جميع أنحاء الجزيرة العربية حتى الجُماع الذين كانوا يعتصمون بجبل .. وهناك أمر آخر يدلنا على أن القراءة والكتابة كانت منتشرة فى الجزيرة العربية ، وهذا الأمر يتمثل فى (طلب النجدة) التى رأيناها تصدر عن شعرائهم أو عن بعضهم ، مثلما رأينا من مرقّش حين غدر به الغفلى وحمل امرأته على هذا ، فاستنجد كتابة :

يا راكباً إما عرضت فبلِّغن ... أنس بن سعد إن لقيت أو حرملا

فأنت ترى أن النداء هنا عام إذ إن مقتضى الحال لا يحتمل أن يعنى شخصاً ولا مكاناً بعينه ، لذا جاء بالمنادى منصوباً لفظاً لكونه نكرة غير مقصود بها معين ؟ .

ومثله قول عبد يغوث بن وقاص الحارثى حين أسرته التيم فى يوم الكُلاب الثانى :

أيا راكباً إما عرضت فبلغن ... ندامای من نجران أن لا تلاقيا

وقريب من هذا قول دريد بن الصمة :

يا راكباً إما عرضت فبلغن ... أبا غالب أن قد ثأرنا بغالب

وعلى شاكلة هذا ستجد كثيراً فى الشعر الجاهلى وصدر الإسلام

ألا ترى أنه لولا يقين الشاعر بانتشار القراءة والكتابة ما كان يجىء خطابه عاماً على هذا النحو ●

- ١١ -

تجاوز ابتدائية الكتابة

رأينا شأن المكيين والمدنيين مع القراءة والكتابة شأن من تجاوز ابتدائيتها بعهود ، والآن نحاول أن نلقى نظرة على سائر العرب فى هذا الشأن ، وكما ذكرت مراراً أن المكيين والمدنيين حازوا القدر الأعظم من اهتمام كتاب السير والأخبار ، فاستطعنا من خلال هذا أن نلمس أن الكتابة كان يمكن أن تشكل ضغطاً نفسياً ووسيلة عقابية على المكى ، واستطعنا كذلك أن نقف على تجاوز اليثربيين شأن تلك الابتدائية من خلال التراجم والنسخ وغيرهما كما مرّ بك وكما ستراه لاحقاً ، لكن لأن أمر المدينة كان أقل وضوحاً لا سيما اجتماعياً فنأى بنا على أن نبلغ أثر الكتابة على نفسيتهم بالدليل الذى استدللنا به على المكيين .

وقد استطعنا أن نقف على معرفة العرب بالقراءة والكتابة من خلال اتصال النبى ﴿ﷺ﴾ بهم واتصالهم به ، ورأينا اهتمامهم بالكتابة ، ولعل يكون فى اهتمامهم للحصول على الوثائق الكتابية فى تعاملهم وحرصهم عليها لدليل على تجاوزهم ابتدائية القراءة .

الكتب المترجمة وتعقبها

أبدينا معرفة عرب ما قبل الإسلام بالقراءة والكتابة ، ثم أبدينا تجاوزهم ابتدائيتها وآثارها فى نفوسهم ، ومما احتججنا به على هذا (ترجمة الكتب ونسخها) . ويبدو أن استمرار هذه الكتب بأيدى الناس أزعج الخليفة العادل عمر بن الخطاب (ر)، ففى (تقيد العلم) يقول الخطيب البغدادى : إن خالد بن عُرْفُطة قال : كنت جالساً عند عمر ، إذ أوتى برجل من عبد القيس سكنه بالسوس فقال عمر : أنت فلان بن فلان ؟ أجاب الرجل : نعم ، قال عمر : وأنت النازل بالسوس ؟ أجاب الرجل : نعم ، فضربه عمر بقناة كانت معه ، فقال الرجل : ما لى يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : اجلس ، فلما جلس قرأ عليه عمَر (بسم الله الرحمن الرحيم (الر ، تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص) . فقرأها عليه ثلاثاً وضربه ثلاثاً . فقال الرجل : ما لى يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أنت نسخت كتاب (دانيال) [1] . قال

---

(١) (دانيال) نبى من أنبياء العهد القديم (ع) .

الرجل : مُرنى بأمرك أتبعه ، قال عمر : انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ثم لا تقرأه ولا تقريه أحداً من الناس ، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً لأنهكنَّك عقوبة ، فلما همّ الرجل بالانصراف أعاده عمر للجلوس ، ثم قال : انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من كتب (أهل الكتاب) ثم جئت به فى أديم ، فقال النبى (ﷺ): ما هذا يا عمر قلت : يا رسول الله كتاب انتسخته لنزاد به علماً إلى علمنا ، فغضب [1] الرسول حتى احمرّت وجنتاه .

وفى باب وصف العلة فى كراهة كتابة الحديث من القسم الثانى من نفس المرجع ، يقول الخطيب البغدادى : إنه بلغ عمر ظهور كتب فى أيدى الناس ، فاستنكرها وقال : أيها الناس إنه بلغنى أنه قد ظهرت فى أيديكم كتب فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها ، لا يبقين أحد عنده كتاباً إلاّ أتانى به فأرى فيه رأيى ، فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف ، فجعلوا يأتون بكتبهم ، فلما اجتمعت كلها عنده أحرقها عن آخرها ، ثم قال (أمنية كأمنية أهل الكتاب ...) إنك لو توقفت هنيهة عند قول (أمنية كأمنية أهل الكتاب) لذهب خاطرك على الفور إلى الآية الثامنة والسبعين من سورة البقرة (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانى) فترى أن قصد عمر أن قراءتهم مثل قراءة أهل الكتاب ، أو هم يريدونها كذلك ، وهذا ما أشرت إليه آنفاً عند تفسيرهم لكلمة (أمانى) ، إنما الإشارة إلى شرح الشيخ (محمد محيى الدين) أعظم فائدة .

وروى عن ابن مسعود أن رجلاً جاءه ومعه صحيفة فيها كلام من كلام أبى الدرداء وقصص من قصصه فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تنظر ما فى هذه الصحيفة من كلام أخيك أبى الدرداء ، فأخذ ابن مسعود الصحيفة فجعل يقرأ فيها وينظر حتى أتى منزله فأخذ يدلكها بالماء وهو يقول : الر ، تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، نحن نقص عليك أحسن القصص) .. أقصصاً أحسن من قصص الله تريدون ؟

ونفهم من هذا أن أبا الدرداء كان يكتب هذا الكلام لكنّ مُراد (كتب) هنا لا يُقصد بها معناها المعاصر (ألّف) إنما المقصود أنه كان ينسخ تلك القصص ، وهى قصص الأقدمين ، ولا يفوتنا أن أبا الدرداء كان يثربياً وأن تلك القصص كانت تُذاع على ألسنة يهودييها وقد رأيت أن الجوار بين اليهود والأوس والخزرج دام ثلاثة قرون حتى مجىء الإسلام ، لكن ما دام القرآن العظيم جاء بهذه القصص وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل فعلام النسخ والتكلم بها بعدُ ؟ لِمَ وقد بيّن لكم هذا

(١) أحسبك تتنبه أن النبى (ص) لم يغضب لطلب عمر أو غيره لمزيد من العلم ، إنما هو غضب هكذا لانشغال أصحابه بغير القرآن حينئذ ، وإننا رأينا الرسول فى مواضع كثيرة يحث على طلب العلم وعلى تدوينه ، وإنى سأذكر طرفاً من هذا فى فصل قادم .

الكتاب الذى لا يأتيه الباطل أن تغيراً ومحواً وتبديلاً لحق فيما قبله من كتب ؟ وهذا تلمسه من خلال شأن النبى «ﷺ» مع عمر حين جاءه بالكتاب الذى نسخه ، ومن خلال شأن عمر نفسه مع الرجل العبقيسىّ ، ثم جمعه ما اجتمع عنده من هذه الكتب وحرقها ، ثم من خلال شأن عبد الله بن مسعود .

ويبدو أن الخليفة العادل عمل على القضاء على ترجمة ونسخ ما ترجم من الكتب الأجنبية ، وقد علمنا أن عهده هو العهد الذى صارت فيه الجزيرة العربية إسلامية كلها وانتهى كل دين بها غير الدين الإسلامى ، ومادام الأمر أصبح كذلك فعلام تبقى آثارهم ، وهى آثار مشوّشة ومن ثم رأيناه يحرق ما اجتمع عنده من هذه الكتب ، ثم وعظ الناس وخوّف مَن يقبل عليها .

عبد الله بن مسعود وهذا الأمر

يبدو أيضاً أن عبد الله بن مسعود تتبع هذا الأمر أو تابعه بما يشبه تفويضه إليه ، أو أن اقتران اسمه وعدة مواضع فيه تجعل المتأمل يظن هذا .

من هذه المواضع ما هو دونك من أمر الرجل الذى جاءه بصحيفة فيها كلام من كلام أبى الدرداء وقصص من قصصه . ومنها ما ذكره الخطيب البغدادى : أن ابن قُرّة لما جاء عبد الله بن مسعود بكتاب وقال له وجدته بالشام فأعجبنى ، فنظر فيه عبد الله ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتابهم ، ثم دعا بطست فيه ماء فماثه فيه ثم محاه .. ومنها ما رواه عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه أنه قال : أصبت أنا وعلقمة صحيفة ، فانطلقنا بها إلى عبد الله بن مسعود فلما أذن لنا ودخلنا عليه قلنا له : هذه صحيفة فيها حديث حسن ، فقال : هاتها ودعا يا جارية هاتى طست واسكبى فيه ماء ، جاءته به وضعها فيه وجعل يمحوها بيده ويقول : (الر نحن نقص عليك أحسن القصص) قلنا انظرها فإن فيها حديثاً حسناً .. ويبدو أيضاً أن الناس وقتئذ هبوا للقضاء على هذا الأمر ؛ فعن عمرو بن الميمون الأودى قال [1] كنا جلوساً بالكوفة ، فجاء رجل ومعه كتاب ، فقلنا ما هذا الكتاب ، قال : كتاب دانيال ، فلولا أن الناس تحاجزوا عنه لقُتل ، وجعلوا يقولون : أكتاب سوى القرآن .

ويؤكد لنا النهى عن هذه الكتب ما جاء فى وصف [2] العلة فى كراهة كتابة الحديث قول

(١) نفس المرجع والباب .
(٢) أيضاً نفس المرجع والباب .

الخطيب البغدادى : قد ثبت أن كراهة من كره من الصدر الأول الكتابة ، إنما هى لئلا يضاهى بكتاب الله كتاب غيره ، نُهى عن الكتب القديمة أن تُتخذ لأنه لا يعرف حقها من باطلها وصحيحها من فاسدها وأن القرآن كفى بها وصار مهيمناً عليها . ولما أراد عمر بن الخطاب أن يكتب السنن استشار فيها أصحابه ، فأشار عليه عامتهم بذلك ، فلبث شهراً يستخير الله فى ذلك شاكاً فيه ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : إنى كنت ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا أُناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله وإنى لا ألبس كتاب الله بشىء ، وترك كتابة السنن .

لكن يبدو لنا أيضاً فى أمر القضاء على الآثار القديمة المكتوبة سواء كان بمحوها بالماء أو الحريق أنه لم يكن متعسفاً ولا متعقباً بما يشبه ما كانت تقوم به (محاكم التفتيش) لدى الأوروبيين فى العصور الوسطى ؛ إنما كان يُفعل هذا بالظاهر منها وبعيد عن منال حاملها بالأذى .

أما نظرت إلى قول الخطيب البغدادى : (إنه بلغ عمر بن الخطاب ظهور كتب فى أيدى الناس ، فاستنكرها وقال : أيها الناس إنه بلغنى أنه قد ظهرت بأيديكم كتب) ، ثم نهى الناس عنها بالوعظ مرة والتخويف أخرى ، ثم رأيت شأن عبد الله بن مسعود فى هذا .. ●

- ١٢ -

من الأثر اليهودى إلى العروبة الخالصة

رأينا العلاقة بين اليهود والمسلمين أخذت تسوء حتى انتهت بجلاء اليهود عن المدينة ، ثم عن الجزيرة العربية ، وكان ينبغى على المسلمين فى بادئ الأمر التفكير فى الانتقال ثم التخلص من الاعتماد على اليهود ، وقد مر بنا أن دور العبادة اليهودية بالمدينة كان يطلق على (المِدْراس) لقيامها بالتعليم العام مع التعليم الدينى ، ونستطيع أن نلمس هذا بوضوح عندما رأينا النبى ﴿ﷺ﴾ يأمر زيد بن ثابت أن يتعلم اللغات الأجنبية - على رأى بعض الكتاب - ليخلف به كاتب السر اليهودى ، أو هو من كان ملماً بها من قبل ، وأخلفه النبى ﴿ﷺ﴾ هذا الكاتب اليهودى ، لكن الأحداث التى مرت بها المدينة فى حياة الرسول ﴿ﷺ﴾ ، ثم صارت أعظم ضخامة بعد وفاته والتى تمثلت فى حروب الردة ، ثم الفتوحات الكبرى ؛ كانت بلا شك تشغل الرواة ثم كتاب السير والأخبار عمّا دونها فلا هم يسجلون لنا قيام مدرسة عربية أو كتّاب ، وإن كان ورد فى كلامهم ذكر الكُتّاب ذكراً عابراً وذلك يدل على أنهم لم يعنوا الأمر لذاته ، لكننا رأينا من خلال تلك الأحداث الكبرى عظمة السلف وأثر الكتابة فيهم وحب العلم مما جعلهم رغم انشغالهم بهذه الفتوحات لم يهملوا الجانب التعليمى ، يرسلون إلى العاصمة بالمعلمين وغيرهم لأجل النهضة العربية ، وقد دلنا على ذلك أمر عظيم أيضاً وخطير ، وهو مقتل الخليفة العادل وما أعقبه من غضبة ابنه عبيد الله ، فإنه أثناء تلك الغضبة قتل نفراً كان بينهم معلم من معلمى الحيرة هو جفينة العَبادى ، فتُرى ماذا كان يصنع جُفينة بالمدينة إلا المهمة التى أرسله من أجلها ظئْرُه سعد بن أبى وقّاص وأرسل معه غيره من معلمى الحيرة ، لكن جُفينة وحده هو الذى طفا ذكره من المعلمين لأنه كان ضمن النفر الذين ظنوا أنهم تآمروا على الخليفة وقتلهم عبيد مع أبى لؤلؤة قاتل أبيه ، وقد ذكرت كتب الأخبار والسير أن أمراء الجند كانوا أثناء تلك الفتوحات يرسلون إلى العاصمة المهرة فى كل صنعة ، أفتُراهم يهملون صنعة المعلم وهم الذين يقدرون العلم والتعليم ، وهم الذين رأوا كيف خدمتهم الكتابة حين بعدت المسافات بينهم وبين عاصمة الخلافة فكانت هى وسيلة الاتصال بينهم .. ثم إن هناك ما دلنا على أنه يقين وليس احتمالاً ولا ظناً وهو ما قلت منذ قليل أن ذكر (الكُتّاب) مرّ فى رواياتهم مرّاً عابراً، ففى ذكر أبى أسيد الساعدى يقول ابن سعد [١] فى (طبقاته):

(١) الجزء الخامس منه فى (طبقات الأنصار) .

عن عثمـان بن عبيد الله قال : رأيت أبا أُسيـد الساعدى وأبا هريرة وأبا قتادة وابن عـمر يمرون بنا ونحن فى **الكُتّاب** فنجد منهم ريح العنبر وهو الخلوق ويصفرون به لحاهم .

لعله كان نظام الكتاب هذا قديماً وليس مستحدثاً فى عصر النبى «ﷺ» أو بعيد وفاته كما دلنا عليه حديث عثمان بن عبيد الله ، قد يكون الأنصـار حاكوا اليهود فى دور التعليم وأنشأوا كتاتيب ومدارس خاصة بهم ، وجاء عـصر النبوة فنما هذا الأمر على طريق العروبة الخالصـة ، الحقيقة أن كلا الاحتمالين قائم يعززه دلائل تعليم الصغـار فى سن مبكرة فى العصرين ، وقد رأينا عثمان بن عبيد يحكى إذ كان صبياً فيقول : رأيت أبا أسيد الساعدى وأبا هريرة وأبا قـتادة وابن عمر يمرون بنا ونحن بالكُتّاب .

وهناك قصة أخـرى من العصر الأول ، وهى قصة أول لقـاء لأنس بن مالك والنبى «ﷺ» عند قـدومه إلى المدينة ، فـفى (الطبـقـات الكبرى) أيضـاً يقـول ابن سعـد[1] : قـال أنـس بن مـالك : أخـذت أم سليم بيدى عند مقدم النبى فأتـت بى رسول الله ، فقالت : يا رسول الله هذا ابنى وهو غلام **كاتب** .. وفى موضع آخر قالت : يا رسول الله هذا خويدمك وهو **كاتب** .

وكان أنس بن مالك حينئذ فى الثامنة من عمره ، وإن كان طفل يكتب وهو فى الثامنة فلابد أنه أُلحق بالتـعليم وهو فى الخامـسة أو السـادسة على الأقل ، ولابد أنه كـانت هناك دور ترعى هؤلاء الأطفال تـعليمـياً ، ويعزز هـذا أن حجتنـا ههنا كان من رهط بسطاء ليس فى اسـتطاعتـهم المجىء بمعلم خـاص ، إذن فقـد كـان هناك تعليم شبـه عـام يلاءم عصـرهـم وحـياتهم وكـانت هناك دور مفتوحة للأطفال سواء عربية أو يهودية تعنى بالتعليم غير الدينى كما ذُكر .

وحين نزل النبى «ﷺ» بالمدينة نمت الدور العـربية بلا شك ، ثم أعطيت الاهتـمام الأكـبر إبان شروع النبى «ﷺ» فى التخلص من الأثر اليهودى وغير اليهودى ويكون الأمر عربياً خالصاً ●

---

(١) نفس الجزء السابق .

- ١٣ -

متفرقات فى وسائل رقى الكتابة

الخاتم

هو ما يعرف عند الكثيرين منا اليوم ، أو صار ينطقه الكثير منا (الختم) وهو ما نختم به الوثائق وغيرها ، وقد مرّ بنا أن النبى «ﷺ» عندما أراد مراسلة الملوك والأمراء الأجانب والعرب ويدعوهم إلى الإسلام اتخذ خاتماً من فضة ، نقشه ثلاثة أسطر (محمد رسول الله) وفى التنبيه والإشراف يقول أبو الحسن المسعودى : اتخذ النبى «ﷺ» الخاتم فى المحرم من السنة السابعة وتُعرف بسنة الاستغلاب ، ونقش عليه (محمد رسول الله) وكاتب الملوك ، وافتتح كتبه بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) ، وعن أبى بكر بن عبد الله بن أُبى قال : حدثنى جعفر بن محمد عن أبيه أن النبى «ﷺ» طرح خاتمه الذهب ، ثم تختم خاتماً من ورِق [1] فجعله فى يساره .. ويقول سلمان الفارسى : أتيت النبى «ﷺ» وهو فى جنازة رجل من أصحابه فلما رآنى قال : دُرْ خلفى وطرح رداءه فرأيت الخاتم وقبلته .

وعن ابن عمر قال : اتخذ النبى «ﷺ» خاتماً من ورق فكان فى يده ثم كان فى يد أبى بكر من بعده ففى يد عمر ففى يد عثمان حتى وقع فى بئر أريس فطلبناه فلم نقدر عليه .

وقد اتخذ أمراء النبى «ﷺ» فى حياته الخواتيم يختمون بها مكاتيبهم ، وقد مرّ بنا أن زياد بن لبيد قال للأشعث [2] بن قيس ومن خرجوا معه : اكتبوا ما شئتم وأختمه لكم .

وذُكر أن معاذ بن جبل لما قدم من عمله باليمن ، قدم وفى يده خاتم من ورق نقشه (محمد رسول الله) ، فقال النبى «ﷺ» : ما هذا الخاتم ؟ أجاب معاذ : يا رسول الله إنى كنت أكتب إلى الناس كتباً فأخاف أن يزاد فيها أو ينقص منها فاتخذت خاتماً أختم به .

ويبدو أن هذا الأمر كان منتشراً بين القريشيين حتى قيل للنبى : إن الناس ههنا كأنهم يريدون العجم لا يجرون عندهم كتاباً إلاّ وعليه **طابع** [3]، فقال النبى «ﷺ» : لا ينقش أحد على نقش خاتمى.

---

(١) (ورق) يعنى فضة .

(٢) فى ردة اليمن الثانية .

(٣) يعنى طبعة الخاتم .

وكان لحنظلة أحد كُتاب النبى ﴿ﷺ﴾ خاتم، ورأينا الخاتم أعظم انتشاراً عند خلفاء النبى ﴿ﷺ﴾، وبدا شأنه خطير عند الخليفة الثالث وكاتبه مروان بن الحكم فى أمر مكتوب كتبه للثائرين على الخليفة ، وقيل غافل عثمان (ر)وخاتمه بخاتمه .

وكانت معرفة العرب بالخاتم قديمة . وورد ذكره فى بضعة أبيات قالها امرؤ القيس بعد أن اعتلّ وهو قافل عن أنقرة :

ترى أثر القُرْح فى جلده كنقش الخواتم فى الجرجس [1]

وقيل إن المناذرة كانوا يختمون مكاتيبهم ، وكذلك الغساسنة .. وهذا أمر طبيعى لعلاقتهما الوثيقة بأكبر وأرقى دولتين وقتئذ . وقد رأيت أن القريشيين كانوا يكثرون من هذا ، حتى قيل لا يجرون عندهم مكتوباً إلا وعليه طابع .

المهرق

مرّ بك الحديث عنه وقد رأيت أن أصله قطعة من حرير تعد وتصقل بالصمغ ثم بالخرز ويكتب فيها ، وتلك أداة راقية جداً للكتابة عرفها العرب وأكثروا الحديث عنها فى أشعارهم ، ولك أن تعلم أنه أغلى مكتوب كان يتخذه الفرس وقتئذ ، إذ كان خاصاً بكتابة النصوص الدينية عندهم وكانت الكتابة عليه سُنة متبعة ، وإن كانت منزلة المهرق على هذا النحو عند الفرس وقد اتخذه العرب لبعض أغراضهم الكتابية . فترى أى رقىٍّ وترف هذا ؟

القُطم

هى الصفحات البيضاء وأصلها من الجلد الأبيض ، وقد ذكر الزمخشرى فى (الفائق) : أن الوحى كان يكتب فى عهد النبى على القُطم .

الكراريس والقراطيس والورق عموماً

قد مر بك أن حماداً الراوية قال : إن النعمان بن المنذر أمر فنسخت له أشعار العرب فى (الكراريس) . وقد أنكر على الرجل قوله ، أى التدوين فى الكراريس ، وكنتُ ذكرت أن هذا ليس

(١) (الجرجس) الصفحة التى يكتب بها ، وتجد هذه الأبيات بديوانه ، وتجدها أيضاً فى شرح (المعلقات السبع الطوال) لابن الأنبارى أثناء الحديث عنه .

بمستبعد عن الحيرة مُنشأة الفرس وربيبتها ، ومخرجة أبناءها كتبة وتراجمة فى دواودين الفرس .

وما نحسب أن امبراطورية الفرس تخلفت عن الورق الذى عرفه الصينيون على يد (تس أى لون) فى بداية القرن الثانى الميلادى ، ثم جرى استعماله قبل نهاية القرن نفسه لما بينهما من جوار وعلاقات رفيعة المستوى ، بل إننا رأينا المسلمين فى عصورهم الأولى ينسبون الورق إلى (خراسان) وهو إقليم فارس . وعلى هذا لا يكون الفرس عرفوا الورق الصينى وحسب ، بل واتخذوا له مصانع فى بلادهم . وبما رأينا من منزلة مملكة لحيرة عند الفرس ، وبما رأينا من موقعها العلمى فلا نظنهم غفلوا أو تغاضوا عن هذه الوسيلة السهلة الراقية ، وعن طريقهم انتقل إلى سائر العرب شأنه شأن **المهرق** وغيره .

وهناك وسيلة اتصال أخرى عن طريق القريشيين الذين رأيناهم يخرجون بقوافلهم التجارية إلى بلاد الفرس ويمعنون حتى حدود الصين ، بل قيل إنهم عرفوا الصين نفسها .

وهل سيرة القريشيين التى مرت بك تجعلهم يتغافلون عن الورق تجارة أو استعمالاً ؟ أعنى أنهم إذا لم يكونوا احملوه بغرض التجارة ألا يحملونه لما تستدعيه حاجتهم **الكتابية** .

وقد جاء ذكر الورق فى النصوص الجاهلية كثيراً كذلك ورد فى القرآن ، لكنه لم يأت بما يعنينا هنا ، إنما بمعنى ورق الشجر مرة وبمعنى الفضة أخرى ، أو النقود الفضة ، لكنما عناه بيت من الشعر أورده ابن هشام لحسان بن ثابت فى ذكر يوم (القليب) فى مطلع قصيدته البائية :

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحى فى الورق القشيب

ويصدق لدينا أنه الورق الذى يعنينا ما سبق اللفظ وما تبعه من ألفاظ (فالوحى) يعنى الكتابة وسبق لفظ الوحى (الخط) وأعقبه (القشيب) ومعنى القشيب الجديد . إذن فهو (كخط الكتابة فى الورق الجديد) فلا مجال للشك هنا أنه ورق الكتابة .

وما يعزز هذا أن ابن النديم ذكر أنه رأى أوراقاً يحسبها من ورق الصين [1] بخط يحيى بن يعمر .. ويحيى هذا توفى سنة تسعين هجرية ، وما نحسب أنه كتبه وهو على فراش الموت فقد يكون كتبه قبل هذا التاريخ بعشرين سنة أو بأكثر أو أقل ، وهذا دليل على معرفة العرب للورق الصينى قبل أسرهم للصينيين بعقود ، ويقال لما عزم عثمان بن عفان (ر) على كل رجل معه من كتاب الله شيء أن يذهب به إليه ، وكان الرجل يجيئه بالورقة والأديم فيه القرآن .

---

(١) فى (الفهرست) وهو مما استشهد به دكتور ناصر الدين الأسد وقد تناوله بالزيادة والإيضاح .

وقال عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب (ر) : كنت أكتب المصاحف فى عهد أزواج النبى ، فاستكتبتنى حفصة بنت عمر مصحفاً لها ، فلما بلغت إليها بالورقة والدواة .

وسئل ابن الحنفية عن بيع المصاحف ، فقال : لا بأس أن تبيع الورق . وكان مطر بن طهمان مولى على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) يُعرف بمطر الوراق .

وجاء فى ذكر عبد الله بن عامر أنه قال لمعاوية بن أبى سفيان (ر) حين طلق هنداً بنت معاوية : فرأيت أن أردها إليك لتزوجها فتىً من فتيانك كأن وجهه ورقة مصحف .

ولا نحسب أن ابن عامر يقصد إلى تشبيه وجه ذلك الفتى بالجلد وإلاّ كان وجهه صفيقاً متيناً ، لكنه قصد إلى أنه ذلك الوجه فى نضارته ورونقه وبهائه كالورقة المجلوة .

ثم إنك رأيت أن الرجل كان يجىء عثمان بالورقة والأديم ، وهذا دليل على أنهما نوعان لا واحد ولو كانت الورقة المعنية من جنس الأديم ما كان فصل بينهما هذا الفصل القاطع ولكان قال: وكان الرجل يجيئه بأنواع الأديم الورق منه والصفيق ، أى الرقيق والصديق ، والأبيض والقاتم والمدبوغ وغير المدبوغ وهكذا .

لكنه ما قصد هذا ، إنما قصد أن الرجل كان يجىء بجنس الورق وجنس الأديم .

ومن تشبيه حسان وتشبيه ابن عامر نستدل على أنهم عرفوا أحسن أنواع الورق وأرقاه وإلاّ ما كانوا شبهوا به الوجوه الجميلة النضرة . ويؤكد هذا قول المخبل السعدىٌ يصف وجه صاحبته ويشبهه بالصحيفة قبل أن يكتب عليها :

وتريك وجهاً كالصحيفة لا ظمآن مختلج ولا جهم

القرطاس

وجمعه (قراطيس) وقيل هو (ورق البردى) وهذا النوع من الورق لا يتطرق إليه شك بأن العرب قبل الإسلام عرفوه واستعملوه وأكبر دليل على هذا وروده فى القرآن الكريم (ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلاّ سحر مبين) ، (ما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدىً للناس تجعلونه فى قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) ... وهذا الورق أعظم حضارة من ورق الصين ومن كل ورق حينئذ ، وكان يصدر عن مصر العظيمة التى دونت عليه كل كتاباتها

من الأسفار المقدسة والحكمة والوعظ والإرشاد إلى المعاملات اليومية البسيطة مروراً بالحسابات الكبيرة ، والشعر والقصص والخطب وكل دواعى الكتابة ، ولعل المطلع يرى أن معرفة اليهود به أقدم من أن يعرفوه عن طريق اليونان والرومان إذ كانت إقامتهم بمصر أبعد عهداً من هذا ، ولا نحسب اليهود وحدهم هم الذين عرفوا هذا الورق حينئذ ، إنما عرفه أناس كثيرون من أمم مختلفة من خلال موقع مصر الحضارى .. ناهيك عن الغزاة الذين غزوا مصر وأبرزهم قبل اليونان والرومان الفرس ، فليس من شك أنهم عرفوا هذا الورق وحملوه إلى بلادهم ، وربما كانوا مستوردين له فيما بعد ، لكن كانت السُّنَّة المتبعة عندهم هى كتابة النصوص المقدسة بالمهارق وتلى المهارق الرقوق فلم يبرز ذكر البردى عندهم أو لم نلقه من خلال الروايات العربية .

أما معرفة العرب بورق البردى فمتأخرة عن هذا بكثير جداً ، لكنها كانت قبل الإسلام على العموم ، وقيل عرفوه عن طريقين ، طريق اليهود الذين كانوا يسجلون عليه كتابتهم الدينية ، وطريق تجارة قريش إلى الشام . وكلاهما صحيح على وجه العموم ، لكن لا يمنع أن يكون العرب عرفوه من خلال طرق أخرى غير هذين الطريقين ، فنحن رأينا أن العلاقات بين العرب وغيرهم كانت قائمة ، ورأينا طلاب العلم الحيريين يقصدون المدارس العليا بربوع الشام وكان هذا الورق منتشراً بالشام وأقام له الرومان مصانع بها ، ثم إننا رأينا بيت الشعر الذى نستشهد به قادم من شرق الجزيرة العربية . وعرف العرب هذا الورق فى صورة معدة مواطئة للكتابة ، أى عرفوه بعد مراحله الصناعية ؛ ناعم الملمس .. حسن الشكل ، فشبهوا به ونسبوه إلى مصانعه أو مصادره إليهم لا مصدره الأصلى .

انظر إلى البيت الذى ورد فى معلقة طرفة بن العبد :

وخد كقرطاس الشامى ومشفر ⁂ كسبت اليمانى قدّه لم يجرد

وقوله (وخد كقرطاس الشامى) يعنى وخد كقرطاس الرجل الشامى فحذف الموصوف اكتفاءً بدلالة الصفة عليه .

وهو يشبه خدّ ناقته فى النعومة والانملاس بالقرطاس .

والأدل على أن معرفة العرب عن طريق الشام هو المسمى نفسه ، فلفظة (قرطاس) مصحفة عن الأصل اليونانى (خرْتاس) [1] والذى عرف فى اللاتينية (خرِتا) ، وهذا ما أشرت إليه أنهم نسبوه إلى مصانعه أو مصادره إليهم لا مصدره الأصلى. وليس معنى هذا ألا يكون العرب عرفوا أصله ،

---

(١) دكتور محمد طه الحاجرى فى مؤلفه (الورق والوراقة فى الحضارة الإسلامية)، مطبوعات المجمع العلمى العراقى .

بل منهم من عرفه ووقف عليه ، مثل القريشيين الذين كانوا ينزلون مصر للتجارة ، وقبلهم بكثير عرفه اليمنيون ؟ إذ كانت لهم إقامة دائمة بمصر واتصال رفيع بسُراتها .

وأيضاً نزول التجار المصريين والشاميين بمنطقة الحجاز لا سيما مكة ضمن من كان ينزلها من الأمم، وما نحسب هؤلاء إلا كانوا يحملون معهم قراطيسهم، وأدنى الدواعى لهذا حساباتهم التجارية .

وخير دليل نستشهد به دائماً هو القرآن العظيم وها أنت رأيت ذكر القرطاس به ، ثم ذكره [١] بمعلقة طرفة . وتلك أدلة قاطعة على اتخاذ العرب هذه الأداة الراقية الحضارية فى كتاباتهم .

القلم والدواة والمداد

نعرف جميعاً ومن أول وهلة أن العرب قديماً استعملوا القلم ولا نشك فى هذا ، فأول الوحى جاء فيه ذكر القلم : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم **بالقلم**) . وورد أيضاً ذكره فى سورة "القلم" (**ن والقلم** وما يسطرون) ، وفسر بعض العلماء (ن) بأنها (الدواة) ، وجاء ذكر القلم والدواة فى غير هاتين السورتين كما مرّ بك ، كذلك جاء فى أشعارهم التى مرت بك أيضاً وأقدم إليك بعضاً آخر هنا ، يقول عدى بن زيد :

له عنق مثل جذع السحو ... قِ والأذن مصنعة **كالقلم**

وقال لبيد بن ربيعة :

متعود لَحِنٍ يعيد بكفه ... **قلما** على عسب ذبلن وبان

وقال الزبر قان بن بدر :

هم يهلكون ويبقى بعد ما صنعوا ... كأن آثارهم خُطّتْ **بأقلام**

وقال الشماخ :

كما خط عِبرانية بيمينه ... بتيماء حبر ثم عرّض أسطرا

وقد ورد المداد باسم النّقس

لمن الديار بجانب الحِبُس ... كخط ذى الحاجات بالنِّقس

(ورد فى كلامهم ذكر المداد والحبر معاً وذلك فى قصيدة عبد الله بن عَنَمة التى

(١) التعقيب هنا تعقيب منزلة .

مـدح بها الحوْفزان :

فـلـم يـبـق إلاّ دمـنـة ومـنـازل   كـمـا رُدّ خـط الدواة مـِدادها

وأحسبك تذكر أنى قلت أن البطليموس والقلقشندى والصولى تحدثوا عن أدوات الكتابة وأسهبوا ، لكن فى نظرة سريعة على القلم الذى كان يستعمل لديهم وقتئذ ، فإنه كان يقطع من الغاب ويُقلم ويُبرى فهو (قلم الحبر) ويبدو أن صناع هذا القلم بلغوا به مبلغاً حسناً فى الإحكام والدقة وجعلوا سنه لا يختلف عن سن القلم الذى نعرفه اليوم ، ويدلنا على هذا أن الصحابة ومتتبعى الحديث كانوا يكتبون به على أكفهم جُملاً ، ورب حديث ، وذلك حين كان تمتلئ الصفحات التى حملوها معهم لهذا الغرض ، وذلك مخافة أن يفوتهم شىء مما يُلقى عليهم . ولعلك ترى لو لم يكن للقلم من الإحكام والدقة مبلغاً رفيعاً راقياً لما استطاع هؤلاء أن يكتبوا الحديث على أكفهم وغير أكفهم مما هو ليس معداً للكتابة فى هذا الموضع الحرج .. وربما كانت هناك غير أقلام الحبر مما تستدعيه دواعى التنقل لا سيّما التنقل المفاجئ ، فليس الحال الذى خرج عليه النبى ﴿ﷺ﴾ وصاحبه (ر) مهاجرين يستدعى حمل (دواة الحبر) ، لكننا رأينا النبى يأمر أبا بكر أن يكتب لسراقة بن مالك (كتاب الأمان) الذى طلبه ، فكتب أبو بكر ، وأخذ سراقة المكتوب ووضعه فى كنانته . إذن فقلم هذا الحال يكون ملازماً للرحل أو العمامة أو المنطقة [1] ، وربما كان هذا القلم من الرصاص أو مادة أخرى جافة وتدوم ، وعليه أستبعد أن يكون من الفحم ، فالفحم لا يدوم وقد رأينا سراقة طوى كتاب الأمان الذى أخذه من النبى ﴿ﷺ﴾ ووضعه فى كنانته ليواريه فيما بعد بمكان آمن ليبرزه عند الضرورة ، وقد يمر على الاحتفاظ به عام أو عامان أو عشرة ، أو حتى عقود ، أما إن كانوا توصلوا للفحم الخاص فى هذا الحين أو عالجوه كيميائياً لكى يدوم فهؤلاء إذن قد بلغوا مبلغاً عظيماً من الرقى .. ثم إنى لا أستبعد استعمالهم للفحم كلية ، إنما حسبما يقتضيه الحال .

وكان الحبر يُصنع من السناج وكان له بضعة ألوان كما سيدلنا على هذا الحديث اللاحق عن أبى الأسود الدؤلى .

كمال الحروف والجمل

قصدت بكمال الحروف والجمل وجود النقط والعلامات والفواصل بها قبل الإسلام ، وقد

---

(١) التى يتمنطق بها الرجل وتكون حول وسطه .

رأينا فى معرض الحديث عن الخط العربى أنهم قالوا : إن عامر بن جدرة أزال العجمة وعرفنا أن إزالة عجمة الكتابة تنقيطها لتوضيح حرف الخاء من الحاء والجيم وهكذا ، ولا يعنينا إن كان عامر حقيقة أم وهما . إنما ما يعنينا أنهم قالوا هذا من يقينهم بأن النقط كانت موجودة قديماً وأن الذين نقلوا هذه الرواية نقلوها عن ابن عباس كما مرّ بنا ، ثم إن فى قول ابن عباس نفسه دليلاً على أن النقط كانت موجودة ، أى كلام ابن عباس بإزالة العجمة ، وقول ابن عباس سابق على شروع أبى الأسود الدؤلى بوضع الإعراب والنقط التى كانت تعمل عمل الحركات والسكنات ، وأبو الأسود فعل هذا بعدما دخل العنصر الأجنبى فى تعلم العربية والتحدث بها ، بل وخالط العربى مخالطة لا تنفصل ، وأنه سمع قارئاً يقرأ : (إن الله برىء من المشركين ورسولِه) فقال : ما ظننت أن أمر الناس آل إلى ذلك ، وأراد أن يصنع كتاباً فى العربية يقوّم الناسُ به ما فسد من كلامهم . فرأى أن يبتدئ بإعراب القرآن ، وأحضر من يمسك المصحف وأحضر معه مداداً يخالف لون المداد المكتوب به وقال لماسك المصحف : إذا فتحت فمى فاجعل النقطة فوق الحرف وإذا كسرت فمى فاجعل النقطة تحت الحرف وإذا ضممت فمى فاجعل نقطة أمام الحرف ، وإذا أتبعت شيئاً من ذلك غُنّة (يعنى التنوين) فاجعل نقطتين .. ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف . إنما يقال إن أبا الأسود لم يضع [1] علم العربية كما يتوهم الكثيرون وأن هذا العلم وضع قبل خلافة على بن أبى طالب(ر) بل وقبل الإسلام ، ثم إن أبا الأسود لم يستحدث تلك النقط الدالة على العلامات للإعراب وأن هذه العلامات وغيرها كانت موجودة أيضاً ، وكانت بالقرآن وجُرِّدت منه .

ويؤكد هذا ما رُوى عن عبد الله بن مسعود من أنه قال : جردوا القرآن ليربوَ فيه صغيركم ولا ينأى عنه كبيركم ، وقد شرح الزمخشرى قوله هذا بأنه أراد تجريد القرآن من النقط والفواتح والعشور مخافة أن ينشأ نشءٌ فيرى أنه من القرآن .

وما روى عن ابن الجزرى أنه [2] قال : إن الصحابة لما كتبوا المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن فى العرضة الأخيرة مما صح عن النبى ، وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين .

وقد مرّ بك أن البطليموس ذكر أن العرب قبل الإسلام عرفوا النقط واستشهد بعدة أبيات هى دون يديك فى الصفحات السابقة ، وذكر هذا أيضاً أبو على القالى فى (أماليه) [3] .

---

(١) سيتضح هذا توآً .

(٢) استشهد به دكتور ناصر الدين الأسد (مصادر الشعر الجاهلى) .

(٣) الجزء الثانى من (أمالى التالى) .

والأعلم الشنتمري من خلال شرحه لديوان طرفة بن العبد . وثمة ما هو أعظم دلالة من هذا وذاك وهو السبيل [1] الحديث الذى ذكر أنه توجد (بردية) ضمن مجموعة برديات تُعرف بمجموعة (الأرشيدوق رينر) بمكتبة فينا الأهلية مؤرخة بعام ٢٢ هـ كتابتها العربية منقطة .

ونحسب أن كل ما جاء بعدها كانت محاولات تجديد حتى كان عصر عبد الملك بن مروان حين وجدوا لها داعياً ملحاً فثبتوها .

ورغم هذا فالتجريد ظل موجوداً ويبدو أنه كان عند الذين يتراءون بالعلم ، وعند بعض الذين يُجلّون المرسل إليه ، إذ كان يُنظر للمكتوب المنقط المشكل على أنه تقليل من شأن المرسل إليه ، أو يلقاه المرسل إليه تحقيراً له ، أى وضع موضع من لا يجيد القراءة إلاّ إذا كانت منقطة مشكلة . وتلك كانت معيبة حينئذ .

وظل هذا الشأن كله موجوداً حتى بعد عصر عبد الملك بكثير ، انظر إلى قول أبى نواس فيه :

يا كاتباً الغداة يسبنى ... من ذا يضيق براعة الكتاب

لم ترضى بالإعجام حين كتبته ... حتى شكلت عليه بالإعراب

أحسست سوء فهم حين فعلته ... أم لم تثق بى فى قراءة كتاب ؟

أما تلك النقط التى وضعها أبو الأسود الدؤلى دلالة على الإعراب فكانت معروفة قبل الإسلام ويقال [2] إن اليعاقبة هم الذين نقلوها إلى العربية عن السريانية لضبطها حين شرعوا يكتبون مصاحف الإنجيل ●

(١) الأستاذ إبراهيم جمعة (قصة الكتابة العربية) .

(٢) محمد فخر الدين فى (تاريخ الخط العربى) ، واليعاقبة نسبة إلى البابا يعقوب البردعى منشئ الكنيسة العربية القائلة بالمذهب المنوفيستى .

دعوة قديمة حديثة

يبدو أن الذين يعممون عرب ما قبل الإسلام بأميّة القراءة فى كل زمان ومكان ، فها هو أبو الحسن أحمد بن فارس يرد على نفر منهم منذ أكثر من ألف سنة ، فنراه يقول فى باب (القول على الخط العربى) : وزعم قوم أن العرب لم تعرف هذه الحروف بأسمائها وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً ، قالوا والدليل على هذا ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له : أتهمز إسرائيل ، فقال : إنى إذن لرجل سوء ، قالوا إنما قال ذلك لأنه لا يعرف من الهمز إلاّ الضعف والعصر . وقيل لآخر : أتجر فلسطين ، فقال : إنى إذن لقوى ، قالوا : إنما قال ذلك لأنه لا يعرف إلاّ جرّ الأشياء . قالوا : وسُمع بعض فصحاء العرب ينشد : نحن بنى علقمة الأخيارا . فقيل له : لم نَصّبت بنى ، فقال : ما نصبته وذلك لأنه لم يعرف من النصب [1] إلاّ إسناد الشىء . وحكى الأخفش عن أعرابى فصيح أنه سئل أن ينشد قصيدة على الدال ، فقال : وما الدال، وحكى أن أبا حية النُّمرى سئل أن ينشد قصيدة على الكاف ، فقال :

كفى بالناس من أسماء كاف وليس لسقمها إذا طال شاف

يرد ابن فارس على هذا فيقول : إن الأمر فى هذا بخلاف ما ذهب إليه هؤلاء ، ومذهبنا فيه التوقيف . فنقول : إن أسماء الحروف داخلة فى الأسماءِ التى أعلم الله أنه علمها آدم ، قال عز وجل (علمه البيان) . فهل يكون أول البيان إلاّ علم الحروف التى يقع بها البيان ، ولم لا يكون الذى علم آدم الأسماء كلها هو الذى علمه الألف والباء والجيم والدال ؟ فأما من حكى عنهم من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجر والدال والكاف ، فإنّا نزعم أن العرب مدراً ووبراً قد عرفوا الكتابة والخط والقراءة .. وأبو حية كان أميا ، وقد كان قبله فى الزمن الأطول من يعرف الكتابة والخط ويقرأ وكان من أصحاب النبى «ﷺ» كاتبون منهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب وزيد وعثمان وغيرهم ، وحدثنى أبو الحسن عن هانئ عن على بن إبراهيم القطان قال : كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف ، فأرسلنى بكتف شاةٍ إلى أُبى بن كعب فيها (لم يتسنّ) و(فأمهل

(١) كان القياس أن تجيء كلمة (بنى) مرفوعة على أنها خبر المبتدأ ، لكنه نصبها هنا على الاختصاص بفعل محذوف هو (أخص) والنصب على الاختصاص يكون فى بعض مواضع منها التى دوننا ، أى بعد ضمير المتكلم .

الكافرين) و (لا تبديل للخلق) . قال فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب (لخلق) ومحا (فأمهل) وكتب (فمهل) وكتب (لم يتسنَّه) وألحق بها هاء ، أفيكون جهل أبى حيّة حجة بالكتابة على هؤلاء الأئمة . والذى نقوله فى الحروف هو قولنا فى الإعراب والعروض والدليل على صحة هذا هو أن القوم تداولوا الإعراب ولنا أن نستقرئ قصيدة الحطيئة التى أولها :

شاقتك أظعان لليلى يوم ناظرة بواكرْ

ستجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها فى حركة واحدة اتفاقاً بغير قصد لا يكاد يكون ، فإن قال قائل : لقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود الدؤلى أول من وضع علم العربية ، وأن الخليل أول من تكلم فى العروض، وأول من وضع علم العربية ، قيل له : نحن لا ننكر هذا ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً وأتت عليهما الأيام وقلاّ فى أيدى الناس، ثم جددهما هذان الإمامان، وقد تقدم دليلنا فى الإعراب أما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على أن القريشيين لما سمعوا القرآن قالوا، أو قال بعضهم : إنه شعر، فقال الوليد بن المغيرة منكراً هذا : لقد عرضت ما يقرأه محمد على أقراء الشعر ، هزجه ورجزه وكذا وكذا فلم أره يشبه شيئاً من ذلك .

أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر؟ .

وقوله نستقرئ يعنى نتتبع ونحصى ، وقصيدة الحطيئة التى استشهد بها ابن فارس تتجاوز الأربعين بيتاً قالها يمدح بغيضاً ويهجو الزبرقان وتجدها بديوانه بشرح ابن السكيت والسُكرى ، ودونك شيء منها لتقف على ما قال ابن فارس :

أشاقتك أظعان لليلى	يوم ناظرة بواكرُ
فى الآل يرفعها الحُدا	ة كأنها سُحُقٌ مواكرُ
كظباء وجرةَ ساقهنّ	إلى ظلال السدر ناجرُ
وقدتْ به الشِّعرَى فقا	لفت الخدود بها الهواجرُ
يا ليلةٌ قد بيتها	بجَدَدٌ نوم العين ساهرُ
وردت همومُها	ولكل واردة مصادرُ
إما تباشرك الهمو	مُ فإنها داءٌ مخامرُ
ولقد تقضيها الصريمة	عنك القلق الغُدافرُ
هلاّ غضبتَ لرَحل جا	رك إذ تنبّذه حضاجرُ
أغررتنى وزعمت أنك	لا بنٌ بالصيف تامرُ

إن هذه الأبيات رويها مقيد (ساكن) ، وإنك لو شئت أن تترنم لجاء فى موضع رفع فى القصيدة كلها وما يحدث أى خلل ، ولولا علم الحطيئة بالإعراب ولولا أن هذا العلم كان متداولاً لجاء هذا مرة مرفوعاً وأخرى منصوباً وهكذا ، وإنى قد وضعت فوق علامة الكسون علامة الرفع لتقرأها مرفوعة ، ودونك ديوان الحطيئة ليصدق عندك هذا . ثم إننى قدمت إليك غير الوليد ممن تحدثوا بموسيقى الشعر مثل أنس الغفارى[1] أخى أبى ذر ومثل قيس بن نُسيبة السُلَيمى ومثل ما جاد فى كلام اليثربيين ، وما نحسب هؤلاء كانوا وحدهم المتحدثين بهذا العلم إنما هم الذين طفت بهم الأحداث والدواعى الظهورية ، ولا ننسى أن الوليد وقيس وأنس تحدثوا إلى آخرين وما نظن أنهم كانوا يحدثونهم بما لا يعرفونه ، ألم نرَ الوليد تحدث بضمير المتكلم للجمع ، وهل نظن أنه كان يعظم نفسه هنالك وهم يناقشون هذه القضية المصيرية ويقول (نحن) أم كان يعنى بتلك الصيغة نفسه وغيره من الحاضرين : (نحن عرفنا الشعر كله ؛ رجزه وهجزه وكذا وكذا) ، وهل كان لتلك الصيغة شيوع آنئذ ؟

وأصدقك الحديث بأننى حين قرأت قول الوليد هذا وثب إلى خاطرى أن الخليل لم يضع هذا العلم إن كان تحدث به شخص سبق مولده بأكثر من مائة سنة وذلك قبل أن أسعى إلى (الصاحبى) وأقرأ حديث ابن فارس الذى بين يديك وقبل أن ألقى حديث أبى ذر عن أخيه أنس وكذلك حديث قيس السُلَيمى إلى قومه ، واليثربيين للنابغة وما ذكر عن غير هؤلاء فى نقد الشعر ، وهذا الذى وثب إلى خاطرى كان سيثب إلى خاطر أى قارئ للأدب العرب والسيرة ، وملم بشىء من موسيقى الشعر .

وكان وما زال يقال لنا أن الشاعر الجاهلى والإسلامى حتى العصر الأموى كان يمكنه أن ينشد قصيدة قد تتجاوز المائة بيت من بحر واحد وقافية واحدة دون أن يعتريها أدنى خلل ، بل كان يمكنه هذا ارتجالاً لأن الأمر عندهم سليقة وأنهم مطبوعون على هذا وأنهم لم يعرفوا أيّا من علوم العربية .

ونحن إذا ما تطرقنا إلى تناول القدماء لموضوع الشعر ونشأته سنرى أحاديثهم فيه أشبه بأحاديثهم فى موضوع نشأة الخط العربى . أى أحاديث أكتنفها الخلط والتضارب بعيدة عن الوجه

(١) ورد فى ذكر إسلام أبى ذر الغفارى أنه قال : قال لى أخى أنس إن لى حاجة بمكة ، فانطلق فراث ، فلما عاد قلت : ما حبسك، قال : لقيت رجلاً على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس عنه ، قال : يقولون ساحرا ، كاهنا ، شاعرا ، فوالله لقد وضعت قوله على أقراء (قوافى) الشعر فلا يلتئم على لسان بعيد أنه شعر . ويعنى أنه قارن بين شىء من القرآن وبحور الشعر فلم تكن بينهما ملائمة . ومفرد أقراء (قَرْء) .

الصحيح أو بعيدة عن أن يبينوا من خلالها الوجه الصحيح فيما نسبوه ، ولا النحو الذى كانت عليه صورته الأولى ومراحل تطورها حتى وصل إلى الصورة التى نعرفها فى شعر امرئ القيس ومهلهل وعَبِّدةَ الفحل وعبيد بن الأبرص .. تضاربوا فى أول من أنشأه وتضاربوا فى صورته الأولى وكيفية تطوره ، قال فريق منهم أن مهلهلاً هو أول من هلهل الشعر وهو لذلك أطلق عليه مهلهلاً وكان ذلك فى عهد هاشم بن عبد مناف ، بينما زعم فريق آخر أن نشأته ترجع إلى يُمن ، ويُمن هو يَعرب بن قحطان وأنه نقله من الصحف السريانية إلى العربية . بينما يشط بنا فريق ثالث ويتجاوز كل الأسلاف ولا يتوقف إلاّ عند أبينا (آدم) فينسب إليه نشأة الشعر ، وجاءوا بشعر نسبوه إليه وأنه قاله حين سكن الأرض :

نحن بنو الأرض وسكانها   منها خلقنا وإليها نعود

وآخر قاله حين قتل قابيل أخاه هابيل :

تغيرت البلاد ومن عليها   فوجه الأرض مغير قبيح

***

ولعل ما طالعتنا به الصحف الحين بأن العلماء الإفرنج توصلوا إلى معرفة موطن (آدم) هو (جنوب إفريقيا) [1] يؤكد بأن هذا ضرب عشواء ، وإن كان نسب هذا الشعر لآدم (ع) لا يصدقه العقل أصلاً .

أما صورته فقيل إن أصلها كانت رجزاً وقطعاً وأن مضر بن نزار أول من قاله حين سقط من فوق جمل وانكسرت يده فجعل يقول : وايداه وايداه .

وكان حسن الصوت ، فأصغت الإبل وجدت فى السير . فجعلت العرب مثالاً لقوله (هايدا هايدا) يحدون به الإبل .. وزعم آخرون أن العرب كانت تتكلم أولاً الكلام المرسل ، ثم تدرجت العرب منه إلى الكلام المسجع ثم منه إلى الرجز ، ثم إلى القصيد ، ثم نوعت القصيد بحسب

---

(١) طالعت هذا فى صحيفة الأهرام الصباحى بأول صفحة ، وللأسف أننى لا أذكر تاريخ صدور هذا العدد فارجع إليه واذكر كيفية توصل العلماء الإفرنج لهذا ، ثم أشير إليك به فترجع إليه إن كان يعنيك الأمر ولعل سبب عدم اهتمامى بهذا أننى كنت أستبعد التنويه إلى تضارب القدماء لنشأة الشعر العربى ، ثم بدا لى أن أذكره على هذا النحو السريع بعد أن مضيت فى الأمر هذا المضى ، غير أنى أذكر أن صدور العدد كان فى يوم من أيام أكتوبر ١٩٩٧م أو رب بُعيد هذا أو قبله .. ثم إننى قرأت العنوان فحسب ، ولا أدرى إن كان الخبر تطرق إلى موضوع منطقة (السافانا) أم لا ، (والسافانا) تمتد من شمال كينيا وجنوب غرب أثيوبيا قرب بحيرة رودولف ، والمعتقد أنها موطن أول إنسان على الأرض .

أغراضه حتى بلغت الأوزان التى جمعها الخليل بن أحمد وهى خمسة عشر وزناً ، ثم استدرك الأخفش وزناً آخراً فكان ستة عشر .

تلك إشارة سريعة ومختصرة عمّا قيل فى نشأة الشعر وصورته الأولى لأنه لا يعنينا هنا الإسهاب فيه والوقوف على الصحيح أو القريب من الصحة فى هذا التضارب وحسبنا الذى بين أيدينا من شعر أنشئ قبل الإسلام بقرن ونصف وجاء غالبه فى صورة تامة من حيث موسيقاه وأغراضه ، وحسبنا الذى بين أيدينا ممن تحدثوا ببحوره والذين تحدثوا بخلل فيه فى تلك الحقبة ، وقد مرّ بك هذا . ومن ثمّ لا يكون الشعر اعتمد على الفطرة والغريزة وحسب ؛ إنما كانت هناك دراسة لهذا ، ثم وضعت أصوله ، وعليه كان نقد اليثربيين للنابغة الذبيانى ، وذُكر نقد مثله ومختلف عنه فى مواضع أخرى [1] وقد رأيت أن نقد اليثربيين جاء تحت مسمى اصطلح عليه هو (الإقواء) وأن ما رأيت من شأن اليثربيين والنابغة هو شأن الدارس أو الملم بعلم (موسيقى الشعر) والشعراء ، أى قد يضطرب الوزن على الشاعر الرقيق المطبوع ، أو شىء مما يعيب القافية ويبينه له الدارس الذى لا يستطيع قول الشعر .

وهناك دليل آخر يدلنا على أنهم كانوا يتخذون أصولاً وضعية يرجعون إليها ، وهذا الدليل يتمثل فى (لزوم ما لا يلزم) الذى ورد فى قصائدهم ، وكما تعلم أن لزوم ما لا يلزم هو فى الغالب حرف يلزم الشاعر به نفسه قبل (الرَوِىّ) فى القصيدة كلها أو بعضها ، فمثلاً لو كان الرَوِىّ باءً ويأتى الشاعر بياء قبله أو لام ويلتزم بهذه الياء أو اللام فى القصيدة كلها قبل الرَوِىّ ، ومن ثم ترى الشاعر ألزم نفسه بما لا يلزم القافية ولو تركه فلا تثريب عليه .

والحقيقة أن لزوم ما لا يلزم يضفى على القصيدة مزيداً من الجمال والوقع الموسيقى ، وأيضاً يبدى مقدرة الشاعر على تطويع أدواته الفنية .

قد يقال : إن هذا ليس دليلاً على أنهم وضعوا علوماً إنما هو دليل على قوة الطبع وأصالته .

قد يقال هذا ، لكن ماذا يقال فى مجىء الشاعر بلزوم ما لا يلزم وتركه فى القصيدة الواحدة ؟ ألم تر هنا أن الشاعر يعلم أنه يأتى بما لا يلزم وإن هو تركه فلا تثريب عليه ؟ ألم تر هنا أنه يعلم كونه لم يخل بأصول وضعت لهذا الأمر ؟

وهناك دليل آخر يعرفه الدارسون للأدب العربى القديم ، وهو أن الشاعر فى بداية حياته

---

(١) ارجع إلى (مختار الشعر الجاهلى) للأستاذ مصطفى السقا وإلى كتاب (النابغة الذبيانى) للأستاذ محمد سليم الجندى ، وكتابه (المنهل الصافى فى العروض والقوافى) .

الشاعرية أو حين يجد لديه الموهبة كان يلازم شاعراً كبيراً ويعرف فيما بعد بأنه راويته ، وهو بذلك يتعلم منه ويأخذ عنه ، فإن كان الأمر طبعاً فعلام يجشم نفسه هذا .

وهناك دليل أعظم وهو ورود ذكر تعلم الشعر فى القرآن العظيم وذلك فى الآية التاسعة والستين من سورة (ياسين) : (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) وواضح أن الآية الكريمة تنفى عن النبى «ﷺ» تعلم الشعر ولا ينبغى للنبى «ﷺ» هذا ، لكن مدلول اللفظ ومعناه يعرفنا أن الشعر كان يُعلم لدى المخاطبين .

رأينا حديث ابن فارس بإثباته وجود علم النحو قديماً كذلك إثباته لعلم العروض والقوافى ، وأتيتك أنا بما استطعت لإثبات هذا من قبل ومن بعد . وعليه ترى أن الأمر ليس غريزة ولا سليقة إنما علوم صيغت ووضعت فهم بها يلتزمون وإليها يرجعون ، وإن كانت هذه العلوم تداولت منذ ما قبل الإسلام فيكون عرفها كل العرب مدراً ووبراً كما قال ابن فارس ، أى أهل الحضر منهم وأهل البادية، ثم كان لفريق منهم امتياز فى هذا الأمر دون قصد ، وهذا الامتياز يتمثل فى بقاء الأعراب فى بواديهم لم يبرحوها ولم تغرهم الحضارة الجديدة ولم ينتشروا فى الأرض كغيرهم فبقيت عربيتهم سليمة بينما أخذت تفسد على ألسنة إخوانهم المتحضرين لاختلاطهم بالأجانب ، بل وغدا هناك ما عُرف بالمولدين .. وعنتْ الحاجة إلى تجديد هذه العلوم وتصنيفها وتدوينها تحت مسميات حديثة ، فرأى القائمون على الأمر أن يستعينوا بهؤلاء الأعراب الذين لم يغادروا ديارهم ولم يخالطوا الأجانب الذين امتلأت بهم البلاد العربية والذين امتلأت بلادهم بالعرب . وهنالك التقى الحديث بالقديم ووجدت الفجوة ، أى لقاء المادة العلمية لدى الأعراب والمسمى الحديث لدى العلماء .

وإننا إذا ما ألقينا نظرة على لفظ (النحو) نفسه لرأيناه (اقتفائى) ، ويؤكد لنا هذا نظرة أخرى نلقيها على سبب التسمية ، فقد قيل : إن الإمام على (ر) ، وضع أمثلة أو نهجاً للإعراب وأمر أبا الأسود اتباعه ؛ إذ هو يدون فيه كتاباً بأمره وقال له : انحُ هذا النحو ؛ أى اتجه فيه هذا الاتجاه ، أو انهج هذا النهج ، ويفهم من هذا أن العلم كان موجوداً وقائماً وأراد علىٌّ (ر) أن يدونه ليحفظه ويحفظ به اللغة بعد أن أخذت تفسد على الألسنة .

فالنحو هنا هو نحو المنهج الذى وضعه الإمام على ، لذلك رأيت ابن فارس يقول : إن هذين العلمين كانا قديماً وأتت عليهما الأيام وقلاّ فى أيدى الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان (يعنى أبا الأسود للنحو ، والخليل للعروض) .

لكنك سترى أيضاً أن هذه الفجوة أخذت تُسد شيئاً فشيئاً ويتنبه الأعراب للأمر بل ورأينا من

بينهم من ينهضون للأمر مباشرة ، أى تعقد لهم حلقات الدرس فى بغداد وغيرها ويأخذ عنهم الطلاب ، بعد أن كان هذا الأخذ يأتيهم من خلال طرف ثانٍ .

ثم نحن لا ندرى من هم القوم الذين زعموا هذا ورد عليهم ابن فارس هذا الرد الناجع ، فابن فارس لم يعرفهم إلينا ، لكننا من خلال قراءتنا لأخبار وأدب هذا العصر علمنا أن به فريقين كانا مسيئين للعرب ، فريق يسىء إليهم عن قصد وآخر يسىء إليهم بغير قصد ، أما الذين كانوا يسيئون إليهم بقصد فهم (الشعُوبية) ورأسهم الفرس وهؤلاء كانوا يحقرون من شأن العرب ما استطاعوا ، واستطاعتهم هنا ليست استطاعة اليد واللسان فهذه كانت لهم . وأحسبك تعلم أنهم هم الذين أقاموا الدولة العباسية ، ثم صاروا وزراءها وأعيانها ، ثم أخذت تطغى ثقافتهم ونزعتهم عهوداً ، وطغى كذلك نفوذهم طغياناً سبب لهم كثيراً من النكبات على يد بعض الخلفاء وقتلوا أبا مسلم الخرسانى صاحب الفضل فى إقامة دولتهم .

ولا أحب أن أميل بك عن موضوعنا ، لكن ينبغى أن ألفت نظرك أن هؤلاء الشعوبيين كانوا أصحابَ درجات متفاوتة فى نظرتهم إلى العرب ، منها درجة تبلغ المغالاة فى تحقيرهم ، وأصحابها هم الذين يعنوننا هنا ، وكان العصر الجاهلى المظلوم هو التكأة التى يتكئون عليها ، أو إن أنصفت قلت كان كبش الفدى ، لكن حين تسمع شيئاً مما كان يذاع على ألسنتهم عن العرب فى هذا العصر قد تغير رأيك وتقول : إنهم أطلقوا عليه وأرادوا غيره ، أو أرادوه وغيره معاً .

انظر إلى هذه المقولة عنهم : إن العرب قبل الإسلام كانوا فى حروبهم يسبى بعضهم نساء بعض ويستمتع بها من غير زواج ، فكيف يدرى أحدهم أباه ؟

والحقيقة أن هؤلاء كانوا لا يحفلون لا بإسلام ولا بغيره من ناحية العرب ، وأن بغضهم للإسلام كان هو الداعى لهذا . إذ إن العصر الجاهلى لم يسىء إليهم فى شىء فلا هو أزال سلطانهم ولا أضاع حريتهم واستقلالهم ؛ إنما الذى فعل هذا - من وجهة نظرهم - هو الإسلام . وكان كثير من هؤلاء يسيئون إلى الإسلام مباشرة دون مواربة ودون نوال غيره بالإساءة حتى لو كان ينتظرهم الجلاد ، وحتى لو كان ينتظرهم الحريق .

وإذا كان يصدر عنهم هذا وغيره مما هو شائن ألا يصدر عنهم ما هو دونه مما ذكره ابن فارس ورد عليه ؟

وإذا كان النفوذ الفارسى تلاشى فى عصر ابن فارس فإن هذه الدعوة لم تتلاشَ وأنت ترى من مسماها أنها جمع (شعب) أضيف إليه ياء وتاء نسب ، وإن كانت جمع شعب فهى تعنى كل

شعب ساده العرب ، من فرس وآشوريين وأكراد وأفغان وهنود بأنواعهم وشعوب ما وراء النهر[1] حتى حدود الصين وروم وأرمن وإسرائيليين وبربر وأسبان وغيرها من الشعوب ، وعليه تكون هذه الدعوة قائمة حتى زوال سلطان العرب عنهم .

أما الفريق الثانى الذى كان يسيء إليهم بدون قصد فهو المحب لهم المدافع عنهم ، لكن انظر إلى رد أحدهم على المتعصبين ضد العرب إذ يقولون : إن العرب لا نصيب لهم من علم ولا غيره حتى الشعر الذى يفخرون بأنه فنهم فلم يكن فنهم وحدهم وكان لكل الأمم .

فرد يقول : إن الهند لهم معانٍ مدونة ، وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف إنما هى كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة ، ولليونان فلسفة ومنطق ، لكن صاحب المنطق نفسه بكيٌّ اللسان ولا موصوف البيان ، وفى الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد (وخلوة) وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، فليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، فتأتيه المعانى أرسالاً وتنثال الألفاظ عليه انثيالاً . وكانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر وهم عليه أقدر وأقهر ، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى علم كلام من قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب .

ها أنت ترى أن الجاحظ [2] أراد الإنصاف فأخطأ السبيل ، ومما هو بين يديك ترى أن العرب لم يكونوا كذلك ، ومما استدعته الضرورة ههنا وبدون إطالة فأخالك تعلم أنه كانت بالعصر الجاهلى قصائد تعرف (بالحوليات) لأنها كانت تعد فى حول كامل ، وإذا كانت قصيدة تعد فى سنة كاملة فترى أى معاناة وأى مكابدة ، وترى أى إجالة فكر وتشتيت ذهن يكون أبعد من هذا .

لكن أين رد الجاحظ من رد ابن فارس : إنا نزعم أن العرب مدراً ووبراً قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها وما العرب فى قديم الزمان إلا كنحن اليوم فما كلٌّ يعرف الكتابة والخط ويقرأ .

وقد وقفنا هناك ورأينا أن الأمر تجاوز الكتابة والقراءة . وهل خلا عصر من الأميين حتى عصرنا نحن رغم النهضة العلمية التى نحياها والحملة العظيمة القائمة لمحوها ؟ وهل خليت الأمم الإفرنجية من الأميين بعد وهى مصدر الحضارة اليوم ؟ ●

---

(١) كانوا معروفين بالعنصر التركى ، وكانوا هم أصحاب النفوذ فى ذلك الحين .

(٢) فى كتابه (البيان والتبيين) وتناوله الأستاذ أحمد أمين فى (ضحى الإسلام) .

- ١٥ -

إحصـــاء البــــلاذرى

ذكرت آنفاً أنه بعيد من أن يكـون إحصاء وأن نأخـذ به ، لأن البلاذرى يذكر أن الإسـلام جاء وفى مكة سبـعة عشر نفـراً فقط هم الذين يقرءون ويكتـبون واستـدرك آخرا فكانوا ثمانية عـشر ، وذكر قليلاً من النساء بعضهن تقرأ ولا تكتب ، وحتى فى هذا لم يكن صائباً كما سأبين .

وإليك أولاً أسمـاء هؤلاء الثمانيـة عشر . عـمر بن الخطاب ، على بن أبى طالب ، عثـمان بن عفان ، أبو عبيدة بن الجراح ، طلحة بن عبيد الله ، يزيد بن أبى سفيان ، أبو حذيفة بن عتبة ربيعة ، حاطب بن عـمرو أخو سـهيل بن عمـرو ، عبد الله بن أبى سـرح ، حويطب بن عبـد العزى ، أبو سفيان بـن حرب ، ، معاوية بن أبى سفيـان ، جهيم بن أبى الصلت بن مخرمة ، أبو سلمـة بن عبد الأسـد المخـزومى ، أبان بن سـعيـد بن العـاص ، خـالد بن سـعيد ، ومن خلـفاء قـريش العـلاء الحضرمى، ثم ألحق بهم شرحبيل بن حسنة حليفاً أيضاً .

ومن النساء ، الشفاء بنت عـبد الله العدوية من رهط عمر ، وأم كلثوم بنت عقـبة ، عائشة بنت سعد ، كريمة بنت المقداد ، وعائشة بنت أبى بكر . كانت تقرأ ولا تكتب ، كذلك أم سلمة .

ومن خلال هذه الأسـماء ترى أن البلاذرى غـفل أو ربما لم يصله ذكر أعـلام يجعلك من أول وهلة تستدل على عدم الدقة وعدم الأخذ بإحصائه ، لكنك حين تتأمل هذا تتعجب كيف لم يصله اسم كاسم الخليفة الأول أبى بكر ، ولا اسم كاسم ورقة بن نوفل وغيرهما ممن سأقدمهم ...

(ورقة بن نوفل) الذى لم يكتف بالعربية، وقيل كان يتقن السريانية والعبرية واليونانية وكتب بها.

(النضر بن الحرث) الذى تجاوز العربية أيضاً ودرس الفارسية وآدابها وتاريخها .

(أبو بكر الصـديق) من ينكر قراءته وكـتابتـه ، بل وعلمه ، يقـول جبـير بن مطعم أحـد الذين أخذوا العلم عنه وأحـد الثلاثة الذين أشـرفوا على إنشاء (الديوان) : أخـذت العلم عن أبى بكر ، وكان الناس فى الجاهلية يختلفون إلى داره للعلم والطعام .. وقد مرّ بك كثير من كتابته وقراءته .

(الزبيـر بن العـوام) و (عبـد الرحـمن بن عـوف) و (سعـد بن أبى وقـاص) أعضـاء مـجلس

الشورى، وكان يمكن أن يصبح أحدهم خليفة المسلمين بوصية عمر ضمن الستة الأعضاء بهذا المجلس ، ثم كان أحدهم وهو الزبير ممن يكتبون بين يدى النبى ﴿ﷺ﴾ أموال الصدقات ، ثم إن الثلاثة لا يخفى عليك شأنهم .

(جبير بن مطعم) و (مخرمة بن نوفل) و (عقيل بن أبى طالب) هؤلاء الثلاثة الذين ذُكروا أنهم كتبوا أسماء الناس والقبائل عند إنشاء الديوان ، والمرجح وما يقبله العقل أنهم أشرفوا على هذا لا سيّما إن علمنا أنهم كانوا مرجعاً فى النسب .

(العباس بن عبد المطلب) قد مرّ بك قول الطبرى بأنه أسلم بمكة قبل بدر وأسلمت معه أم الفضل حينئذ ، وكان سبب بقائه بمكة ، أنه كان لا يغبى على النبى ﴿ﷺ﴾ بمكة خبراً إلا كتب إليه به ، وقد مر بك أيضاً شأن عمرو بن هشام معه حين لوح له بأنه سيكتب فيهم كتاباً بأنهم أكذب بيت فى العرب ، وقد مرّ بك كذلك شهادته فى كتاب بنى جُعيل الذى كتبه لهم النبى ﴿ﷺ﴾ وشهد فيه أيضاً على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وأبو سفيان بن حرب .

(خالد بن الوليد) ما أكثر ما مرّ بك من كتابته وقراءته .

(الوليد بن الوليد) الذى مر بك أنه كتب لأخيه خالد بأن النبى ﴿ﷺ﴾ سأل عنه فقرأ خالد رسالته ووقع الإسلام فى قلبه ، ويذكر ابن سعد فى (طبقاته) أن الوليد مات وهو يقرأ رسالة للنبى ﴿ﷺ﴾ بعدما فرّ هارباً من مكة .

(خباب بن الأرت) قد مر بك أن سبب إسلام عمر صحيفته التى كان يقرئ فيها أخت عمر وزوجها .

(عبد الله بن مسعود) قد مر بك عظيم ينفى عنه الأميّة ، وكتب الخليفة عمر إلى أهل الكوفة يقول : يا أهل الكوفة أنتم رأس العرب وجمجمتها وسهمى الذى أرمى به إن أتانى شيء من ههنا وههنا ، قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً .

(عمار بن ياسر) ها أنت رأيت الخليفة عمر قال لأهل الكوفة قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً ، ولا يليق أن يبعث الخليفة على مصر كالكوفة أميراً أميّاً ، وأستزيدك : كان عمار من الثائرين على الخليفة عثمان بن عفان (ر) . ويقال إنه اشترك مع نفر من الصحابة فى مكتوب كتبوه إلى الخليفة يلومونه ويعظونه وأقبل عمار بالكتاب فدخل عليه وقرأ بين يديه صدراً منه .

(أبو موسى الأشعرى) يذكر فى (طبقاته) : أن الخليفة عمر كتب إلى أبى موسى الأشعرى حين

كان عـامله : إن العرب هلكت فابعث إلىّ بـطعام . فبعث إليـه بطعام وكتب لـه (بعثت إليك بكذا وكذا ، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الأمصار . وعن أبى بُردة قال : كتب أبو موسى إلى معاوية : سلام عليك ، أمـا بعد فإن عمرو بن العاص قـد بايعنى على الذى بايعنى عليه وأقسم بالله لئن بايعـتنى على ما بايعنى عليه لأبعـثنّ ابنيك أحدهمـا على البصرة والآخـر على الكوفة ولا يغلق دونك باب ولا تقضى دونك حاجة وإنى كتبت إليك بخط يدى فاكتب إلى بخط يدك .

ولا ننسى شأن أبى موسى وموضوع التحكيم .

(عبد الله بن عمـرو بن العاص) الذى تُروى عنه أحاديث للنبى ﴿ﷺ﴾ وكان صاحب صـحيفة تسمى (الصادقة) يسجل بها ما يسمعه من النبى ﴿ﷺ﴾ .

(حاطب بن أبى بلتعـة) و (عمرو بن أمية) و (شُـجاع بن وهب) و(عبد الله بن حذافـة) سفراء النبى ﴿ﷺ﴾ وحملة كـتبه الذين مرّ بك ذكـرهـم . (السائب بن العوام) مـبعوث النبى إلى مسـيلمة بكتاب يرد فيه على كتاب مسيلمة .

(الوليد بن عقـبة) فتى قريش الشاعر ، وهو أخـو عثمان من أمه ، ثم هو بعد ذلك أمـير الكوفة وهنالك كثرة المكاتبة بينه وبين الخليفة عثمان لا سيما بعد أن أخذ يشكوه جماعة من أهل مصره .

(عمرو بن العاص) الغنى عن التعريف والغنية سيرته بالقراءة والكتابة، وقد مر بك طرف منها.

(عبـد الله بن جحش) كان قـارئاً كاتباً وقد دلنـا على هذا السريةُ التى أمَّرَهُ عليـها النبى ﴿ﷺ﴾ وكانت برجب من العـام الثانى للهجرة ، أى قـبل بدر . فإن النبى ﴿ﷺ﴾ كتب له كتـاباً وقال له لا تنظر فيه إلا بعد مسير يومين ، فلما انقـضى اليومان فتح المكتوب وقرأ : إذا نظرت فى كتابى هذا . فسر حتى تنزل بين مكة والطائف فترصد قريشاً وتعلم لنا أخبارها .

(عبد الله بن عمر) الذى كان يسجل أحاديث للنبى ﴿ﷺ﴾ وتُروى عنه .

(حنظلة بن أبى سفيان) الـذى كتب إلى أبيه رسالة يخبره فيـها بقيام النبى ﴿ﷺ﴾ بدعوته إذ هو بنجران .

(عبد الله بن الزبعـرى) ذكرت آنفاً أن ابن سلام فى ترجمـته له قال : حدثنى شعـيب بن صخر عن أبى بكر المصعبى قال : أصبح الناس بمكة ومكتوب على دار الندوة :

ألهى قُـصـيّـاً المجـد الأسـاطيـر   ورشـوة مثل مـا تُرشى السـفـاسيـر

وأكـلهـــا الـلحم لا خـليط لـه   وقـولها رحلتْ عيـرٌ أتتْ عيـر

فعلموا أن كاتبها هو عبد الله بن الزبعرى .

(عتبة بن أبى سفيان) الذى ولى إمارة الطائف حتى خلافة عثمان (ر) ، وما نحسب أن الأمراء على البلاد يكونون أميين .

(عبد الله بن أبى بكر) عن عائشة (ر) أنها سُئلتْ : متى بنى بك النبى ﴿ﷺ﴾ ، فقالت : لما هاجر إلى المدينة خلفنا وخلف بناته ، فلما قدم المدينة ، بعث إلينا زيد بن حارثة ، وبعث معه أبا رافع مولاه وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذها النبى ﴿ﷺ﴾ من أبى بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه من الظهر ، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أُرَيْقط ببعيرين أو ثلاثة ، وكتب إلى عبد الله بن أبى بكر يأمره أن يحمل أهله ؛ أمى أم رومان وأنا وأختى أسماء .

(الأرقم بن أبى الأرقم) صاحب الدار التى نزل بها النبى ، ثم تصدق بها وكتب صيغة صدقته بخطه ، ثم هو ممن كتبوا بين يدى النبى ، وكتب صيغة كتاب عاصم بن الحرث الحارثى ، وكذلك صيغة كتاب الأجَبّ السُلَيمى .

(عياش بن أبى ربيعة) مبعوث النبى إلى بنى كُلال اليمنيين ، ثم هو بعد ذلك أمير عليهم من قبله وقبل خليفته أبى بكر .

(هشام بن العاص) أحد الذين كان يقول فيهم عمر بن الخطاب (ر) : ما الله بقابل ممن افتتن صرفاً ولا عدلاً ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم ، أردف : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم الرسول ﴿ﷺ﴾ المدينة جاء الوحى فى قولنا وقولهم: (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) ، قال عمر : فكتبتها بيدى فى صحيفة وبعثت بها إلى هشام ، فلما قرأها سكنت نفسه .

(مصعب بن عمير) الذى بعثه النبى ﴿ﷺ﴾ إلى اليثربيين معلماً ، وذكرت آنفاً كتابته إذ هو بيثرب وأيضاً قراءته .

(عبد الله بن الأرقم) مضى الحديث عنه بأنه ممن كانوا يكتبون بين يدى النبى ﴿ﷺ﴾ .

(أمية بن خلف) الذى مرّ بك أنه كاتب عبد الرحمن بن عوف بأن يحفظه فى صياغته فى مكة وكاتبه عبد الرحمن بأن يحفظه فى صياغته بالمدينة .

(عكرمة بن عمرو) الذى كان من امراء الجند ومرت بك كتابته وقراءته . (كاتب الصحيفة) .

ذكر فى كاتب صحيفة المقاطعة قولان ، الأول يقول : إن كاتبها هو (منصور بن عكرمة) ،

والثانى يقول : كاتبها هو (بغيض بن عامر) ، أو (منصور بن شرحبيل) . وإن نحن اعتبرنا المنصوريين منصوراً واحداً وحدث لبس ، فيكون دوننا اثنان كاتبان اختلف أيهما كاتب الصحيفة .

(الأخنس بن شريق) و (أزهر بن عوف) اللذان كتب كل منهما رسالة إلى النبى «ﷺ» مضمونها أن يرد أبا بصير مولاى أزهر الذى فرّ عن مكة إلى المدينة بعد معاهدة صلح الحديبية .

(أبو بصير) الذى كتب فيه أزهر والأخنس إلى النبى «ﷺ» لكى يرده ، فقال له النبى بعد أن جاءته رسالتا أزهر والأخنس : قد علمت ما أعطينا هؤلاء القوم من العهد ولا يصح لنا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك ، قال أبو بصير : يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟! فكرر عليه النبى قوله ، فانطلق أبو بصير مع الرجلين اللذين جاءا يردانه حتى إذا بلغوا موضعاً اسمه (ذو الحُليفة) سأل العامرى أن يريه سيفه ، فناوله إيّاه ، وما إن استوى مقبضه فى يد أبى بصير حتى هوى به على العامرى فقتله ، وفرّ مولى العامرى هارباً باتجاه المدينة حتى أتى النبى «ﷺ» فقال له النبى : ما لك ، قال الرجل : قتل صاحبك صاحبى ، وبعد قليل ظهر أبو بصير متوشحاً سيفه مبادراً النبى بقوله : يا رسول الله وفتْ ذمتك وأدى الله عنك أسلمتنى للقوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى ، ولم يخف النبى إعجابه وتمنّيه له فقال : ويل أمه مِحَشُّ حرب لو كان معه رجال ، ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر فى طريق قريش إلى الشام ، وكان عهد الرسول وقريش أن تُترك للتجارة لا يقطعها هو ولا تقطعها قريش ، فلما ذهب أبو بصير إليها وسمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره وبما كان من إعجاب النبى ، فرّ منهم نحو سبعين رجلاً اتخذوه لهم زعيماً وإماماً وجعلوا يقطعون على قريش طريقها ، وكانوا لا يظفرون بأحد من قريش [1] إلا قتلوه ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها ، فكتب القريشيون إلى النبى يسألونه بأرحامهم إلا آواهم ولا حاجة لهم بهم ، فكتب النبى إلى أبى بصير بالمجىء إلى المدينة ، فقرأ أبو بصير [2] كتابه وهو طريح فراش الموت ، وتوفى ورجع سائر أصحابه .

(سهيل بن عمرو) و (مكرز بن حفص) اثنان من ثلاثة أوفدتهم قريش ليعقدوا صلح الحديبية ، ولا نحسب أن قريشاً توفد ثلاثة أميين ليتفاوضوا على معاهدة كهذه ولا على أى معاهدة ومكة غنية بالمتعلمين ، وما يؤكد عندك رأيى أن ثالث الثلاثة هو أحد الذين ذكرهم البلاذُرى فى إحصائه

---

(١) محمد حسين هيكل (حياة محمد) .

(٢) ابن سعد فى (طبقاته) ، الجزء الخامس .

(حويطب بن عبد العزى) لكننا رأينا متكلمهم عند المفاوضات هو سهيل وليس حويطب ، وما كان حويطب بالصغير حتى يكون الكلام لعمرو ، لكن كان سهيل أعلم منه وأجدر بالمفاوضات ، وهذا ما بدا لنا أثناء كتابة صيغة المعاهدة ، ثم إن سهيلاً كان خطيب مكة ومن فصحائها حتى أنه لما أسر فى بدر أراد عمر بن الخطاب (ر) أن ينزع ثنيّته لكى تذهب عنه فصاحته إذ كان يتناول المسلمين بالعيب ، وما قلته فى عمرو ويقال فى مكرز ، ثم يبقى الأهم وهو أن كل واحد من الثلاثة وقع شاهداً على هذه المعاهدة .

(عُتبة بن غزوان) الذى قيل إنه هو الذى اختطّ موضع البصرة ، ثم هو أميرها من بعد لعمر بن الخطاب وقد مرّت بك مكاتبته ضمن مكاتبة الصحابة .

(عياض بن غنم) الذى خلف أبا عبيدة بن الجراح على الشام بعد وفاته ، وكتب إليه عمر : إننى وليتك ما كان يليه أبو عبيدة فاعمل بالذى يحق الله عليك .

ومرت بك كتابته ، وإن كان حسب المستشهد به عاملاً على بلد ما .

(عتّاب بن أسيد) الذى استخلفه النبى ﴿ﷺ﴾ على مكة، ثم هو أميرها فيما بعد، ومرت بك كتابته .

(مُحرز بن حارثة) أمير مكة بعد عتّاب .

(نافع بن ظريب) الذى قيل إنه كتب المصاحف فى عهد عمر بن الخطاب ، أو قد يكون هو الذى أشرف على ذلك ، فالإخباريون يقولون : كتب ، ورب كانت (كتَب) هنا مجازاً ، إذ يستبعد أن يكتب المصاحف شخص واحد .

(قُدامة بن مظعون) أمير البحرين لعمر بن الخطاب ، ثم عزله لأنه شرب خمر ، وقيل لم يُحد شارباً لها .

(النعمان بن عدى) أمير (ميّسان) للخليفة عمر ، وقد مرت كتابته ضمن مكاتبة الصحابة .

(الحكم بن سعيد) الذى أطلق عليه النبى ﴿ﷺ﴾ (عبد الله) بدل (الحكم) واستقدمه إلى المدينة يعلم الناس .

(سعيد بن عامر) الذى تولى حمص فى خلافة عمر ، ومرت بك كتابته وقراءته ضمن مكاتبة الصحابة .

(محمية بن جزاء) الذى جعله النبى ﴿ﷺ﴾ على أخماس المسلمين ، ويعنى هذا أنه يتولى تجميع الأخماس التى تأتى من البلاد العربية وذلك أمر يحتاج إلى حساب وتدوين .

(بُسر بن سفيان) و (بُديل بن ورقاء) الذى كتب النبى إلى كل واحد منهما إذ هو بالمدينة يدعوه إلى الإسلام ، ورسالتان يكتبهما النبى ﴿ﷺ﴾ وهو بالمدينة إلى اثنين بمكة يدعوهما إلى الإسلام فينبغى ألاّ تتجاوزا صاحبيهما فقد كان هذا قبل الفتح ، وقد مرّ بك ذكرهما ضمن مكاتيب النبى ﴿ﷺ﴾ ، ثم إن بُسْر أسلم بعد الفتح وجعله النبى على مغانم حنين ، وكذلك أسلم بُديل .

(عامر مولى أبى بكر) الذى وقع شاهداً على كتاب نجران مع أبى سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة وغيلان بن عمرو والأقرع بن حابس ومالك بن عوف النصرى والمستور (بن عمرو) وقد مرّ بك ذكره .

(خالد بن سعيد) الذى مرت بك كتابته أثناء مكاتبة الصحابة ، ثم هو بعد ذلك وليّاً على مكة .

(عمارة بن الوليد) ذكرت كتابته فى قصة أوردها أبو الفرج الأصفهانى فى (الأغانى) ، وابن هشام فى (الروض الأنف) تقول : كان عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص أثناء سفرتهما إلى الحبشة صحبا معهما عمارة بن الوليد وكان عمارة جميلاً وسيماً ، وصحب عمرو امرأته معه ، فلما ركبوا البحر ، وكان عمارة هو ابن عم امرأة عمرو وهويته فعزما على دفع عمرو فى البحر ، وحدث هذا لكن عمرو سبح ونادى أصحاب السفينة فانتشلوه ، وأضمرها عمرو فى نفسه ولم يبدها لعمارة بل قال لامرأته قبِّلى ابن عمك لتطيب نفسه بذلك ، فلما أتيا الحبشة مكر به عمرو وقال له : إنى كتبت لبنى سهم ليبرأوا من دمى لك فاكتب أنت لبنى مخزوم ليبرأوا من دمك لى حتى تعلم قريش أنّا تصافينا ، فلما كتب عمارة إلى بنى مخزوم بهذا ، قال شيخ من قريش : قُتل والله عمارة ، وعلم أنه مكر من عمرو .

(عبد الله بن أبى ربيعة) أمير جند اليمن منذ عهد النبى ﴿ﷺ﴾ حتى خلافة عثمان بن عفان (ر) وعند اشتداد الأمر على الخليفة كُتب إليه أن يوافى المدينة ، فبلغها بعد مقتله .

(جعفر بن أبى طالب) الذى وقف بين يدى النجاشى يجيبه إذ يسأله عن الإسلام ويقرأ عليه شيئاً من القرآن، تُرى هل يبرز المهاجرون أمياً يُبطل حجج مبعوثى قريش اللذين جاءا يردونهم إلى قومهم وأحدهما هو عمرو بن العاص ، ثم ذكر أن الكتاب الذى كتبه النجاشى إلى النبى كتبه بين يدى جعفر . أتُرى أن المهاجرين كانوا يفعلون هذا وفيهم المتعلمون مثل عثمان بن عفان وغيره؟

(عمرو بن هشام) إن شرفه ومنزلته فى القوم وثراءه وتجارته الواسعة كلها أسباب تنفى عنه الأمية ، ومرّ بك تلويحه للعباس ، وكان من أشد المتحمسين لصحيفة المقاطعة ، ثم من أشد المدافعين عن بقائها .

(الوليد بن المغيرة) سيد من سادات مكة وكبير مخزوم أصحاب التجارة الواسعة والثروة الهائلة، أنحسب مثل صاحب هذا الشأن يكون أمياً ، وهب أن هذا ممكن ، فهل يكون ممكناً أن يتحدث أميٌ ببحور الشعر ؟

ها هو دونك واحد وستون مكيّاً بدا لنا أنهم قارئون كاتبون بل وفيهم من تجاوز هذا ، وقد استثنيت عمرو بن هشام لأنى لم أجد نصاً صريحاً ذُكر فيه بالكتابة والقراءة وإن كانت القرائن تدلنا على تعليمه ، كذلك استثنيت نفراً من أشراف قريش وشعرائها ، مثل حكيم بن حزام وأبى البخترى بن هشام ونوفل بن خويلد وطعيمة بن عدى وعتبة بن ربيعة وأخيه شيبة بن ربيعة ونبيه بن الحجاج وأخيه منبه بن الحجاج وعمرو بن ودّ وغيرهم ومن الشعراء مثل أبى سفيان بن الحرث وضرار بن الخطاب الفهرى وأبى عزة الجمحى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى لنفس الأمر الذى استثنيت به عمراً .

وإذا كنا رأينا الموالى والمستضعفين يقرءون ويكتبون ألا يقرأ ويكتب أشراف مكة وسادتها ؟

ولا تحسب ذكرى البصرة والكوفة وميسان وغيرها من المدن التى فُتحت أنى ابتعدت عن الناس الذين يعنوننا ، لا ، فغالب هؤلاء ستجد ذكرهم فى (طبقات ابن سعد) عند ذكره مهاجرة المدينة والحبشة ، أو من القريشيين الذين كانوا عند دخول الإسلام فى مكة ولم يسلموا إلا عند الفتح وبعده ، وعدد يسير من حلفائهم لكنهم كانوا بمكة قبل مجىء الإسلام وإقامتهم بها دائمة .

وبعد فإن الواحد والستين الذين استطعت ذكرهم والثمانية عشر الذين ذكرهم البلاذرى هم ليسوا كل الكاتبين القارئين من الرجال فى مكة بل هم الذين طفت بذكرهم الأحداث فدلتنا عليهم ، وقد تقدم أثناء حديثى عن دواعى مكة الكتابيّة ما وضح لك هذا ، ومر بك أيضاً قول المسعودى : (إنه أسقط أسماء كثيرين من الكتبة لأنهم لم يداوموا الكتابة مع النبى ﴿ﷺ﴾ ، ورأيت النبى نفسه يقول لأحد المغمورين الذين كانوا يكتبون بين يديه : (اكتب يا غلام ، وأمسك يا غلام) ويعزز هذا وذاك أمرٌ ، وهذا الأمر يتمثل فى نفر غالبهم غير الذين ذكرهم البلاذرى والذين ذكرتهم . لكن الرواة وكتّاب السير والأخبار غفلوا عن تعينهم بهذا ، وذكروا بالتعليم ضمن أربع وسبعين رجلاً هم (أسرى بدر) ولا ينكر أحد أن النبى ﴿ﷺ﴾ رأى أن من لا يقدر على الفداء منهم عليه تعليم عشرة من صبية المسلمين .

ومن خلال إلقاء نظرة على الأربعة والسبعين الذين ذكرهم الواقدى [1] نرى أن أربعة منهم

(١) فى كتابه (المغازى) .

بادروا بالفداء ممن عرفناهم متعلمين ، وهم العباس بن عبد المطلب ، وابن أخيه عقيل بن أبى طالب ، وسهيل بن عمرو ، والوليد بن الوليد ، ومن ثم ترى أن الأسرى المتعلمين المتبقين غير الذين ذكرهم البلاذرى وغير الذين ذكرتهم .

لكن ما عددهم على وجه التحديد من مجموع السبعين ، الحق أننى لم أقف على هذا رغم أنى لم أتئل جهدا فيه ، ثم اعلم أن الواقدى ذكر هذا العدد إلاّ أنه لم يسمِ غير ستة وأربعين ، ثم أحصى الذين افتدوا بالمال منهم بستة وعشرين ، فيتبقى عشرون ، قُتل منهم اثنان صبرا وهما النضر بن الحرث وعقبة بن أبى مُعيطٍ ، ومات ثالث أثناء أسره ، فيتبقى سبعة عشر ، ذُكر منهم نفر لم يكن لهم مال وآخران أطلقوا بغير مال لكنه لم يحدد متى أطلقوا ولا كم من الوقت ظلوا فى أسرهم ، وأيضاً لم يذكر شيئاً فى الذين لم يكن لهم مال ، ومن ثم ترى أن الذين افتدوا عنده بالمال ست وعشرون أسيراً ، نضيف إليهم من المجموع الكلى ثلاثة لم يذكرهم الواقدى فى إحصائه ، وهم العباس بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحرث وثلاثة آخرين قتلوا بعد الأسر ، وعلى هذا نُخرج اثنين وثلاثين أسيراً من المجموع الكلى ، فيتبقى اثنان وأربعون .. فهل يا ترُى كان الاثنان والأربعون كلهم متعلمين ؟ هل كان المتعلمون نصفهم ، أو دون ذلك ؟ لا ندرى، إنما الذى يهمنا ويعزز رأينا هو أنه كان هناك نفر من الأسرى متعلمين ، واستفاد من تعليمهم أبناء المسلمين .

ولتقف على جلية الأمر وتتأكد أنهم غير الذين ذكرهم البلاذرى وغير الذين تسنى لى ذكرهم أقدم إليك أسماء (أسرى بدر) من (سيرة ابن هشام) لأن الواقدى كما نوهت لم يسمِ من مجموع الأربعة والسبعين الذين عنده سوى ستة وأربعين رغم أنه نهج فى هذا الأمر نهجاً حسناً فذكر اسم الأسير وآسره ، ثم أسماء المفاوضين الذين انتدبتهم قريش لفك أسراهم ، وذكر أيضاً تفاوت الفدية حسب منزلة المفتدَى ، وأيضاً ذكر رغبة الآسر ورؤيته فى هذا .. ونهج البلاذرى فى (أنساب الأشراف) نهج الواقدى إذ هو يتناول الأمر ، لكنه كان دون الواقدى إحصاءً ، أما ابن هشام فلم ينهج هذا النهج إنما هو ذكر أسماء أكبر عدد من الأسرى ، ورغم هذا فقد سقطت منه بضعة أسماء أيضاً ، ولكى أسهل عليك الأمر سأضع علامة فوق الذين افتدوا ، ورواية ابن هشام هذه عن ابن إسحاق ، قال ابن هشام : وأسر من المشركين من قريش يوم بدر :

* من بنى هاشم بن عبد مناف : **(عقَيل بن أبى طالب)** ، **(نوفل بن الحرث)** .

* ومن بنى عبد المطلب بن عبد مناف : **(السائب بن عبيد)** ، **(نعمان بن عمرو بن علقمة)** ،

(العباس بن عبد المطلب)[1] .

* ومن بني عبد شمس بن عبد مناف : (عقبة بن أبي مُعيط) ، (الحرث بن أبي وجزة) ، (عمرو بن أبي سفيان) [2] ، (أبو العاصي بن الربيع) ، (أبو العاص بن نوفل) ، ومن حلفائهم (أبو ريشه بن عمرو) ، (عمرو بن الأزرق) ، (عقبة بن الحرث الحضرى) .

* ومن بني نوفل بن عبد مناف : (عدى بن الخيار بن عدى) ، (عثمان بن عبد شمس بن أخى غزوان ، حليف لهم) ، (أبو ثور ، حليف لهم) .

* ومن بني عبد الدار بن قصى : (أبو عزيز بن عمير) ، (الأسود بن عامر ، حليف لهم) .

* ومن بني أسد بن عبد العزى : (السائب بن أبي حُبيس بن عبد المطلب) ، (الحويرث بن عبّاد بن عثمان) ، (سالم بن شماخ ، حليف لهم) .

* ومن بني مخزوم : (خالد بن هشام بن المغيرة) ، (أميّة بن أبي حذيفة بن المغيرة) ، (الوليد بن الوليد) ، (عثمان بن عبد الله بن المغيرة) ، (صفى بن أبي رفاعة) ، (أبو المنذر بن أبي رفاعة)، (أبو عطاء عبد الله بن أبي السائب)، (المطلب بن حنطب بن الحرث)، (خالد بن الأعلم، حليف لهم) .

* ومن بني جمح: (عبد الله بن أبي بن خلف)، (أبو عزة عمرو بن عبد الله)، (وهب بن عمير بن خلف)، (ربيعة بن دراج بن العنبس)، (وهب بن حذافة)، (الفاكه مولى أمية بن خلف).

* ومن بني سهم : (أبو وداعة بن ضبيرة بن سعيد) ، (فروة بن قيس بن عدى) ، (حنضلة بن قبيصة بن حذافة) ، (الحجاج بن الحرث بن قيس بن عدى) .

* ومن بني عامر بن لؤى : (سهيل بن عمرو) ، (عبدُ بن زمعة بن قيس) ، (عبد الرحمن بن منسوء) .

* ومن بني الحرث بن فهر : (الطفيل بن أبي قُنيع) ، (عُتبة بن عمرو بن جحدم) .

قال ابن هشام بعد سرده هذه الأسماء : قال ابن إسحاق فجميع من حُفظ لنا من الأسرى ثلاثة وأربعون رجلاً ، ووقع من جملة العدد رجل ، وممن لم يذكر ابن إسحاق من الأسرى من بني هاشم (عتبة حليف لهم من بني فهر) .

* ومن بني عبد شمس بن عبد مناف : (خالد بن أسيد بن أبي العيص) ، (أبو العريض بن يسار مولى العاص بن أمية) .

---

(١) لم يذكر ابن هشام أسره ولا فداءه وفداء ابن أخيه عقيل وحليفه .

(٢) لم يفتد بالمال إنما احتجز أبوه يثربياً ونجح فى فكه مقابل هذا اليثربى ، لكن عمراً بقى فى أسره وقتاً غير قصير .

* ومن بنى نوفل بن عبد مناف : (**نبهان مولى لهم**) .
* ومن بنى تيم بن مرة : (**مسافع بن عياص بن صخر**) ، (**جابر بن الزبير ، حليف لهم**) .
* ومن بنى مخزوم : (**قيس بن السائب**) .
* ومن بنى جمح : (**عمرو بن أبى بن خلف**)، (**أبو رهم بن عبد الله، حليف لهم**)، (**حليف آخر ذهب اسمه**)، (**موليان لأمية بن خلف أحدهما نسطاس**)، (**أبو رافع، غلام أمية بن خلف**) .
* ومن بنى سهم : (**أسلم ، مولى نبيه بن الحجاج**) .
* ومن بنى عامر بن لؤى : (**حبيب بن جابر**) ، (**السائب بن مالك**) .
* ومن بنى الحرث بن فهر : (**شافع وشفيع ، حليفان لهم من اليمن**) .

***

أما النساء فى مكة فقد رأينا أن البلاذرى قال : إن أم المؤمنين عائشة (ر) كانت تقرأ ولا تكتب ، كذلك أم المؤمنين أم سلمة .. وقد وجدت فى (الطبقات الكبرى) [1] ما دلنى على كتابة أم المؤمنين أم سلمة (ر) ، فابن سعد روى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قوله : إن أم سلمة زوج النبى ﴿ﷺ﴾ أخبرتهم أنها ابنة أبى أمية [2] بن المغيرة ، فكذبوها وجعلوا يقولون : ما أكذب الغرائب ، حتى أنشأ ناس منهم للحج فقالوا لها : أتكتبين لأهلك ، فكتبت معهم ، فرجعوا إلى المدينة فصدقوها وازدادت عليهم كرامة .

وقبل أن نودع مكة ههنا ألا نستروح بشىء من شعرها الجاهلى ، يقول زيد بن عمرو :

عزلت الجنّ والجنان عنى ... كذلك يفعل الجلد الصبورُ
فلا العُزى أدين ولا ابنتيها ... ولا أُطُمَىْ بنى طسم أديرُ
أربّاً واحداً أم ألف ربٍ ... أدين إذا تقسمتْ الأمورُ
ألم تعلم بأن الله أفنى ... رجالاً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قومٍ ... فيربو منهم الطفل الصغيرُ
وبيْنا المرء يعثر ثابَ يوماً ... كما يتروّح الغصن المطيرُ

---

(١) الجزء الثامن فى ذكر (تسمية النساء المهاجرات) .
(٢) كان هذا قبل زواجها من النبى ﴿ﷺ﴾ .

وقال ورقة بن نوفل مخاطباً زيداً : [1]

رشـدت وأنعـمت ابن عـمـرو ، وإنما ... تجنبت تنُّوراً مـن النار حـامـيـا

بديـنك ربّـاً ليس رب كـمـثـله ... وتركك جنـان الخبـال كـمـا هيـا

أقـول إذا جـاوزتُ أرضـاً مُـخـوفـة ... حنـانيك لا تظـهـر عـلىَّ الأعـاديا

حنانـيك إن الجن كـانـت رجـاءهم ... وأنـت إلهـى ربنـا ورجـائيـا

أدين لـرب يسـتـجـيب ولا أرى ... أدين لمن لا يـسـمع الدهـر داعـيـا

أقـول إذا صليـت فى كل بيـعـة ... تبـاركت قد أكـفـأتُ باسـمك داعيـا

وقال فى موضع آخر :

نسـبح اللـه تسبـيـحـاً نحـود به ... وقـبلنـا سُـبح الجـودىُّ والجُـمُـدُ

لقـد نصـحتُ لأقـوام وقلـت لهم ... أنا الـنذير فـلا يغـرركـم أحـدُ

لا تعُـبُـدنَ إلهـاً غـيـر خـالـقكم ... فـإن دعـوكم فـقـولوا بيننا حَـدَدُ

سبـحان ذى العـرش سبـحاناً يعـادله ... ربُّ البـريـة فـردٌ واحـد صـمـدُ

مـسـخـرٌ كلُّ مـا تحت السـمـاء له ... لا ينبـغى أن يسـاوى ملـكه أحـدُ

لـم تُغـنِ عن هُرْمُـز يومـاً خـزائنه ... والخلد قـد حـاولتْ عادٌ فـمـا خلدوا

ولا سليـمـان إذ تجـرى الـرياح له ... والإنس والجن فـيـمـا بينهـا تردُ

لا شىء مما ترى إلاّ بشـاشـتـه ... يبـقـى الإله ويـفنـى المال والـولدُ

***

الحديث عن اليـثربيين من الأوس والخـزرج فى هذا كالحديث عن المكيـين ، ووقفت على هذا وذاك ، إنما نحن الآن بصدد إحـصاء البلاذرى ، فنـراه يذكر أن عدد الكاتبـين فى الأوس والخزرج أحد عـشر كـاتباً هم : (سـعد بن عُـبادة بن دليم) ، المنذر بن عـمرو) ، (أبى بن كـعب) ، (زيد بن ثابت) ، (رافع بن مالك) ، (أسيد بن حضيـر) ، (معن بن عدى ، البلوى حليف الأنصار) ، (بشير

---

(1) هذا الشعـر ورد فى(جمهرة نسب قـريش) وفى (تاريخ الطبرى) و(معـجم البلدان)، و(الروض الأنف)، و(البداية والنهاية) .

بن سعد) ، (سعد بن الربيع) ، (أوس بن خولى) ، (عبد الله بن أبى) . أولئك هم الذين أحصاهم البلاذرى عدداً ، ومما لم يذكرهم ووردت أسماؤهم فى (الطبقات الكبرى) [1] يقول ابن سعد : كان (أبو عبس بن جبر) كاتباً قبل الإسلام و(عاصم بن ثابت) الذى بعثه النبى ﴿ﷺ﴾ مع اللحيانيين الذين سألوه أن يبعث معهم نفراً يقرئونهم القرآن ويعلمونهم شرائع الإسلام . (سعد بن زرارة) كان كاتباً (عبد الله بن كعب) كان كاتباً ، (عبد الله بن رواحة) كان كاتباً ، وهو أحد النقباء الاثنى عشر ، (عبد الله بن زيد) كان كاتباً ، هو ممن شهدوا العقبة مع السبعين ، وقد كتب بين يدى النبى ﴿ﷺ﴾ صيغة كتاب الذين أسلموا من حَدَس من لخم ، (أبو عامر الراهب) كان كاتباً ، وذكر أنه قرأ الكتب القديمة (سعد بن معاذ) كان كاتباً ومر بك الحديث عنه أثناء عمله للنبى ومن بعد (زياد بن لبيد) مر بك الحديث عنه فى تلك المواضع ، (سعد بن مالك) كان كاتباً ، وكتب وصيته فى مؤخرة رحله لما أحس الموت إذ هو يتجهز لغزوة بدر ، (عمير بن سعد) كان كاتباً ، وارتقى إلى إمارة حمص حتى خلافة عثمان (ر) ، (حسان بن ثابت) كان كاتباً ، وقد مرّت بك كتابته ، (محمد بن مسلمة) كان كاتباً ، وهو الذى كتب صيغة كتاب مهره بين يدى النبى ﴿ﷺ﴾ ، وشهد على كتاب (وفد ثمالة والحُدّان) وشهد كذلك فى مواضع أخرى مرت بك ، وأيضاً كتب ، (ثابت بن قيس) الذى كتب صيغة كتاب وفد ثمالة والحدان كتب وشهد فى مواضع أخرى ، (أنس بن مالك) الذى مر بك الحديث عنه ، (أبو الدرداء) الذى مر بك الحديث عنه أيضاً ، وقد يكون كتب بغير العربية لكون القصص التى كان يكتبه غير عربية ، وأبو الدرداء هو أخو عبد الله بن رواحة ، (سهيل بن حنيف) الذى ولاه الإمام على (ر) إمارة المدينة ، ثم كتب إليه أن يلحق به بالكوفة ، (أبو مسعود الأنصارى) كان كاتباً ، وقد استخلفه الإمام على (ر) على الكوفة حين خرج إلى صفين ، (سلمان الفارسى) الذى قيل عنه أنه كان يقرأ العربية والكتب القديمة ....

ها هو دونك تسعة عشر رجلاً جمعتهم ، وهؤلاء وأولئك الذين ذكرهم البلاذرى ليسوا هم جميع كتبة المدينة من الأوس والخزرج ، فإن شأن المدينة الذى بدا لك ينفى عنها أن يكون فى أكبر عنصريها ثلاثون رجلاً هم كل الذين يكتبون ويقرءون .

ورأينا البلاذرى لم يذكر من النساء واحدة ، ولعل حديث الرُّبيع بنت معوذ يدلنا على غير ذلك ، أما ترى فيه دليلاً على انتشار الكتابة فى المدينة : (دخلت فى نسوة من الأنصار على أسماء فى زمن عمر وكان ابنها عبد الله بن أبى ربيعة يبعث إليها بعطر من اليمن ، وكانت تبيعه إلى

(١) فى مواضع متفرقة ، مثل (طبقات البدريين من الأنصار) ، و(والنقباء فى البيعة الأولى والثانية) ، وفى مواضع أخرى تجدها من الجزء الثالث حتى السابع .

الأعطية، فكنا نشترى منها ، فلما جعلت لى قواريرى ووزنت لى كما وزنت لصواحبى قالت : اكتبن لى عليكن حقى ، فقلت : نعم أكتب .

وما كانت الرُّبيع بالصغيرة حينئذ .

وللأسف أن إحصاء البلاذورى هذا رأيته مسلماً به عند كثيرين كأن صاحبه كان معاصراً لمجىء الإسلام فهو شاهد عيان .

وننسى أن الرجل من معاصرى الثلث الأخير من القرن الثالث الهجرى ، إذ ثمة من يذكرون أنه أدرك أحمد المعتضد خليفةً ، والمعتضد اعتلى العرش العباسى فى الشهر السابع من سنة تسع وسبعين ومائتين هجرياً . والحقيقة أن ذكر البلاذرى لهذا العدد أمر محير ويجعل المتأمل يذهب بفكره مذاهب شتى ..

هل الرجل قعد عن البحث والتحقيق وكان هذا فى استطاعته لإقامته ودار الكتب المركزية فى مدينة واحدة هى بغداد ؟

هل الرجل سعى إلى هذا ولم تكن هذه الدار على ما نعهده اليوم من المكتبات الوطنية والكبرى بأن نختلف (مثلاً) إلى دار الكتب عندما نريد مرجعاً ما ؟ وإذا ما عنينا رقماً أو حرفاً يأتينا مرادنا فى التو والساعة ومن بين آلاف الكتب التى هى تحت مصنف واحد ، وعلم المكتبات الوطنية علم قائم بذاته اليوم ومتطور على الدوام ..

هل المؤلفات التى جاء بها ذكر هذا والتى جرى تدوينها قبل مولد البلاذرى بعقود غابت عن هذه الدار ؟ لكن أنّى وقد عنى الخلفاء والقائمون على الأمر بجلب الكتب الأجنبية من بلاد بعيدة لترجمتها والانتفاع بها ولا يعنون كتب السيرة والأدب التى هى بين ظهرانيهم ؟ هل الرجل عَمِدَ إلى هذا ؟ هل أوعز إليه بهذا ؟

لا ريب أن ذكره هذا العدد وخلو ما أحصاه من عدد آخر به كثير من الأعلام مثل أبى بكر الصديق وورقة بن نوفل وعمرو بن العاص والنضر بن الحرث وخالد بن الوليد يجعلنا نحار هكذا .. لكننا ننسى أيضاً أمراً مهما ، وهو أن البلاذرى لم يعنِ الأمر بذاته ، أى لم يعن إحصاءً نأخذ به ونعول عليه وجاء ذكره هذا فى صفحتين من كتاب يدنو من الخمسمائة صفحة اسمه (فتوح البلدان) وليس (كُتّاب وقرّاء البلدان) ، ولا يذهب خاطرك أنه يعنى فتحاً علمياً وأن مكة والمدينة تخلفتا عنه ، لا طبعاً إنه لم يعن هذا ، وأصدقك الحديث أننى حين التقيت بهذا الكتاب حسبت

الإشارة إليه خاطئة وأنا أقرأ صفحاته باحثاً عن هذا الموضوع ، إذ كنت، نسيت [1] الورقة التى دوّنت بها رقم الصفحتين وقبل نهايته وحين أوشكت أن أطويه وجدت هاتين الصفحتين كأنهما غريبتان عن الكتاب .

أثر عظيم عن النبى

أحسبنى قدمت إليك ما يدحض عن القوم عموم أمية القراءة والكتابة وأحسبك رأيت صورة مخالفة لما يدعى أولئك الناس ، وذلك من خلال ما بين يديك عن طريق العلم الحديث وعن طريق الأدلة الدامغة بعيداً عن الظن والهوى .

وأختتم هذا الموضوع بأثر عظيم عن النبى «ﷺ» من كتاب (تقييد العلم) ، يقول الخطيب البغدادى فى القسم الثالث من إباحة الكتابة : عن أبى هريرة قال : إن رجلاً شكا إلى النبى «ﷺ» قلة حفظه ، فقال له النبى «ﷺ» : عليك بيمينك ، (أى استعن بيمينك فى الكتابة) .

وفى الباب الثالث فى ذكر ما روى عن النبى «ﷺ» أنه قال : قيدوا العلم بالكتابة ، وروى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : قلت يا رسول الله أأقيد العلم ، قال الرسول «ﷺ» : نعم ، قلت : وما تقييده ، قال : الكتابة . وفى الباب الرابع استشهد بالقرآن : (لا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله) ، وفى الباب الخامس يقول الخطيب : عن رافع : قلنا يا رسول الله إنّا نسمع منك أشياءً أفنكتبها ؟ قال النبى «ﷺ» : اكتبوا ولا حرج ، وفى الباب السادس يأتى الخطيب برواية أخرى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : قلت يا رسول الله إنى أسمع منك شيئاً فأكتبه ، قال الرسول : نعم .

ولعل هذا هو سبب اتخاذ عبد الله بن عمرو لصحيفته (الصادقة) ، وفى الباب التاسع يذكر الخطيب أن رجلاً يدعى أبا شاة لما سمع خطبة النبى «ﷺ» بعد فتح مكة قال : اكتبها لى يا رسول الله ، فقال الرسول : اكتبوا لأبِى شاة .

وفى (الطبقات الكبرى) يقول ابن سعد [2] : عن ابن عباس قال : اشتكى النبى يوم الخميس ، فجعل ابن عباس يبكى ويقول : يوم الخميس وما يوم الخميس ، اشتد بالنبى وجعه فقال : ائتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبدا .

ثم رواه عن على بن أبى طالب أنه قال : كنا عند النبى لما ثقل فقال يا على ائتنى بطبق أكتب فيه

---

(١) كنت وقتئذ مستعيراً إيّاه من دار الكتب .

(٢) أحسبك تتنبه أنه لم يروِ عن ابن عباس مباشرة إنما بعد عنعنة طويلة ، وورد هذا فى (ذكر مرض النبى ووفاته) .

ما لا تضل به أمتى بعدى .

كذلك رواه عن عمر بن الخطاب أنه قال : كنا عند النبى وبيننا وبـين النساء حجاب فقال النبى غسلونى بسبع قرب وأتونى بصحيفة ودواة أكتب كتاباً لن تضلوا بعده أبداً .

وفى موضع آخر [1] قال عن السيدة عائشة أنها قـالت : لما ثقل رسول الله دعا عبد الرحمن بن أبى بكر فقال : ائتنى بكتف حتى أكتبْ لأبى بكر كتاباً لا يختلف عليه .

وعنها أيضاً أنها قالت : إن رسول الله قال : ادعى أباك وأخاك حتى أكتب لأبى بكر كتاباً فإنى أخاف أن يقول قائل ويتمنى ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر ●

أحمد الأحمدين

ديسمبر ١٩٩٧ م

(١) فى (ذكر إسلام أبى بكر ووفاته) .

المراجع والمصادر

(١) **أساس البلاغة** . جاد الله محمود بن عمر الزمخشرى . الهيئة المصرية العامة للكتاب . مركز تحقيق التراث .

(٢) **أدب الكتاب** . لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى ، تحقيق محمد بهجة الأثرى . مراجعة محمود شكرى الألوسى . المطبعة السلفية . القاهرة .

(٣) **الأمالى** . لأبى على القالى . دار الكتب المصرية .

(٤) **الأدب الجاهلى** . طه حسين . دار المعارف المصرية .

(٥) **البداية والنهاية** . لأبى الفداء حافظ بن كثير . تحقيق أحمد عبد الوهاب الفتح . دار الحديث . القاهرة .

(٦) **البلدان** . لابن فقيه . دار الكتب المصرية .

(٧) **البيان والتبين** . لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق وشرح عبد السلام هارون . دار الجيل . بيروت .

(٨) **تاريخ العرب قبل الإسلام** . جواد على . مطبوعات المجمع العلمى العراقى .

(٩) **تاريخ الطبرى** . لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف المصرية .

(١٠) **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين** . فليب حتى ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ، ومراجعة جبرائيل جبورة . دار الثقافة . بيروت .

(١١) **تاريخ ابن خلدون** . لعبد الرحمن بن خلدون . دار الكتب المصرية .

(١٢) **تاريخ الخط العربى** . محمد فخر الدين بك . دار الكتب المصرية .

(١٣) **التنبيه والإشراف** .لأبى الحسن على بن الحسين المسعودى . ليدن . مطبعة بر يل .

(١٤) **تفسير الطبرى** . لأبى جعفر محمد بن أحمد الطبرى . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٥) **تفسير القرطبى** . لأبى عبد الله محمد بن أحمد القرطبى . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٦) **تقيد العلم** . للخطيب البغدادى . تحقيق يوسف العش . طبعة دمشق .

(١٧) **جمهرة نسب قريش** . للزبير بن بكار . حققه محمود محمد شاكر . دار الكتب المصرية .

(١٨) **جمهرة النسب** . لابن الكلبى . رواية عن سعيد السكرى . حققه وأكمل نسقه عبد الستار أحمد فراج . التراث العربى. سلسلة تصدرها وزارة الإعلام الكويتية .

(١٩) **الحيرة** . تأليف يوسف رزق الله غنيمة . مطبعة المعارف . بغداد .

(٢٠) **حياة محمد** . محمد حسين هيكل . دار المعارف المصرية .

(٢١) **ديوان الأعشى** . تحقيق كامل سليمان . دار الكتاب اللبنانى .

(٢٢) **ديوان امرئ القيس** . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف المصرية .

(٢٣) **ديوان النابغة الذبيانى** . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف المصرية .

(٢٤) **ديوان طرفة بن العبد** . بشرح الأعلم الشنتمرى . تحقيق درية الخطيب ولطفى الصقال . مطبوعات مجمع اللغة العربية . دمشق .

(٢٥) **ديوان حسان بن ثابت** . تحقيق سيد حنفى . مراجعة حسن كامل الصيرفى . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢٦) **ديوان زهير بن أبى سُلمى** . المكتبة الثقافية . بيروت .

(٢٧) **ديوان الحطيئة** . بشرح ابن السكيت والسُكرى . تحقيق نعمان أمين . دار الكتب المصرية .

(٢٨) **الروض الأنف فى شرح السيرة** . لعبد الرحمن السُهيلى ومعه السيرة لابن هشام . تحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل . دار الكتب الحديثة . القاهرة .

(٢٩) **سيرة ابن هشام** . لمحمد بن عبد الملك بن هشام . راجع أصولها وضبط غريبها وعلق حواشيها محى الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة .

(٣٠) **شعراء النصرانية فى الجاهلية** . جمعه ووقف على تصحيحه الأب لويس شيخو اليسوعى . مكتبة الآداب . القاهرة .

(٣١) **الاشتقاق** . لابن دريد . دار الكتب المصرية .

(٣٢) **صبح الأعشى** . لأبى العباس أحمد بن على القلقشندى . دار الكتب المصرية .

(٣٣) **الصاحبى** . لأبى الحسين أحمد بن فارس . المطبعة السلفية القاهرة .

(٣٤) **الأصمعيات** . لأبى سعيد بن عبد الملك الأصمعى . تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون . دار المعارف المصرية .

(٣٥) **الطبقات الكبرى** . لمحمد بن سعد . دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت .

(٣٦) **طبقات فحول الشعراء** . لمحمد بن سلام . شرح محمود محمد شاكر . دار المعارف المصرية .

(٣٧) **طبقات الأمم** . لأحمد بن صاعد الأندلسى . وضع المقدمة محمد بحر العلوم . المكتبة الحيدرية . النجف .

(٣٨) **العقد الفريد** . لأبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه . شرحه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه: أحمد أمين، أحمد الزين ، إبراهيم الابيارى . مطبعة التأليف والنشر . القاهرة .

(٣٩) **الأغانى** . لأبى الفرج الأصبهانى . طبعة بولاق . طبعة سامى .

(٤٠) **المغازى** . للواقدى . دار الكتب المصرية .

(٤١) **فتوح البلدان** . لأبى العباس أحمد بن يحيى البلاذُرى . مطبعة الموسوعات . القاهرة .

(٤٢) **الفائق** . لجاد الله محمود بن عمر الزمخشرى . ضبطه وعلق عليه على محمد البجادى ومحمد أبو الفضل إبراهيم . دار الكتب المصرية .

(٤٣) **فجر الإسلام** . أحمد أمين . الهيئة المصرية العامة للكتاب . مكتبة الأسرة .

(٤٤) **الاقتضاب** . للبطليموس . تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٤٥) **قصة الكتابة العربية** . إبراهيم جمعه . دار المعارف المصرية .

(٤٦) **الكامل فى التاريخ** . لأبى الحسن على بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير . صححه الشيخ عبد الوهاب النجار . المطبعة المنيرية . مصر .

(٤٧) **مختار الشعر الجاهلى** . مصطفى السقا . دار الكتب المصرية .

(٤٨) **مصادر الشعر الجاهلى** . ناصر الدين الأسد . دار المعارف المصرية .

(٤٩) **مقدمة ابن خلدون** . عبد الرحمن بن خلدون . دار الكتب العلمية . بيروت .

(٥٠) **المعلقات السبع الطوال بشرح الأنبارى** . تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف المصرية .

(٥١) **المفضليات** . للمفضل الضبى . تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر عبد السلام هارون . دار المعارف المصرية .

(٥٢) **المنهل الصافى فى العروض والقوافى** . محمد سليم الجُندى . طبعة دمشق .

(٥٣) **المحبر** . لابن حبيب . دار الكتب المصرية .

(٥٤) **معجم ما استعجم** . لأبى عبيد الأندلسى . تحقيق مصطفى السقا . دار الكتب المصرية .

(٥٥) **النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية** . للأب لويس شيخو اليسوعى . مطبعة الآباء اليسوعيين . بيروت .

(٥٦) **النابغة الذبيانى** . محمد سليم الجُندى . طبعة دمشق .

(٥٧) **الورق والوارقة فى الحضارة الإسلامية** . محمد طه الحاجرى . مطبوعات المجمع العلمى العراقى .

(٥٨) **الوزراء والكتاب** . لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى . حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا ، إبراهيم الأبيارى ، عبد الحفيظ شلبى . مطبعة الحلبى . القاهرة .

استعنت بغالب هذه المراجع والمصادر من دار الكتب فلهم جزيل الشكر

الفهرس

قائمة الإصدارات

موسوعة تاريخ حضارات العالم   سميث . ترجمة : زينات الصباغ
أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث   صلاح زكى
تاريخ العلم   د. عبد الحكيم بدران
العلوم للجماهير   باربارا كاستيل . ترجمة د. عبد الحكيم بدران
خيانة المثقفين   د. عبد الحكيم بدران
صراع الحضارات (إثبات الأنا ونفي الآخر)   شعيب عبد الفتاح
الجات والتبعية الثقافية   د. مصطفى عبد الغنى
حقيقة العرب   د. مصطفى عبد الغنى
صورة العرب في الغرب   د. عزة على عزت
خفايا المستقبل إلى أين تمضي البشرية وأين موقعنا   محمد الحديدى
المياه العربية بين خطر العجز ومخاطر التبعية   عبد الله العقالى
العرب وإسرائيل .. ميزان القوى ومستقبل المواجهة   د. محمد عبد الشفيع عيسى
السلام الإسرائيلي (قراءة في المشروعات الاسرائيلية)   حسين معلوم
السلام الفتاك   محمد خليفة
أوهام السلام   عبد الخالق فاروق
السوق الشرق أوسطية (من هرتزل إلى باراك)   إكرام عبد الرحيم
البديل الإسرائيلي للعروبة   سيد زهران
مشروع للانتحار القومي !   مصباح قطب
في جنازة المقاطعة العربية لإسرائيل   شفيق أحمد على
الملف السري للسادات والتطبيع   شفيق أحمد على
مخابرات ومخدرات   شفيق أحمد على
عبادة الشيطان على ضفاف النيل   حسين عبد الواحد
الماسونية   خليل إبراهيم حسونة
الحركات الهدامة   خليل إبراهيم حسونة
الصهيونية السياسية   خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني   خليل إبراهيم حسونة
الاستيطان الصهيوني   خليل إبراهيم حسونة
الإرهاب الأمريكي   خليل إبراهيم حسونة
القدس   خليل إبراهيم حسونة
حماس .. حركة المقاومة الإسلامية   خالد أبو العمرين
يهود ضد إسرائيل   ياسر حسين
حلف الضحية والجلاد   ترجمة : زينات الصباغ
التواطؤ الصهيوني النازي   بن هخت ترجمة : حمدي متولى
غزة أريحا - المأزق والخلاص   عبد القادر ياسين
غزة أريحا - التسوية المستحيلة   جورج المصرى
صفقة التسوية الأردنية الإسرائيلية   د. السيد عوض
أساطير التوراة   عاطف عبد الغنى
التناقض في تواريخ وأحداث التوراة   محمد قاسم
بروتوكولات حكماء صهيون
التلمود
الحرب العالمية الرابعة   ياسر حسين
القوة العسكرية الإسرائيلية   جمال الدين حسين
سقوط نجم مخابرات إسرائيل   جمال الدين حسين
عملية السرب الأحمر   جمال الدين حسين
الاختراق الإسرائيلي للزراعة في مصر   صلاح بديوى
اختراق الأمن الوطني المصري   عبد الخالق فاروق

أسرار الجاسوسية ولعبة المخابرات   يوسف هلال
الجماعات السياسية الإسلامية والمجتمع المدني المصري   د. أحمد حسين حسن
جماعات المصالح المصرية والسلطة السياسية   د. أحمد فارس
أزمة الانتماء في مصر   عبد الخالق فاروق
التطرف الديني ومستقبل التغيير في مصر   عبد الخالق فاروق
كارثة المعونة الأمريكية   جما ل غيطاس
قضية لوكيربي وأحكام القانون الدولى   د. ميلود المهذبي
أزمة لوكيربي والخروج من بيت الطاعة الأمريكى   د. السيد عوض
العلاقات الليبية - الأمريكية   د. السيد عوض
بان أمريكان ١٠٣ (اتهام ليبيا أم اتهام أمريكا)   مجموعة باحثين
حلايب .. نزاع الحدود بين مصر والسودان   أحمد محجوب
الإخوان والعسكر   حيدر طه
القوى الخارجية والاتجاهات الإقليمية في السودان   د. السيد فليفل
تحطم الحكم العنصرية في جنوب أفريقيا   د. السيد فليفل
أيام الفزع في الجزائر   خالد عمر بن ققه
الإسلام والعرش   سيد زهران
من يحمي عروش الخليج (النفط والتبعية)   د. أحمد ثابت
إعدام صحفي   سعيد حبيب
الكرامة الضائعة   حمادة إمام
عبد الناصر واليمن   د. عبد العزيز المقالح
عبد الناصر . هذا المواطن   سليمان الحكيم
حوارات عن عبد الناصر   سليمان الحكيم
عبد الناصر .. والإخوان (أسرار العلاقة الخاصة)   سليمان الحكيم
المرأة التي أحبها عبد الناصر   شفيق أحمد على
عبد الناصر وعبد الحليم والزمن الجميل   حسن صابر
البديل الناصري (قراءة في أوراق التنظيم الناصرى)   سيد زهران
أسرار وخفايا ثوار يوليو   محمد متولى
عن الناصرية والناصريين (حوار مع د. الأتاسى)   مجدى رياض
الأقليات التاريخية في الوطن العربى   د. أحمد الصاوي
الناصرية والتاريخ   سيد حسان
الناصرية .. الأيديولوجيا والمنهج   سيد زهران
التنمية المستقلة في النموذج الناصرى   جورج المصري
فلسطين الانتفاضة .. جدل الوطن والأمة   د. أحمد ثابت
كاريزما الزعامة الناصرية   د. السيد الزيات
الناصرية والتجديد   مجدي رياض
ناصرية جمال عبد الناصر   جورج المصرى
ناصرية الناصرية الغائبة   جورج المصري
الحركة الإسلامية في مصر   صالح الورداني
الحركة الإسلامية في مصر   صالح الورداني
الكلمة والسيف   صالح الورداني
عبود الزمر . حوارات ووثائق   أحمد رجب
الله واحد في الإنجيل   ترجمة : عادل حامد
المسيحية والإسلام   حسين السيد
الحكومة والسياسة في الإسلام   ترجمة : سيد حسان
الوجيز في بداية التكوين   عبد العزيز محمد ، مصطفي الخولي
رسالة التوحيد للإمام محمد عبده   تحقيق د. محمد عمارة

الإسلام والعروبة	مجدي رياض
الوطن وحقوق غير المسلمين	محمد محمود عبد الله
كيف تقرأ القرآن	محمد محمود عبد الله
كيف تجود القرآن	محمد محمود عبد الله
كيف تحفظ القرآن	محمد محمود عبد الله
التربية الإسلامية	محمد محمود عبد الله
القرآن . حل مشاكل الأمة	محمد محمود عبد الله
قبس من نور الأسماء	محمد محمود عبد الله
الأحرف السبعة وأصول القراءات	محمد محمود عبد الله
صوموا تصحّوا (الصيام والصحة)	محمد محمود عبد الله
الأيام المباركة في القرآن والسنة	محمد محمود عبد الله
علمني يا أبي (حوار حول رسالة الصلاة)	حسن سليمان
حروب المشايخ	أحمد الدسوقي
أمن وحماية البيئة	خالد القاسمي / وجيه البعيني
ما هي السينما	صالح أبو سيف
قضايا المونتاج المعاصر (جزءان)	د. عفت عبد العزيز
الصوت والضوضاء	د. مصطفي عبد المطلب
المواد شبه الموصلة ودورها	د. مصطفي عبد المطلب
الأعشاب الطبية	د. موسي الخطيب
الإبر الصينية في العلاج والتخدير	د. لطفي سليمان
المساجد الألفية في الإسلام	د. أحمد الصاوي
معالم في تاريخ حضارة آسيا الوسطى	د. أحمد الصاوي
النقود الإسلامية في مصر	د. رأفت النبراوي
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور (تراث)	د. أحمد الصاوي
رمضان .. زمان	د. أحمد الصاوي
برلنتي والمشير (القصة الحقيقية)	سيد زهران
اعترافات الأميرة جيهان	ماجدي البسيوني
الجنس والشباب الذكي	كولن ولسون ترجمة أحمد عمر شاهين
تجارة الجنس	جاري جوردون ترجمة زينات الصباغ
صناعة النجوم	سكوت أونيل ترجمة زينات الصباغ
أشهر فضائح القرن العشرين	حسن صابر
أسوأ حكام القرن العشرين	حسن صابر
نجوم في الوحل	حسن صابر
الأميرة العارية وعرش سيئ السمعة	حسن صابر
رؤساء أمريكا في الوحل	حسن صابر
أميرة علي قائمة الاغتيال	محمد رجب / حسن عبد الواحد
أمريكا . الانهيار السياسي والأخلاقي	حسين عبد الواحد
بنات إبليس (نساء في مملكة الشر)	حسين عبد الواحد
حسناء البنوك ومعالي الوزير	أسامة الكرم
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقًا	أحمد عمر شاهين
الثلاثية الروائية	د. أحمد إبراهيم الفقيه
حذاء السيد المنسى	أشرف العوضي
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
عندما تبيض الديوك	أمجد صابر

لا أحد يحبك	أماني فهمي
ألم يخلقها الله امرأة	أمين العزب
مأساة أسرة	أمين العزب
دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة العروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
التوهمات	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
أنا ودورا وماعت	رفقي بدوي
سيرة عزبة الحسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
حبيبي يا ناس	سليمان كابوه
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الموز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحد	عبده خال
صَعيدي صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
سراديب	عفاف السيد
إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وظلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرحل	ليلى الشربيني

رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النغم	ليلى الشربينى
عريس لبنت السلطان	محفوظ عبد الرحمن
الخرابة ٢٠٠٠	محمد الشرقاوى
كوميديا الانسجام	محمد بركة
[illegible]	محمد صفوت
إلحاح	محمد عبد السلام العمرى
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمرى
لوحة ممنوع	محمد علي سعد
الخروج إلي النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
فوق لهيب الشموع	ممدوح القديري
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
دم الأبنوس	ناجي الشكري
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الحضور في غياب قرط اللؤلؤ	نهلة السوسو
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخورى
رويدًا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق (البياتي وآخرون)	إعداد : بثينة الناصري
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
تماماً إلى حوار جثة يونسكو	رشيد الغمرى
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
نصبح علي خير	سعدني السلاموني
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبرى السيد
دنيا تناديها	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر، النجوم، العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
حواديت لفندى	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
راتب الألفة	علوان مهدى الجيلانى
إضاءة في خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أحوال الفتى الطائر	فاروق خلف
بيت يمر بالبرارى	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
اذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسينى
ليالي العنقاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد
هذه الليلة الطويلة	د.أحمدصدقى الدجانى
الدمية والدم	أنور عبد المغيث
محرقة سافونا رولا	ميلاد حكيم
اللعنة الأبدية .. مسرحية شعرية	محمد الفارس
مكة الفرود	محمود عبدالحافظ
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حقول الرماد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
أثر الثقافة العربية في الأدب الأسبانى	د. أحمد أبو حمد
نظريات التلقى وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة	د. أحمد أبو حمد
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
عبد الله البَرَدُّونى .. حياته وشعره	د. أحمد عبد الحميد
قراءة المعانى في بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
مغامر حتى النهاية	إدوار الخراط
مسالك الرؤى (قراءة في أعمال خيري عبد الجواد)	إدوار الخراط
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشى
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر المرعوبة	سليمان الحكيم
البعد الغائب ، نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي في السعودية	شعيب عبد الفتاح
البواكير في القصة القصيرة	شوقى عبد الحميد
الثقافة الشعبية وأوهام الصفوة الرثة	د. صلاح الراوى
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثًا عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام في الأدب العالمى	على عبد الفتاح
هيمنجواي .. حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية ، صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
أبو رجل مسلوخة	محمد مستجاب
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديرى
مقالات في الحياة والأدب	ممدوح القديري
الرواية العربية ، رسوم وقراءات	نبيل سليمان

الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية

